

تهذيب مدارج السالكين

كتبه

الإمام ابن قيم الجوزية

متوفى سنة ٧٥١ هـ

وهذبه:

عبد المنعم صالح العلي العزي

تهذيب مدارج السالكين

كتبه الإمام

ابن قيم الجوزية

وهذبه

عبد المنعم صالح العلى العزى

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

الطبعة الأولى للناشر

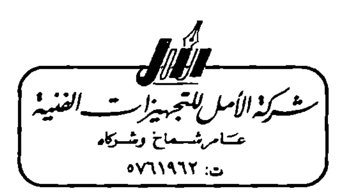
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية للناشر

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ٧٠٦٨ / ١٩٩٧م

الترقيم الدولى 3 - 165- 265 - 977





دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذى ميَّز طريق الهداية عن متاهات الغواية، وبيَّن محاسن الأخلاق الإيمانية، وجعلها مدارج صاعدة إلى جنانه، مفتوحة أمام أولى الهمة من العابدين.

ثم الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفضل وأزكى من حرص على هذه الأخلاق، فكان أسرع السالكين، وأول الواصلين.

ورضى الله تعالى عن صحابته الطاهرين أجمعين، الذين اتبعوا النور، وامتثلوا الأمر، وعافوا بهارج الدنيا، وتجردوا للعبادة والجهاد، حتى صاروا خير مثال للتربية الكريمة النبوية، وعلى تابعيهم بإحسان، ومن تبعهم من أخيار القرون الأولى، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم، من السلف الصالح ومن لحق بهم على مر العصور، من الفقهاء الزهاد، والدعاة العاملين، والقادة المشمرين.

وفى رجال الإسلام اليوم بركة، ولهم منا تحية ودعاء.

وبعد:

فإن الصحوة الإسلامية الحاضرة التى واكب انتشارها مقدم القرن الهجرى المبارك الجديد تعتبر من أهم أحداث التاريخ الإسلامى المعاصر، وفى سعتها واندفاعتها ما يتيح للحريص على إبراز معالم ماضى الإسلام أن يجعلها تتويجاً ونهاية لسلسلة المفاخر التى قدمتها الدعوة الإسلامية فى القرن الرابع عشر، كما أن فى مضاء عزمة رجالها ووعيهم لضرورة الجد فى استدراك النقص ما يتيح من باب آخر للمتفائل أن يعدها أول تباشير الحقائق التى تؤكد وتجزم بإذن الله تعالى بأن المستقبل لهذا الدين القيّم فى القرن الخامس عشر.

وصحوة هذا شأنها فى تجميل التراث السالف وتقريب المستقبل الباسم من حقها علينا أن نبادر لرعايتها وإنمائها وتمتين عمليتها التربوية التى يُفترض فيها أن ترتقى بمستويات أهلها، وتأخذ منهم مزيداً من العطاء والبذل، وتضرم فى أفئدتهم لهيباً من الحماسة والشجاعة، مثلما تمنحهم نقاء العقيدة، بإرجاعها إلى حدها السلفى الأصيل من غير بدعة، وجمال الأخلاق، بإحياء سمت المروءة ومكارم الأعمال القلبية بلا تكلف، ووضوح الفقه، بإسناده إلى صحاح النصوص ومقالات جمهور الفقهاء دونما شذوذ، وشمول الوعى بإحلال تناسب فى الفن العملى مع أعراف المجتمعات الحاضرة وأبعادها المدنية.

ولقد كان من اجتهادنا فى ذلك، اختيار كتاب « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك

نستعين» والقيام بتهذيبه، وتقديمه إلى شباب الإسلام، عنوانا للمساهمة في هذه التنمية للعملية التربوية، ورديفاً لتهذيب شرح العقيدة الطحاوية.

ولايعرف قيمة «المدارج» حق معرفتها إلا من درج، وكتاب الإمام ابن القيم هذا عمل فذ، غزير المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقة استخراج المعانى الإيمانية ولطف الإشارات القلبية ماليس فى غيره، حتى إن الكتابات الأخرى لابن القيم لا تستطيع أن تنافس نفسه فيه، وكأنى به قد كتبه واعتكف له فى أبهى أيامه وأثناء وصوله إلى ذروة صفاء حياته، فإن كل مصلح أو مؤلف أو شاعر يرتفع فى حياته مرة إلى علو قد لايتكرر، والمدارج نتاج تأملات تلك الأيام العوالى فى حياة ابن القيم، حتى انه هو نفسه لم يستطع الحفاظ على هذا المستوى يوم اختصر المدارج فى المختصر الذى سماه: «طريق الهجرتين» وشتان ما بين الإسلوبين والروحين.

منازل سير.. وميزان اعتدال

والأصل الذى حكم ترتيب كلام ابن القيم هو كتاب «منازل السائرين» لشيخ الإسلام أبى إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الأنصارى الهروى الحنبلى الصوفى المتوفى سنة ٤٨١ هـ، فقد قسم طريق سير المؤمن إلى الله تعالى إلى مائة منزل، هى مثل محطات التزود فى أى طريق طويل، أو هى منازل طبقية ودرجات صعود ومدارج انطلاق، تتوالى فى تتابع، وجعل لكل منزلة مفهوما وحداً يليق لعامة المسلمين، وآخر لخاصة المؤمنين، ثم لخاصة الخاصة، مما اضطره إلى كثير من التكلف المعنوى واللفظى الذى تأباه طبيعة السكينة الإيمانية.

ولم تكن متابعة ابن القيم للشيخ الهروى هدفاً له، ولا هى من أهدافنا، ولكنه وجد بعض المبتدعة يروجون لأخطاء وقع فيها الهروى، وشطحات وأوهام جنح إليها بسبب مشربه الصوفى، رغم اتباعه لعقيدة وفقه وطريقة سلوك الإمام أحمد بن حنبل على وجه الإجمال، فرد ابن القيم هذه الأخطاء، وأوضح الأوهام، وأدّاه رده وإيضاحه إلى استطراد ملئ بالمخاطبات القلبية كانت انفع وأهم من الرد، وهذه الاستطرادات هى مبتغانا، لقيمتها التربوية، وهى التى أبقى عليها هذا التهذيب.

كان الهروى من أجل أئمة السلف، ولكن الله أبى أن تكون العصمة لأحد.

قال ابن القيم:

(صاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للأسماء والصفات، مضاداً للجهمية من كل وجه، وله كتاب «الفاروق»: استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها، ولم يُسبق إلى مثله، وكتاب «ذم الكلام وأهله»: طريقته فيه حسن طريقة، وكتاب لطيف فى أصول الدين يسلك فيه طريقة

أهل الإثبات ويقرها، وله مع الجهمية المقامات المشهودة وسعوا بقتله إلي السلطان مراراً عديدة، والله يعصمه منهم، ورموه بالتشبيه والتجسيم، على عادة بهت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير ما دلَّ عليه الكتاب والسنة (١).

وأكد ابن القيم انه (بريءٌ مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل، على عادتهم فى رمى أهل الحديث)(٢) (وهو بريءٌ منهم عقلاً وديناً وحالاً ومعرفة) (٣). وفي بعض كلام الهروى ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم، ووقوفه مع أهل السنة، وفقهه في هذا الشأن)(٤).

وينال أنصاف ابن القيم إعجابنا واحترامنا، إذ كان صاحب ميزان اعتدال جعله شديد الحرص على انتفاع المسلمين من إحسان المحسن الذى يختلط صوابه بأخطاء، وهو يرى أن ما وقع فيه الهروى من مجانبة الصواب إنما هو (من الشطحات التى ترجي مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص،وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ)(٥).

وتشفع سيرة الهروي له شفاعة قوية، وتنتصب مواقفه قرينة ترجح حسن الظن به، وتحمل على الاعتقاد بأنه ضحية التأويل فيما اخطأ فيه، وقد (كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: عمله خير من علمه).

قال ابن القيم: (وصدق رحمه الله، فسيرته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجهاد أهل البدع، لا يشق له فيها غبار، وله المقامات المشهورة فى نصرة الله ورسوله، وأبي الله أن يكسو ثوب العصمة لغير الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ) (٦).

ومن الخير أن يظل القارئ في عافية من تعكير يولده ذكر هفوات الشيخ الهروى، ويكفيه أن يتابع ابن القيم في إنصافه والعمل بقاعدة الموازنة بين صواب رجال الإسلام وأخطائهم، وعلومهم وأعمالهم. ثم أولى له أن يدعو للهروى مع ابن القيم فيقول: (الله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلى درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته)(٧).

منهج هذا التهذيب

وقد حرصنا في هذا التهذيب على تخليص كتاب المدارج من جميع سلبياته التى كانت تقطع على القارئ استرساله واندماجه القلبى مع المعانى الواعظة، فإن أخطاء الهروى ومحاولة إبراز المبتدعة لها قد اضطر ابن القيم إلى أن يطيل النفس فى مواضع كثيرة فى فضح عقيدة وحدة الوجود الزائغة، وإلى أن يبين تهافت من يرى نفى الأسباب، وقد حرصنا على حذف كل ذلك إلا

(١) إلى (٧) : مدارج السالكين ١/٢٦٣، ٢/٨٧، ١/٥٠، ٣/٢١٨، ٢/٣٩، ٣/٣٩٤، ٢/٥٢.

نزراً يسيراً، لقلة حاجة المسلمين اليوم إلى التفقه في الرد عليه، تبعاً لضيق دائرة ذكرها، وانقراض هذا النوع من المبتدعة تقريباً من أغلب بلاد الإسلام، وبروز بدع من جنس آخر، وسيظل كتاب (المدارج) الأصل منتصباً كالمنار يعين من يحتاج إلى أن يرد أهل وحدة الوجود ونفاة الأسباب، إن دندن منهم أحد.

ومما حذفته أيضاً.. الكثير من كلام الهروى المتكلف، لا مجرد عباراته الخاطئة، وقد رأيت أن أدمج كلماته القليلة مع كلمات ابن القيم من دون حصرها بقوس، حتى عاد لا يميزها القارئ، إلا في مواضع قليلة، وربما غيرت بعض ألفاظه إلى الأوضح، وإنما فعلت ذلك اجتهاداً، طلباً لتمام الاسترسال وقطعاً للتقطيع والاستئناف، ولم أجد في ذلك بأساً كبيراً، إذ أن بإمكان من يحتاج تمييز كلمات الهروي أن يراجع الأصل غير المهذب ليجدها كاملة مفصولة.

وبنفس المقياس عاملت الحواشى التى أضافها الشيخ محمد حامد الفقى رحمه الله خلال تحقيقه للكتاب، فقد حذفت الكثير منها، إما لتكرار المعنى، أو لخشونة ألفاظه وشدة نقده، وأبقيت على بعضها النافع والضرورى، ولكن رفعتها عن الهامش ووضعتها في مواضع لائقة بين كلمات ابن القيم نفسه من دون فصل.

وألغيت أيضاً الاستطرادات الفقهية التى لجأ إليها ابن القيم إن لم يكن ذكرها ضرورياً وهى تستطيل إلى عشر صفحات أحياناً، وهذه الاستطرادات مليئة بالمنافع وغزيرة الفوائد، ولكنها ليست من أصل موضوع الكتاب.

وكذلك كان حذف الاستطرادات اللغوية، والشواهد الشعرية، والألفاظ الغريبة التى لم تعد متداولة، والاصطلاحات الصوفية الغامضة، والأحاديث الضعيفة، والآثار الإسرائيلية، والأقوال المنسوبة إلى زهاد مجروحين، والمعانى المكررة، والمنازل التى ظن الهروى أنها من منازل الإيمان ولكنها مرجوحة أو لا تشهد لها النصوص أو آداب السلف.

وكنت أحذف أحياناً أسطرا لمجرد طلب الاختصار في مواضع التطويل، وجملا أحس بذوقى وتجربتى صواب رفعها والاستغناء عنها، وأبياتاً من قطع شعرية نظمها ابن القيم نفسه، لضعف ملكته فى باب الشعر وبرودة أكثر ما أورده.

والسلبية الوحيدة التى لم استطع التخلص منها: ما فى الشرح من اضطرار ابن القيم لمجاراة أبى إسماعيل الهروى فى استعمال اصطلاحات المتصوفة المهمة، كالسالك، والمريد، والحال، والمقام، وغير ذلك، ولم أر في الإبقاء عليها شيئاً من الحرج، طالما لايقترن بهذه الاصطلاحات المعنى

الخاطئ، فإن هذا الكتاب كتاب سلفى على نهج أهل الحديث، ربطت معانيه باصطلاحات يمكننا أن نفهم من مطلق معانيها المعنى الصحيح الذى لاينكره النص وإن أراد بها البعض معنى خاصاً.

ويُلحق بهذا السلب: عدم تحقيقنا للكمية الباقية من الأحاديث النبوية الكريمة أو نسبتها إلى رواتها، إذ حال دون ذلك عامل السرعة فى إخراج الكتاب، مراعاة لفوائد اقتضت التعجيل، وإن كان يشفع لنا فى ذلك أن معظم هذه الأحاديث هى أحاديث صحيحة مشهورة يجدها المتتبع بسهولة فى الصحيحين والسنن الأربعة ومسند أحمد، وقد أشار ابن القيم إلى صحتها أو حسنها فى مواضع كثيرة.

وبمقابل هذا الحذف أنشأت وأضفت جميع العناوين الثانوية الجزئية المميزة بدائرة صغيرة سوداء بين الفقرات، واخترت لها أجمل العبارات التى تناسب السياق، وهى إضافة أراها مهمة، تزيد الوضوح، وتبرز المعانى، وتؤسس للقارئ انتباهاً متواصلاً، وقد ساعد على نيل هذا الوضوح أيضاً بعض تقديم وتأخير لجات إليه، ومناقلات من موضع إلى موضع، ومن جزء إلى جزء، جمعت المعانى المتماثلة في مكان واحد، ثم زاد الوضوح بإظهار متناسق لبدايات الفصول والمنازل، وترقيمها، وتجويد ترتيبها.

وهكذا فإنى أظن أن كتاب «مدارج السالكين» الصعب المقطع قد أصبح بهذا التهذيب والترتيب كتاباً بسيطاً سلساً قريباً من الجميع، وصار أهلاً أن أقدمه وأرشحه كمنهج متكامل لمادة الأخلاق الإسلامية، ومنهج إضافي لمادة العقيدة، يعتمد تدريسه فى كليات الشريعة والمعاهد الدينية، وفي جميع مدارس وزارات التربية، كما أنه يعتبر مورداً رئيساً ورافداً ثرياً يعين الواعظ، وخطيب الجمعة، وإمام المسجد، ويصلح أن يوضع منهجاً تأديبياً لعموم شباب الدعوة الإسلامية، وهو الآن، بصورته المهذبة هذه، من خير ما يقرأ على الأصحاب والجلساء فى مجالس السمر العامة في بيوت أهل النبل فى الحواضر، أو فى دواوين الضيافة عند رؤساء البوادى والأرياف، ووصيتى لدعاة الإسلام خاصة أن يقرأوه مرة، بعد مرة، بعد مرة وأن يحفظوا المهم من سطوره وشواهده من الآيات والأحاديث، فإنهم – إن فعلوا ذلك– ارتقوا إلى أرفع درجات المقدرة على الوعظ والخطابة والتبليغ والتأثير والإقناع.

لذة الفصاحة العربية

وقد تكون ترجمة هذا الكتاب إلى اللغات الأخرى جد مفيدة، لتبليغ من لا يحسن العربية هذه المعانى الأساسية المهمة، ولكن التذاذهم بها سوف لا يرقى إلى مثل لذة القارئ العربى، إذ هيهات ثم هيهات أن تنقل هذه البلاغة الفذة المقتبسة من مشكاة البيان العربى القرآنى إلى لغة

أخرى دون أن تفقد رونقها، فإن الهروى متفنن فى ألفاظه، كما أن ابن القيم كان فى أقصى انغماسه الإيمانى حين كتب هذا الشرح، فجاءت عباراته سهلة جميلة ذات طلاوة تمتنع على الترجمة من غير نقصان بهائها. وتتكرر هذه الظاهرة فى كتب كثيرة، وهى تهيب بالمسلمين غير العرب أن يتعلموا العربية بإتقان ليتسنى لهم فهم معنى ونيل لذة ما هم بحائزين له ولا بنائليها من خلال الترجمات قط.

اعتراض.. ولكن!

وقد يعترض البعض فينتقد هذه الخطة التى اتبعتها فى هذا التهذيب لهذا الكتاب القيم، ويأتى المعترض بشواهد من أعراف الناس فى الاختصار، أو ينطلق من منطق حماسته فى التصدى للمبتدعة، إلا أن تجربتى فى التربية لا تترك لى مجالاً أتنازل فيه عن الاعتقاد بأن هذا المقدار الذى اخترته من الكتاب، بهذا الترتيب والإخراج، هو أنفع لشباب الإسلام من المتن الكامل أضعافاً مضاعفة، وأن عدد الذين سيفهمونه منهم هم أضعاف عدد الذين يفهمون الأصل، مع زيادة لذة واندماج مع هذه الأسطر الباقية فى استرسال هادئ يلين القلوب لم يكونوا بواجديه لما كان هذا الكلام مختلطاً بالنقاش مع الفلاسفة والمبتدعة، أو لما كان الكلام مقطعاً بالتفريع، والاستطراد الجانبى، والهوامش، والفصل بين كلام الهروى والشرح.

أنا لم استصوب أن تقف أعراف المؤلفين حائلاً دون جعل تهذيب المدارج وثيقة تربوية سليمة فى يد الشباب السلم، فإن الذين يهذبون الكتب يحرصون على جميع المعانى فى الأصل، ولكن فى عبارات موجزة، ولسنا نريد ذلك، بل غايتنا إعانة شباب الإسلام على تزكية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الإيمان، دون إقلاقها بذكر البدع والرد عليها، فإن أكثر هذه البدع اليوم تكاد لا تجد لها معتنقا، إلا قلة يحصرون أنفسهم فى دوائر ضيقة، وفي بعض البلاد دون بعض، مما سوّغ لنا أن ندع سمع الشباب في عافية من هذا التخليط الذى فضحه ابن القيم، وأن نترك أفئدتهم منسابة مع حلاوة التذكير، دونما نقاش يصحبه التعكير. فمن وافقنا في طريقتنا التهذيبية هذه،كانت موافقته قرينة على مقاربة تجربته التربوية لتجاربنا، ومن أبى وأنكر علينا ما حذفناه وبدلنا، دعوناه إلى أن يعتبر «تهذيب مدارج السالكين» مؤلفاً جديداً كان المدارج مصدره الوحيد، ولا نحب أن تحول الشكليات دون تعميم الفوائد، وليس المهم أن نحفظ فخراً لابن القيم، لنميز عباراته، ولا سبقاً للهروى، لنبقى على استقلال ألفاظه، فإن ذلك محفوظ لهما فى طبعة المدارج الكاملة، ولكن المهم أن نضع خلاصة تربوية بين يدى المربى والتلميذ معاً، تعين على ترقيق قلوبهم، وتزكية نفوسهم، ولو أنى كنت صنعت هذا الذى صنعته تجاه كتاب مخطوط لم ينشر من قبل لجاز هذا

الاعتراض علينا، ولكنى لم أزد على أن اخترت منهجاً من أصل مطبوع متداول يسهل على طالب نصوصه الكاملة أن يظفر به.

سَلَفى وصوفى.. معاً

وكأن هذا الكتاب سيكون جامعاً إن شاء الله، تجتمع عليه قلوب أصحاب المشارب المختلفة من المسلمين، فإنه مجموعة معان وتقريرات سلفية، مشروحة مؤادة بلغة صوفية.

ولا تعجل فتنكر علينا أن لم نخلصه من هذه اللغة الصوفية، فإن القارئ بروية وإمعان لهذا الكتاب النفيس سيدرك- كما أدركنا- أنه من أرقى ما دونته المدرسة السلفية، وأنه لايمكن تأدية نفس ما أداه ابن القيم فيه إذا عرَّينا أسلوبه عن هذه الاصطلاحات الصوفية، ولذلك لم نجد فى الإبقاء على مجاراته لإسلوب شيخ الإسلام الهروى ضيراً، طالما أن ابن القيم كان موفقاً في هذا الكتاب كما هو موفق في جميع كتاباته لبيان خطل البدع والتمثيل والتأويل والتعطيل.

ويملكنى شعور في النهاية بأن فضل الله تعالى علىّ كبير حين ألهمنى أن أجعل لإخوانى دعاة الإسلام وعموم العابدين شغل خير بتهذيب المدارج والإشراف على طبعه، والترويج له، والحث على مطالعته، منذ سنوات من قبل طبعه، فملأت أوقاتهم بالنفع، وخواطر الجد، وروضت ألسنتهم على التلفظ بالأقوال اللطاف والرقاق الواعظة، فضيقت على وساوس السوء الثغرات التى تلج منها، وعزلت ألفاظ الشيطان أن تتحرك بها الألسنة، وتلك نعمة يجب علىّ شكرها، وحسنة وفقت لها يحق لى أن أملأ قلبى سروراً بها، وأنا أرجو كل منتفع من هذا التهذيب أن يطيل الاستغفار لى، ثمناً لتمهيدى درب فراره إلى الله عز وجل، وأن يشكر لوزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة حسن احتفالها بمقدم القرن الهجرى المبارك الخامس عشر، وحرصها على المشاركة في تمهيد الطريق للسالكين من خلال المساهمة بتبنى الطبعة الأولى من هذه التوطئة لمدارج الإيمان.

وكذلك هو الطريق الأعلى دائماً، يوصلنا إليه التواضع، والسجود، وخفض الجناح والإخبات.

وفى كل آخر يليق استئناف الحمد لرب رؤوف رحيم.

عبد المنعم صالح العلي العزى

خبير البحوث الإسلامية

بوزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف

بدولة الإمارات العربية المتحدة

محرم الحرام ١٤٠٢ هـ

مقتبسات من مقدمة
الشيخ محمد حامد الفقى

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. والعاقبة للمتقين. ولا عدوان إلا على الظالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين، وإمام المهتدين. من اصطفاه الله ربنا، فأرسله رحمة للعاملين، وأحسن قدوة للمتقين. عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله أجمعين. وجعلنا من آله وحزبه المفلحين فى الدنيا ويوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب **«مدارج السالكين»** تاليف شيخ الإسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدين. الذاب – بما أوتى من قوة– عن سنة سيد المرسلين، الطاعن بسنان قلمه الحاد في نحور المبتدعين، القاطع بسيف حقه البتار أعناق المخرفين، ترجمان القرآن، ذي الفنون البديعة الحسان. الملهم من ربه القيام بالهدى والبيان، المؤيد من الله بواضح الحجة وناصع البرهان أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى، المعروف بمواقفه الخالدة:

ابن قيم الجوزية

غفر الله لنا وله وللمؤمنين، وأسكنه فسيح جنته. وألحقنا به على صادق الإيمان حاول فيه– رحمه الله ورضى عنه– أن يجعل من كتاب «منازل السائرين» لأبى إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الحنبلى، المتوفى فى سنة ٤٨١ هجرية منارا يهدى إلى الرشد، ودليلاً إلى صراط الله المستقيم.

وإنما يقوم هذا الإسلام على العبودية التامة بكل خصائصها للجميع، وأن تكون في كل مواقفها صادقة، بكل ذل وحب، واستسلام وإذعان وانقياد، وطاعة تامة لله رب العالمين، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] لا تجهل ولا تغفل ولا تنسي. ولا تقول على الله وفي الله، إلا ما قال الله، وقال رسوله. تشكر نعمة الله على الجميع فى الإنسانية السميعة البصيرة العاقلة المميزة الكريمة. وفي هدى الفطرة وهدى الرسالة وتحرص أشد الحرص على إعطاء كل ذى حق حقه. مؤمنة بأن الله ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا. وإنما خلق كل شئ بالحق الثابت الذى لايتغير بهوى الإنسان وجهله، وباطل أمانيه، فالله ربنا هو الحق، ووعده الحق، وقوله الحق، وكتبه الحق، وقضاؤه الحق.

●●●

ودين الجاهلية ، دين شياطين الإنس والجن، دين أعداء الله وأعداء رسله، وأعداء أنفسهم: يطرد كذلك، ويحاول أن يغلب ويتمكن ﴿ **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)** ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] ويروج هذا الدين ويقوم على سوقه ويشتد كلما تكاثفت ظلمات الجاهلية التقليدية، وكلما انتشر عفن الإعراض والعمى عن آثار أسماء الله وصفاته فى الأنفس والآفاق وعن سُنن الله وآياته فى الأنفس والآفاق، وعن كتبه وفهمها وتدبرها، وعن هدى رسله. فيضل الناس حينئذ طريق الرشد والخير، ويعموا عن الحقائق الثابتة فى السموات والأرض، وفى أنفسهم، ويشقون بتفرقهم وراء عدوهم الشيطان في كل واد من أودية الهلكة. معرضين غافلين ناسين لآيات الله- فى الأنفس والآفاق- التى تذكرهم بأسمائه وصفاته ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)** ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

●●●

ومن أمعن النظر والفكر فى آيات الله الكونية، وآياته القرآنية. وتأمل وتدبر صادقاً مخلصاً- بما آتاه الله من أسباب العلم والهدي فى سمعه وبصره وعقله هو - فى آى القرآن وقصصه وتذكيره ووعيده ونذره وعبره، وألقى السمع وهو شهيد. فإنه ينكشف له تمام الانكشاف: أن كل ما تشقى به البشرية اليوم- وفى كل عصر- من الكفر، والفسوق، والعصيان، إنما تولد كله بحذافيره من طريق التقليد الأعمى، الذى زينه وأوحى به أعداء الرسل من شياطين الجن والإنس. وزخرفوا القول به غروراً ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)** ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣] من بدع يشرعونها، وخرافات وأهواء يستحسنونها، وشهوات يروجونها، حتى تقسو عليها القلوب، فتظلم النفوس، وتعمى القلوب التى فى الصدور. وما أصدق نصيحة رسول الله ﷺ للناس لو عقلوا ونصحوا لأنفسهم. إذ قال: «**تركتكم علي المحجة البيضاء، ليلها نهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**» وقال «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي**».

فما أشد حاجة البشرية- فى شرق الأرض وغربها- اليوم إلى الرجوع إلى هذه المحجة البيضاء. مستمسكين بحبل الله المتين، من هدى كلامه، الذى لايزال غضا طريا، كما نزل به جبريل على صفوة خلقه، وأكرم عباده، وخاتم رسله، من عند الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، هدى

وشفاء لما فى الصدور، وهاديا لهم إلى التى هى أقوم في كل شان وكل عمل. إنهم - والله- لو فعلوا، ورجعوا إلى ربهم وإلى فهم كتابه صادقين مخلصين ولأنفسهم ناصحين.. لهُدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد.

●●●

وفى الحق أن كتاب«**مدارج السالكين**» من خير ما كتب الإمام ابن القيم- وحسبك بابن القيم- في تهذيب النفوس والأخلاق والتأدب بآداب المتقين الصادقين. مما يدل أوضح دلالة علي أنه كان من أولئك المهتدين الصادقين. الذين طابت نفوسهم بتقوى الله، واستنارت بصائرهم بهدى الله. وأنه- إن شاء الله- فى جنة الرضوان مع المتقين الصادقين.

●●●

ولما كان مكان كتاب«**مدارج السالكين**» كذلك. وكانت الطبعة الأولي- التى طبعت، في مطبعة المنار سنة ١٣٣٤ هـ - قد نفدت، واشتد حرص الناس عليه، وعظمت حاجتهم إليه بالأخص فى هذا العصر الذى أغرق الناس فيه طوفان المادة، واشتد تعلقهم بها، وتعليق نجاحهم في كل شأن من الشئون بأذيالها. فاشتعلت نيران العداوة والبغضاء بينهم، واستشرت الوحشية في كل مجتمعاتهم. واشتدت لذلك متاعبهم، وتضاعفت همومهم، وتراكمت أسباب الشقاء، ونكد العيش، وتضافرت المحن والفتن، وألحت عليهم من كل ناحية، متولدة من احتكاكات المادة، وتركيز الأنظار إليها، وتكريس الجهود فيها، حتى صارت إلههم المسيطر على قلوبهم.

لأجل ذلك توجهت الهمة إلى طبعه هذه الطبعة المجودة الأنيقة. ليسد الحاجة الماسة إليه فى عصر المادة. راجيا أن ينفع الله به، ويجمع به إلى هذا النشاط المادى عند الناس، صفاء الأرواح، وتقوى النفوس، وتهذيب الأخلاق، حتى يجعل الله العرب والمسلمين- فيما آتاهم من الأسباب المادية، والغنى والثراء الحاضر، والمنتظر فى المستقبل، إن شاء الله- حياة عزيزة كريمة طيبة آمنة فى ظل الإسلام، على مثال ما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم، الذين جمع الله لهم الدين والدنيا. فمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً، لأنهم كانوا يعبدونه لايشركون به شيئاً.

وكتبه فقير عفو الله

محمد حامد الفقي

١٣٧٥ هـ- ١٩٥٥م

القاهرة.

مقدمة ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولاعدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحكم من بين رياضه وأزهاره، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التى بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذى منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب . وهو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذى لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذى لايشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضى آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفكيرا، زادها هداية وتبصيراً. وكلما بجست معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادى الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح،حى على الفلاح. نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم **﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾** [الأحقاف: ٣١].

ولقد كان كمال الإنسان بالعلم النافع، والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين، كما قال تعالى: **﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾** [العصر: ١ - ٣] أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولايتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصى بهما، كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره- بل أنفاسه- فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من

الخسران المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، فى المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن - بعون الله- ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، وبيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها، ولايسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فاتحة المطالب العالية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود- تبارك وتعالى- بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها.. وهى **«الله، الرب ، الرحمن»** وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ**«إياك نعبد»** مبنى على الإلهية. و**«إياك نستعين»** على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة. فهو المحمود فى إلهيته، وربوبيته، ورحمته.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله **«مالك يوم الدين»**.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملا لا يعرفهم ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثانى: أخذها من اسم **«الله»** وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم **«الرحمن»** حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا

من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذى يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصى والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه. الحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله «إياك نعبد» فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه وعبادته - وهى شكره وحبه وخشيته - فطرى ومعقول للعقول السليمة لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم. وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر فى العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله « اهدنا الصراط المستقيم » فالهداية: هى البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان فى القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه فى القلب، وجعله مؤثراً له، راضياً به، راغباً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لايحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً، ثم خلق القدرة على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلا مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه. ومالا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوق الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى- وهى آخر مراتبها- وهى الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصول إليها، فمن هدى فى هذه الدار إلي صراط الله المستقيم، الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر

كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشى مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذَّة بالقذة، جزاءً وفاقا ﴿ **هَلْ تُجزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النمل : ٩٠] .

ولينظر الشبهات والشهوات التى تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم . فإنها الكلاليب التى بجنبتى ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هى هناك ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت : ٤٦] .

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر .

الموضع السابع : من معرفة نفس المسئول . وهو الصراط المستقيم، ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور : الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، ، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقا للمقصود، ولايخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين . وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته . وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقاً .

و« الصراط » تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذى شرعه ونصبه، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ** ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] وتارة يضاف إلى العباد، كما فى الفاتحة . لكونهم أهل سلوكه . وهو المنسوب لهم . وهم المارون عليه .

الموضع الثامن : من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتى الغضب والضلال .

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة . لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق . أو جاهلاً به . والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له . فهذه أقسام المكلفين . لايخرجون عنها البتة . فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه، وهو الذى زكَّي نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح . وهو المفلح ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩] والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل . والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل . فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به . ومن هنا كان اليهود أحق به . وهو متغلظ فى حقهم . كقوله تعالى فى حقهم ﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ** ﴾ [البقرة : ٩٠] وقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٦٠] والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال . ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى : **﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾** [المائدة : ٧٧] فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود . والثانية : فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حبان من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ **« اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون »** .

ففى ذكر المنعم عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه ، والمغضوب عليهم - وهم من عرفه واتبع هواه - ، والضالين وهم من جهله - : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة .

وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه .

منها : أن النعمة هى الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل . والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواهما . وهذه طريقة القرآن فى إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل في مقابلتهما . كقول مؤمنى الجن : **﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾** [الجن : ١٠] ومنه قول الخضر فى شأن الجدار واليتيمين : **﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾** [الكهف : ٨٢] وقال فى خرق السفينة **﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾** [الكهف : ٧٩] ثم قال بعد ذلك **﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾** [الكهف : ٨٢] .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم **﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾** [النحل : ٥٣] فاضيف إليه ما هو منفرد به . وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة . وأما الغضب على أعدائه : فلا يختص به تعالي ، بل ملائكته وأنبياؤه وأولياؤه يغضبون لغضبه . فكان فى لفظة **« المغضوب عليهم »** بموافقة أوليائه له : من الدلالة على تفرده بالإنعام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها ما ليس فى لفظة « المنعم عليهم » .

الوجه الثالث : أن فى حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه ، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس فى ذكر فاعل النعمة ، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ، ورفع قدره ، ما ليس في حذفه ، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره فقلت : هذا الذى أكرمه السلطان ، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه . كان أبلغ فى الثناء والتعظيم من قولك : هذا الذى أُكرم وخُلع عليه وشُرف وأُعطى .

وتأمل سراً بديعاً فى ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية. التى هى العلم النافع والعمل الصالح. وهى الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «**أنعمت عليهم**» يتضمن الأمرين:

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذى موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذى استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التى هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، فى غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل فى أهل السعادة، وحذفه فى أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب فى أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فذكر «**المغضوب عليهم**» و«**الضالين**» فى مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير فى القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثانى كقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[البقرة: ٥] وقوله: ﴿**لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام: ٨٢] والأول كقوله تعالي ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**﴾ [القمر: ٤٧] وقوله: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [البقرة:٧] وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة فى قوله: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ**﴾[طه: ١٢٣] فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)**﴾[طه: ١٢٤ - ١٢٦] فذكر الضلال والشقاء.

فالهدي والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

الهداية تورث الاستعلاء

وذكر «الصراط المستقيم» مفرداً معرفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[الأنعام: ١٥٣] فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول

الله ﷺ خطاً وقال: **هذا سبيل الله**، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: **هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ **هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ [الحجر: ٤١] قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة «على» مقام «إلى» والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أى صراط موصل إليّ. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لايعرج على شئ. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ما قيل في الآية. وقيل «على» فيه للوجوب، أى على بيانه وتعريفه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين فى آية النحل. وهى ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** ﴾ [النحل: ٩] والصحيح فيها كالصحيح فى آية الحجر: أن السبيل القاصد– وهو المستقيم المعتدل– يرجع إلى الله ويوصل إليه. قال طفيل الغنوى:

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم ⁂ وصرف المنال بالرجال تشقلب

أى ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنايـــا أى واد سلكته ⁂ عليها طريقى، أو علىَّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التى هى للانتهاء ، لا أداة «على» التى هى للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)** ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦] وقال: ﴿ **إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** ﴾ [يونس: ٧٠] وقال: ﴿ **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال لما أراد الوجوب ﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾ [الغاشية: ٢٦] وقال: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧] وقال: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٨] ونظائر ذلك.

قيل: فى أداة «على» سر لطيف. وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال فى حق المؤمنين ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [البقرة: ٥] وقال لرسوله ﷺ: ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾ [النمل: ٧٩] والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان فى أداة «على» على هذا المعنى ما ليس فى أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» فى ذلك أيضاً. وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق، وعلى الهدي؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتي فيه بأداة «فى» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿ **فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ [التوبة: ٤٥] وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ [الأنعام: ٣٩] وقوله: ﴿ **فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ [المؤمنون: ٥٤] وقوله: ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** ﴾ [فصلت: ٤٥].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ: ٢٤] فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلا، هاوية بسالكها فى أسفل سافلين.

إن ربى على صراط مستقيم

والصراط المستقيم: هو صراط الله، وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن: في هود، والنحل. قال في هود ﴿ **مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٥٦) ﴾ وقال فى النحل: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٧٦) ﴾ فهذا مثل ضربه الله للأصنام التى لاتسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهى كَلّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه فى العبادة بالله الذى يامر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني، وهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدي. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال فى الآية. وهو الذى لم يذكر كثير من المفسرين غيره.

ودلالته لنا على الصراط هى من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم فى أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يامر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لايناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لايأمر

ولايفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذى هو أبكم، لايقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية، قال وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر يرويه عطية عن ابن عباس. وقال عطاء: الأبكم أبى بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله واتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادى. وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناوله لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة فى القرآن.

واما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحداً. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير فالشر لايدخل فى أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل فى أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل فى أفعال من خرج عنه وفى أقواله.

وفى دعائه عليه الصلاة والسلام «لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لايتقرب به إليك، أو لايصعد إليك، فإن المعنى أجلُّ من ذلك، وأكبر وأعظم قدرا، فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وافعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر فى أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله وأقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦] أى هو ربى، فلا يسلمنى ولايضيعنى وهو ربكم فلا يسلطكم علىّ ولايمكنكم منى فإنّ نواصيكم بيده لاتفعلون شيئا بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لايمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو فى تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم. لايفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم علىّ فله من الحكمة فى ذلك ماله الحمد عليه. لأنه تسليط مَنْ هو على صراط مستقيم. لايظلم ولايفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

وحشة التفرد.. علاجها عدم الالتفات

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق، مرافقه فيها فى غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق فى هذا الطريق، وأنهم هم الذين «**أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا**» فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه. وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لايريد غيرها، فعرض له فى طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلاما يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطعمه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعى بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثانى: الظبى أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن فى ذكر هذا الرفيق مايزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد فى دعاء القنوت «**اللهم اهدنى فيمن هديت**» أى أدخلنى في هذه الزمرة، واجعلنى رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أى قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لى نصيبا من هذه النعمة، واجعلنى واحداً من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ فى جملة من تصدقت عليهم. وعلمنى في جملة من علمته. وأحسن إليّ فى جملة من شملته بإحسانك.

نتوسل إلى الله بأسمائه وبعبوديته

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب: علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لايكاد يرد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه. والإمام أحمد والترمذى.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: **«سمع النبى ﷺ رجلا يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. فقال: والذي نفسى بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى»** قال الترمذي: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعى له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس «العالم الذي كمل علمه، القادر الذى كملت قدرته» وفى رواية عنه «هو السيد الذى قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل «هو السيد الذى انتهى سؤدده وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله «ولم يكن له كفوا أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس **«أن رسول الله ﷺ سَمِعَ رجلا يدعو: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم، فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم»** فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد. والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب– وهو الهداية– بعد الوسيلتين، فالداعى به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبى ﷺ، الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل. رواه البخارى فى

صحيحه من حديث ابن عباس «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك أمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهى لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

فاتحة التوحيد

تشتمل الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التى اتفق عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع فى العلم والاعتقاد. ونوع في الإرداة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمى. والثانى: التوحيد القصدى الإرادى. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثانى بالقصد والإرادة. وهذا الثانى أيضا نوعان: توحيد فى الربوبية، وتوحيد فى الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفى التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمد لايحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لايحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التى لايحصيها سواه. ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدى ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التى عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالي الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا. فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام فى محاجته لأبيه ﴿ **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾[مريم: ٤٢] فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان – مع شركه– أعرف بالله من الجهمية وكذلك كفار قريش كانوا– مع شركهم– مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه. وقال تعالى:﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾[الأعراف: ١٤٨] فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن فى هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل: فالله تعالى لايكلم عباده.

قيل: بلى، قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسي.

ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكى، وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله. فأنزل عليهم كلامه الذى بلغته رسله عنه.

وقالوا لهم: هذا كلام الله الذى تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلما فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذى تكلم به إلي عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى فى سورة طه عن السامرى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾ [طه: ٨٨، ٨٩] ورجع القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] فجعل نفى صفة الكلام موجبا لبطلان الإلهية: وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية، أن فاقد صفات الكمال لايكون إلهاً، ولا مدبراً ولا ربا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا فى الأولى، ولا في الآخرة. وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التى لأجلها استحق الحمد، ولهذا سمى السلف كتبهم التى صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدا، لأن نفى ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدا. وجعلوا إثباتها لله تشبيها وتجسيماً وتركيباً. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخرفاً ينفقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه. والناس أكثرهم ليس لهم نقد النقاد ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] والمحمود لايحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شئ له. فاتخاذ الولد ينافى ذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التى لايوصف بها غيره، فيكون شريكا له..فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم. ولهذا لايحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لايموت لتضمنه كمال حياته. وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته، وحمد نفسه بأنه لايعزُب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته.

وحمد نفسه بأنه لايظلم أحداً، لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، لا يرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علما. فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لايرى. فليس في كون الشئ لا يرى كمال ألبته. وإنما الكمال في كونه لايحاط به رؤية ولا إدراكا، لعظمته فى نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب فى القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفى لحمده، ونفى الحمد مستلزم لثبوت ضده.

لا ننفى معاني الأسماء

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهى «الله، والرب ، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبنى على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهى مشتقة من الصفات. فهى أسماء، وهى أوصاف. وبذلك كانت حسنى إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب فى مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إنى ظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت المنتقم، واللهم أعطنى، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفى معانى أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى: ﴿ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله اخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾[الذاريات: ٥٨] فعلم أن «القوى» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله: ﴿ **فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾[فاطر: ١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا عزيزاً. وكذلك قوله: ﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾[النساء: ١٦٦] ﴿ **فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ** ﴾[هود: ١٤].

وفى الصحيح عن النبى ﷺ «**إن الله لاينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» فاثبت المصدر الذى اشتق منه اسمه «البصير».

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها «**الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات**».

وفى الصحيح حديث الاستخارة «**اللهم إنى أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك**» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي** ﴾[الأعراف: ١٤٤] فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذى له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ «**يقول الله تعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى**» وهو الحكيم الذى له الحكم ﴿ **فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** ﴾[غافر: ١٢] وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أوسمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أوعظمته: انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التى اشتقت منها أسماؤه.

وأيضا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفي أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التى لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبهت بين. فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معني اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معني اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفى معانى أسمائه من أعظم الإلحاد فيها.

ضرورة فهم لوازم الصفات

الأصل الثانى: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالي كما يدل على الذات والصفة التى اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلي الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحي» وصفه الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ومن ههنا يقع اختلافهم فى كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختيارى لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازمان للحياة

الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة: أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلى» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلى» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلى».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لايكون فوقه شئ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ **«وأنت الظاهر، فليس فوقك شئ»** بل هو سبحانه فوق كل شئ. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذى ليس دونه شئ، كما قابل «الأول» الذى ليس قبله شئ، بـ «الآخر» الذى ليس بعده شئ.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء فى مواضعها، وايقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

دلالة اسم «الله» على جميع الأسماء الحسنى

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفى أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هى صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولايقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله» واسم «الله» دال على كونه مالوهاً معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه فى الحوائج والنوائب. وذلك

مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم فى أفعاله.

وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذاناً بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذى الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٣] ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١١٧] ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما فى اسم «الرحمن» الذى هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥] ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[الفرقان: ٥٩] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شئ. وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اله ﷺ **«لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتى تغلب غضبى»** وفى لفظ **«فهو عنده على العرش»**.

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥] وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾[الفرقان: ٥٩] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.

وصفات العدل والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، ولتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

معنى الرب والرحمن

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهى «الله والرب والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شئ وخالقه، والقادر عليه، لايخرج شئ عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له فى قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذى لا إله إلا هو، الذي لا تنبغى العبادة والتوكل والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين فى الجنة، فالإلهية هى التى فرقتهم، كما أن الربوبية هى التى جمعتهم.

فالدين والشرع، والأمر والنهى، مظهره وقيامه: من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهى التعلق، والسبب الذى بين الله وبين عباده. فالتالية منهم له. والربوبية منه لهم. والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ **(الرحمن على العرش استوى)** مطابق لقوله **(رب العالمين، الرحمن الرحيم)** فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شئ عنها اقتضى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شئ برحمته وربوبيته، مع أن فى كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شئ، كما يأتى بيانه إن شاء الله.

المحمود

فى ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود فى إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود ، وملك محمود . فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى (والله غنى حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً، وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] واقتران العلم بالحلم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليما، ولا كل حليم عالم. فما قرن شئ إلى شئ أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلي حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩] ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عزة. وهى كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجانى لايكون قادراً حكيماً عليماً. بل لايكون ذلك إلا عجزاً فانت لاتغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت، فإنه لوقال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان فى هذا- من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لايستحقها- ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل له ولداً، واتخذه إلهاً من دونه فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ [إبراهيم: ٣٥,٣٦] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أى أن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون**».

وفى هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

مراتب الهداية

مراتب الهداية الخاصة والعامة عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلي مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه علي نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [النساء: ١٦٤] فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذى حصل له أخص من مطلق الوحي الذى ذكر في أول الآية. ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذى هومصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعاً لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أَنَّهُ إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشئ غير التكليم. فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولايقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذى أرسله به إلى فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول. وفيه أعطى الألواح. وكان عن مواعدة من الله. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه وناجاه. فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب.

وفي حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية، قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله» ولو كان التكليم الذى حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمي «كليم الرحمن» وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٥١] ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من اقسام التكليم. وجعله في آية

النساء قسيماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو ايصال المعنى بطرق متعددة.

والوحى فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى. ويقال فى فعله: وحى، وأوحى. قال رؤية «وحى لها القرار فاستقرت» وهو أقسام، كما سنذكره.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى. فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلا، يراه عياناً ويخاطبه، وقد يراه على صورته التى خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه، أى يقلع، والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه. كما قال النبىﷺ: **«إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب»**.

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية رحمه الله يقول: جزم بانهم كائنون فى الأمم قبلنا وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ«إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدَّث: هو الذى يحدَّث فى سره وقلبه بالشئ، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. **فإنه قد** سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسولﷺ.

قال: وكان هذا المحدث يعرض مايحدث به على ماجاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: واما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثنى قلبى عن ربى» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثنى قلبى عن ربى» كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا..

امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برئ» وقال في الكلالة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨,٧٩] فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة. وقال على ابن أبى طالب- وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس؟»- فقال: «لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لايقتل مسلم بكافر» وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسي الأشعرى رضى الله عنهما و«الفهم الفهم فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله فى قلبه. يعرف به، ويدرك مالايدركه غيره ولايعرفه، فيفهم من النص مالايفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، فيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُد ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولايقع الاستغناء بالنصوص في حقه. أما فى حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه، التي لايعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف: ٥] ﴿ **وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد. والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت: ١٧] فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء. وهو هدي التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [إبراهيم: ٤] فالرسل تبين. والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة. قال تعالى في هذه المرتبة ﴿ **إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ [النحل: ٣٧] وقال: ﴿ **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [ص: ٥٦] فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣] وهذا الأسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ معنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، فسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود

والمراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله :﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنبياء : ٢ ، ٣] وهذا السماع لايفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها . وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه ﴿ **مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٦] .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام : أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم . فهى أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه . ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر . وهى أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول .

فهو إذن ثلاث مراتب : سماع الأذن، وسماع القلب و سماع القبول والإجابة .

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام، قال تعالى : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] وقال النبى ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم «**قل : اللهم ألهمنى رشدي، وقنى شر نفسى**» .

والإلهام أعم من التحديث ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبى ﷺ قال فيه : «**إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر**» يعنى من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحى إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالي : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾ [القصص : ٧] وقوله : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي** ﴾ [المائدة : ١١١] وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾ [النحل : ٦٨] فهذا كله وحى إلهام .

وصورته الشائعة : أن يكون خطاباً يلقى فى قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما فى الحديث المشهور : « **إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة . فلمة الملك : إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان : إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد** » ثم قرأ ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] وقال تعالى : ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الأنفال : ١٢] قيل فى تفسيرها : قوّوا قلوبهم وبشروهم بالنصر . وقيل : احضروا معهم القتال . والقولان حق . فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم .

ومن هذا الخطاب : واعظ الله عز وجل فى قلوب عباده المؤمنين . كما فى جامع الترمذى ومسند

أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: « **إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيما، وعلى كنفتى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله، فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن**» فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة.

وأما لمة الشيطان فهى وعده وتمنيته حين يَعِدُ الإنسى، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾[النساء: ١٢٠]، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغيلان بن سلمه- وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ما له بين بنيه- « إنى لأظن الشيطان- فيما يسترق من السمع- سمع بموتك. فقذفه فى نفسك ».

وعلامة هذا الشيطانى أن خطاه كثير، كما قال النبى ﷺ لابن صائد «**ما ترى؟ قال: أرى صادقاً وكاذباً. فقال: لُبِّس عليك**» فالكشف الشيطانى لابد أن يكذب، ولايستمر صدقه ألبتة.

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**».

والرؤيا: مبدأ الوحى. وصدقها بحسب صدق الرائى. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً. وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطئ، كما قال النبى ﷺ. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبى ﷺ «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له**» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبى ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال: «**أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر. فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان**».

والرؤيا كالكشف، منها رحمانى. ومنها نفسانى. ومنها شيطانى. وقال النبى ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة، فيراه فى المنام**».

والذى هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التى من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحى. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحى الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منهبة على اندراج قضية خاصة فى حكمه، لم يعرف الرائى اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهى. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتي تغلبه عيناه. فإن رؤياه لاتكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهى، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العتمة، عندانتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام».

الفاتحة الشافية

وقد اشتملت علي الشفاءين:

شفاء القلوب وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد. وأوجبه عليه كل يوم وليلة. فى كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة. ولايقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ (**إياك نعبد وإياك نستعين**) علماً ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعى الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضاً فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان وعزله عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ** ﴿٤٨﴾ **وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** ﴿٤٩﴾ **أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التى طلبوها. واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا، إذا حقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيراً فى الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم

اللقاء، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطلون. وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لاينفع عالمه، ويقين لاينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضا كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد. ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لابالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولابغيره.

فهذه هي أجزاء **(إياك نعبد وإياك نستعين) فإذا** ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ(إياك نعبد) ودواء الكبر بـ(إياك نستعين).

وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول (إياك نعبد) تدفع الرياء (وإياك نستعين) تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ(إياك نعبد) ومن مرض الكبرياء والعجب بـ(إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل بـ(اهدنا الصراط المستقيم) عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم «غير المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورة تشتمل علي هذين الشفاءين: أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شئ أشفى للقلوب التى عقلت عن الله كلامه، وفهمت عنه فهماً خاصاً، اختصها به، من معانى هذه السورة.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة.

ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدري **«أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ مروا بحى من العرب، فلم يَقْرُوهم،. ولم يضيفوهم فلدغ سيد الحي. فأتوهم، فقالوا: هل**

عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قَلَبَة. فقلنا: لا تجعلوا حتى نأتي النبي ﷺ ، فأتيناه، فذكرنا له ذلك.

فقال: مايدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم»

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم. فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فاتحة التفنيد

وأيضا، فقد اشتملت الفاتحة الرد على المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين، مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وما جاء به علماً وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التى هى منازل السائرين إلى الله تعالي، وكل ذلك مسلم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم ومالم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث: طريق الرسول ﷺ وماجاء به، وطريق أهل الغضب، وهى طريق من عرف الحق وعانده. وطريق أهل الضلال: وهى طريق من أضله الله عنه، ولهذا قال عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم «الصراط المستقيم: هو الإسلام» وقال عبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهما «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذى وغيره، وقال سهل بن عبد الله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المزنى «طريق رسول الله ﷺ».

ولاريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره، فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه باطل. وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.

إثبات الربوبية لايحتاج إلى دليل

وأما المفصل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها. فنقول: الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له. فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده فى العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق علي المخلوق، والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقية العلوية، والفطر الصحيحة، أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه. ولاريب أنهما طريقان صحيحان، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير. وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذى أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠] أى أيشك فى الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأى دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا علي الدليل بقولهم (**فاطر السموات والأرض**)

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية- قدس الله روحه- يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شئ؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح فى الأذهان شئ　　　إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها.

اختلاف الناس في الألوهية

ولكن من الناس طوائف تريهم فطرتهم هذا المقدار من الحق، فلا يشركون بالله فى ربوبيته أحداً، ولا يثبتون معه خالقاً آخر، لكنهم أهل إشراك به في إلهيته. وهم المقرون بأنه وحده رب كل شئ ومليكه وخالقه، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين، ورب السموات السبع، ورب العرش العظيم. وهم مع هذا يعبدون غيره، ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم.

وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا. فهؤلاء لم يوفوا «إياك نعبد» حقه، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى: لانعبد إلا إياك، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيما، فـ«إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك فى الإلهية، كما أن «إياك نستعين» تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «إياك نعبد، وإياك نستعين» وأهل الإشراك: هم أهل الغضب والضلال.

تعطيل التعطيل

وقد تضمنت الفاتحة الرد على الجهمية معطلة الصفات، أهل التوحيد الناقص، الذين ينفون أن تكون ذات الله عز وجل متصفة بالعلم والقدرة والرزق ونحو ذلك من وجوه:

أحدها: من قوله (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله، إذ مَنْ عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق.

وغايته :أنه محمود من وجه دون وجه، ولايكون محموداً بكل وجه، وبكل اعتبار، بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له: ما يتضمن إثبات الصفات التى تستلزمها: من الحياة، والإرادة والقدرة، والسمع والبصر، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية: تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال: ذاتاً وأفعالاً ، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلهاً رباً، رحماناً رحيماً، ملكاً معبوداً، مستعاناً، هادياً منعماً، يرضى ويغضب- مع نفى قيام الصفات به-: جمع بين النقيضين. وهو من أمحل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين:

أحدهما: أنها من لوازم كماله المطلق. فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا فى نصف الليل الثانى: من لوازم رحمته وربوبيته. وهكذا سائر الصفات الخبرية.

الوجه الثاني: أن السمع ورد بها، ثناء على الله ومدحاً له، وتعرفاً منه إلي عباده بها. فجحدها وتحريفها عما دلت عليه، وعما أريد بها: مناقض لما جاءت به. فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم.

كسر الجبر

وكذلك تضمنت الرد على الجبرية، الذين يقولون إن أفعال العباد كلها لا خيار لهم فيها.

وذلك من وجوه:

أحدهما: من إثبات عموم حمده سبحانه. فإنه يقتضي أن لايعاقب عبيده على ما لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم، بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم فى الحقيقة. وهو المعاقب لهم عليها. فحمده عليها يأبى ذلك

أشد الإباء، وينفيه أعظم النفى. فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علوا كبيراً، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التى فعلوها حقيقة. فهى لا أفعاله، وإنما افعاله العدل، والإحسان والخيرات.

الوجه الثاني: إثبات رحمته ورحمانيته ينفي ذلك. إذ لايمكن اجتماع هذين الأمرين قط – أن يكون رحماناً رحيماً– ويعاقب العبد على مالا قدرة له عليه، ولا هو من فعله، بل يكلفه مالا يطيقه، ولا له عليه قدرة ألبتة، ثم يعاقبه عليه. وهل هذا إلا ضد الرحمة. ونقض لها وإبطال؟ وهل يصح فى معقول أحد اجتماع ذلك، والرحمة التامة الكاملة، فى ذات واحدة؟

الوجه الثالث: إثبات العبادة والاستعانة لهم، ونسبتها إليهم، بقولهم «نعبد، ونستعين» وهى نسبة حقيقية لا مجازية. والله لايصح وصفه بالعبادة والاستعانة التى هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين. والله هو المعبود المستعان به.

إثبات النبّوات

وتضمنت الفاتحة الرد على منكري النبوات.

وذلك من وجوه:

أحدها: إثبات حمده التام. فإنه يقتضي كمال حكمته، وأن لايخلق خلقه عبثا، ولايتركهم سُدى، لا يُؤْمَرون ولا ينهون. ولذلك نزه الله نفسه عن هذا فى غير موضع من كتابه. وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة– وأن يكون ما أنزل على بشر من شئ– فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، بل نسبه إلى مالا يليق به، ويأباه حمده ومجده.

فمن أعطى الحمد حقه– علماً ومعرفة وبصيرة– استنبط منه «أشهد أن محمداً رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات فى منافاته للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثاني: إلهيته، وكونه إلهاً. فإن ذلك مستلزم لكونه معبوداً مطاعاً. ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله.

الثالث: كونه ربا. فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم. وجزاء محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته، هذا حقيقة الربوبية. وذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة.

الرابع: كونه رحماناً رحيما. فإن من كمال رحمته: أن يعرف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه. ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى. ذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة. فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه. فإن الملك يقتضى التصرف بالقول، كما أن الملك يقتضى التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بامره وقوله فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء. والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله. والله له الملك. وهو المتصرف فى خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوعان: تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما.

فإرسال الرسل: موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المعقول فى فطر الناس وعقولهم. فكل ملك لا تكون له رسل يبثهم في أقطار مملكته فليس بملك.

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه. فإنهم رسل الله فى خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً. وهذا لايكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التى بسببها يدان المطيع والعاصي.

السابع: كونه معبوداً. فإنه لايعبد إلا بما يحبه ويرضاه. ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله. فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً.

الثامن: كونه هادياً إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلي المطلوب. فإن الخط المستقيم: هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل. فتوقفه على الرسل ضرورى. أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس.

التاسع: كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم. فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم، وجعلهم قابلين الرسالة، مستجبين لدعوته. وبذلك ذكّرهم منته عليهم، وإنعامه فى كتابه.

العاشر: انقسام خلقه إلى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين. فإن هذا الانقسام ضرورى بحسب انقسامهم في معرفة الحق، والعمل به إلى عالم به، عامل بموجبه. وهم أهل النعمة.. وعالم به معاند له. وهم أهل الغضب. وجاهل به وهم الضالون. هذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل. فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة. فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة. وهذا الانقسام ضرورى بحسب الواقع. فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق، والتى قبلها: بيان تضمنها لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهى.

وهو الحق الذى خُلقت به وله السموات والأرض، والدنيا والآخرة. وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفى لهما.

وكلم الله موسى تكليما

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم

فإن حقيقة الرسالة: تبليغ كلام المرسل. فإذا لم يكن ثَمَّ كلام فماذا يبلِّغ الرسول؟ بل كيف يعقل كونه رسولا؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلما، أو يكون القرآن كلامه: فقد أنكر رسالة محمد ﷺ، بل ورسالة جميع الرسل، التى حقيقتها: تبليغ كلام الله تبارك وتعالى. ولهذا قال منكرو رسالته ﷺ عن القرآن ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥] وإنما عنوا القرآن المسموع الذى بُلِّغوه، وأنذروا به.

فمن قال: إن الله لم يتكلم به، فقد ضاهأ قوله قولهم. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

عبادة واستعانة

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده وهو «إياك نستعين»

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتي تكون محباً خاضعاً. ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم. بل هو غاية مطلوبهم- ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلهاً، وإن اقروا بكونه ربا للعالمين وخالقاً لهم. فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨] ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا - إلى قوله- سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لاينبغى أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و «الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولايعتمد عليه فى أموره - مع ثقته به- لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه- مع عدم ثقته به- لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معني يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» وهذان الأصلان- وهما التوكل، والعبادة- قد ذكرا فى القرآن فى عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها.

الثانى: قول شعيب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالي حكاية عن المؤمنين: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ⑨ ﴾[المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[الرعد: ٣٠]

فهذه ستة مواضع يجمع فيهما بين الأصلين. وهما « إياك نعبد وإياك نستعين »

وتقديم « العبادة » على « الاستعانة » فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ « العبادة » غاية العباد التى خلقوا لها، و« الاستعانة » وسيلة إليها. ولأن « إياك نعبد » متعلق بألوهيته واسمه « الله » و« إياك نستعين » متعلق بربوبيته واسمه « الرب » فقدم « إياك نعبد » على « إياك نستعين »، كما قدم اسم « الله » علي « الرب » فى أول السورة. لأن « إياك نعبد » قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و« إياك نستعين » قسم العبد. فكان من الشطر الذى له، وهو « اهدنا الصراط المستقيم » إلى آخر السورة.

ولأن « الاستعانة » جزء من « العبادة » من غير عكس. ولأن « الاستعانة » طلب منه، و« العبادة » طلب له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و« الاستعانة » تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن « العبادة » حقه الذى أوجبه عليك، و« الاستعانة » طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التى تصدق بها عليك. وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن « العبادة » شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و« الإعانة » فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و« العبودية » محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا، حتى يقضى العبد نحبه.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم « إياك نعبد » على « إياك نستعين ».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصر، فهو فى قوة: لانعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. والحاكم فى ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[البقرة: ٤٠] ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾[البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواى؟ وكذلك « إياك نعبدو إياك نستعين » هو فى قوة: لانعبد غيرك ولا نستعين بسواك. وكل ذى ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

وفى إعادة «إياك» مرة أخري دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت للملك مثلا: إياك أحب. وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ماليس فى قولك: إياك أحب وأخاف.

نستعين بالله على عبادته

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين- وهما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام.

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها. فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذى علمه النبى ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضى الله عنه، فقال: **«يامعاذ، والله إنى لأحبك. فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**.

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- قَدَّس الله روحه-: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته. ثم رأيته فى الفاتحة فى «إياك نعبد وإياك نستعين».

إمداد الكافر.. زيادةُ حُجة عليه

ومقابل هؤلاء: القسم الثانى. وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها. ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته. كانت زيادة له فى شقوته. وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته: كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولابد.

وليتامل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه. ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً، لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعبده الذى يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن- بجهله- أن الله لايحبه ولا يكرمه. ويراه يقضى حوائج غيره، فيسئ ظنه بربه. وهذا حشو قلبه

ولايشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان علي نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها. كما قيل:

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك. وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقّه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة. وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلي مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ** ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧] أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته وما ذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء منى، وامتحان له: أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرنى فأسلبه إياه، وأخوّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لايفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان منى له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرم بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغنى الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين».

العبادة بلا استعانة.. نقص

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان.

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إيّاها. بل قد ساوي بين أوليائه وأعدائه في الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان. وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم. مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رضى الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذى لا تاثير له، بل كالعدم الذى لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان ماموراً بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضرر والنفع، والعطاء والمنع. وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، ومالم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به. ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر في تجرد

قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولابد. قال الله تعالى: ﴿ومَن يَتوكَّلْ علَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أى كافيه. و «الحسب» الكافى. فإن كان- مع هذا- من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ولا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشئ من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

متابعة وإخلاص

إذا عرف هذا: فلايكون العبد متحققاً بـ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين.

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثانى: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق «إياك نعبد»

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام:

الضرب الأول: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لايريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة فى قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لايملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لايكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه. فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله،

وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. ولايعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذى لايقبل الله من عامل سواه. وهو الذى بَلا عباده بالموت والحياة لأجله قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[الملك: ٢] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً: لم يقبل وإذا كان صوابا، ولم يكن خالصا: لم يقبل. حتى يكون خالصا وصواباً: والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف: ١١٠] وفى قوله: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾[النساء: ١٢٥] فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، على متابعة أمره. وماعدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه- أحوج ما هو إليه- هباء منثورا. وفى الصحيح من حديث عائشة عن النبى ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**» وكل عمل بلا اقتداء فإنه لايزيد عامله من الله إلا بعداً. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقاً لشرع، وليس هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، والمرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[آل عمران: ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف- من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة- عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص فى أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر كجهال العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله. كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التى يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله، كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

الميزان الصحيح لأفضلية العبادة

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم فى ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر علي قدر المشقة، ورووا حديثاً لا أصل له «أفضل الأعمال أحمزها» أى أصعبها وأشقها.

وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور علي النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني، قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد فى الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا أن هذا مقصود لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعدّ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال

والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبى ﷺ: **«الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»** رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبى طالب رضى الله عنه **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم»** وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى.

واحتجوا بقوله ﷺ **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شئ»**.

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لاينقطع عمله، مادام نفعه الذى نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهيب. ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة: العمل علي مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به

والأفضل فى أوقات الآذان: ترك ماهو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه. حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل وفى وقت الوقوف بعرفه: الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل فى أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشْر الأخر من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لايخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير. فهى خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم فى الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيَّد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل لايزال متنقلاً في منازل العبودية. كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخري. فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق، الذى لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها

في سواه. فهذا هو المتحقق بـ «إياك نعبد وإياك نستعين». القائم بهما صدقاً. ملبسه ما تهيأ. ومأكله ما تيسر. واشتغاله بما أمره الله به في كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهي به المكان ووجده خالياً. لا تملكه إشارة. ولايتعبده قيد. ولا يستولى عليه رسم. حر مجرد. دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

حرمان الجبْرى من حلاوة العبادة

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة. وهم فى ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: الجبرية الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سبباً لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سبباً لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

وهؤلاء لايجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أى قد كلفوا بها. ولو سمى مُدّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفاً، وقال إنى إنما افعله بكلفة: لم يعده أحد محباً له. ولهذا أنكر هؤلاء– أو كثير منهم– محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذى يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هى كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولبها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهاً محبوباً بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوباً. وذلك إنكار لإلهيته، وشيخ هؤلاء: هم الجعد بن درهم الذى ضحى به خالد بن عبد الله القسرى فى يوم أضحى. وقال: «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا» وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوباً محباً، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التى هى الخلة عند الجهمية، التى يشترك فيها جميع الخلائق. فكلهم أخلاء لله عندهم.

وبعضٌ يمُنّون إسلامَهم

الصنف الثاني: القَدَرة النُفاة، الذين يقولون إن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] وقوله: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠] وقوله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - «ياعبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها» وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجراً وثوابا. لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أى يرجع إليه منه.

وإنما كان الجزاء ثواباً - والله أعلم - لأنه يثوب إلى العامل، وترجع إليه ثمرة عمله فى الدنيا لينقدها ويحاسب نفسه عليها، ويعرف ما في عمله من نقص وانحراف عن الجادة - ولابد - بقدر ما وجد فى ثمرته التي ثابت، ورجعت إليه فى الدنيا، ككل الشئون والأعمال الدنيوية، من صناعة وزراعة وتجارة غيرها، فيتدارك العبد النقص، ويتحرى الصراط المستقيم. فإذا لم ينقد عمله، ولم يحاسب نفسه، لما يغلب عليه من الغفلة والجهالة والتقليد الأعمى، كان ذلك قاطعاً لعذره يوم القيامة.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاء ولا أجراً ولا ثواباً معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى. وقد قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره فى طاعته، وينعم من أفنى عمره فى معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضى تخصيص هذا بالثواب، وهذا

بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح. وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنا لها. وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله. ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة. ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً فى الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذى فطر الله عليه عباده وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب. وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنِّة، وصدقته على عبده. إن أعانه عليها ووفقة لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه وكره إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه، ولا هى على قدره، بل غايتها- إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه- أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها.

فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبى ﷺ. ولهذا نفى النبى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يُدخل أحداً منكم الجنة عمله-وفى لفظ: لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله. وفي لفظ: لن ينجى أحداً منكم عمله- قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل**» وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما فى قوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٣٢] ولا تنافى بينهما. إذا توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد. فالمنفى استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها، رداً على القدرية المجوسية، التى زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجاباً. وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة. ويكفى فى جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه فى منَّته. وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنَّة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكراً لها،

وشكراً عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات : ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصاً لأنه نظيره. فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه. هذا مع أنه ليس فى كل مخلوق، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون« الله ورسوله أمن » ولا نقص فى منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق فى بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم. بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذى أثبت به دخول الجنة في قوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾.

فهذه باء السببية، رداً على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولا هى أسباب له.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء كما هى مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعاً وقدراً وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل بل أنواعاً. وهدي الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣] و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤].

تَفَلسُف

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس البهيمية. فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم. والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة،فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها.

المحبة أساس العبادة

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته فى أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها.

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُبه الباطلة، والقواعد الفاسدة، ما عندهم وراء ذلك شئ. قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا فى طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركّب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف. والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها، وعرف معني الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغى إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالمقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق، والتى لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلا. ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سدى مهملا. قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أى لغير شئ ولا حكمة ولا لعبادتى ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا فى قوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالعبادة: هى الغاية التى خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة: ٣٦] أى مهملا، قال الشافعى: لايؤمر ولا يُنهى، وقال غيره: لايثاب ولايعاقب. والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهى. والأمر والنهى طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالها. وقال تعالى: ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فليتأمل اللبيب الفُرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي، يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كَحُبِّه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره. واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علما عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع دون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولايكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شئ أحب إليه من الله ورسوله. ومتي كان عنده شئ أحب إليه منهما فهذا هو الشرك لايغفره الله لصاحبه ألبتة، ولايهديه الله. قال تعالى﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله. فهو ممن ليس الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.

الأركان الأربعة للعبادة التامة

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب «إياك نعبد» حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و«إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و «اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

العبودية ذروة الشرف

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب ﴿ الأعراف: ٦٥ و٧٣و٨٥ ﴾ وإبراهيم قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦] وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)** ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٧٢] وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وهذا الموقف يبين أن الوقف التام فى قوله في سورة الأنبياء ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأنبياء: ١٩] ههنا. ثم يبتدى ﴿ **وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)** ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فهما جملتان تامتان

مستقلتان، أى إن له من فى السموات ومن في الأرض عبيداً وملكاً. ثم استأنف جملة أخرى فقال ﴿ **ومن عنده لايستكبرون عن عبادته** ﴾ يعنى أن الملائكة الذين عنده لايستكبرون عن عبادته يعنى لايأنفون عنها ولايتعاظمون ولايستحسرون، فيعيون وينقطعون- يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا- بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثانى: وصف لعبيد إلهيته. وقال تعالى: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٧] إلى آخر السورة. وقال: ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** ﴾ [الإنسان: ٦] وقال: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ** ﴾ [ص: ١٧] وقال: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ** ﴾ [ص: ٤١] وقال: ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [ص: ٤٥] وقال عن سليمان ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص: ٣٠] وقال عن المسيح: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ** ﴾ [الزخرف: ٥٩] فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية فى أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ** ﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ** ﴾ [الكهف: ١] فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الكتاب عليه، وفى مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ [الجن: ١٩] فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله**» وفى الحديث: «**أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**» وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: «**قرأت فى التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر**».

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالي: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ .....** ﴾[الزمر: ١٧، ١٨] وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: [الزمر: ١٨] ﴿ **يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩] وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبى ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال فى حديث جبريل- وقد سأله عن الإحسان- « **أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك** ».

لزوم (إياك نعبد) لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالي لرسوله :﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] وقال أهل النار :﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧] واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفى الصحيح– فى قصة موت عثمان بن مظعون رضى الله عنه وأرضاه– أن النبى ﷺ قال: **«أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»** أى الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه فى البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان **«من كان يعبد؟ وما يقول فى رسول ﷺ؟»** ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة،يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لايستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بانفاسهم لايجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ– بل على جميع الرسل– أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولى العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٣] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾ [الفرقان: ١٧] فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثانى، كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى :﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦] وقال: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١] وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨] وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا.... ﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤] وقال تعالى عن إبليس ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ㊴ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ㊵ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] وقال تعالى عنهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته.

ولايجئ في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتى إلا على أحد خمسة أوجه: إما مُنكّرا، كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] والثانى: معرفا باللام، كقوله: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١] ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨]

الثالث: مقيداً بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلي خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال «طريق معبد» إذا كان مذللا بوطء الأقدام، و«فلان عَبّده الحب» إذا ذلله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالي في القنوت الخاص: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩] وقال فى حق مريم: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢] وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦] أى خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

ولهذا كان هذا السجود الكُره غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فخص بالسجود هنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩] وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالي.

مراتب (إياك نعبد) علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لايليق به.

والعلم بدينه مرتبتان: إحداهما: دينه الأمرى الشرعى. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائى، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل فى هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لاينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

خاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بحسن النية، فى تلقي هذه النعم والآلاء من ربهم العليم الحكيم، الذى ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربيهم بها، وينمى فيهم ملكات الخير، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والإحسان والرشد والحكمة، فيكونون من الأبرار. فهم في كل شئونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن. بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام. فهم فى حقلهم عابدون، وفى متاجرهم عابدون، وفى مضاجعهم مع أزواجهم عابدون، وهكذا لايرون فى شئ مما آتاهم الله ما يشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه، وما يرون فى شئ إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وحباً وخضوعاً وذلاً وإسلاما وطاعة.

فليس فى حقهم مباح متساوى الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. لأهل هاتين المرتبتين درجات لايحصيها إلا الله.

قواعد العبودية

ورحى العبودية على خمس عشرة قاعدة. من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان ، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التى للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهى لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية فى العبادة، فهذا قدر زائد على الإخلاص. فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان.

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية. ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضع وتسعين، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه كالرضا. فإن في وجوبه قولين:

فمن أوجبه قال: السخط حرام. ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل. قال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وأمر بالإنابة. فقال ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] وأمر بالإخلاص كقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وكذلك الخوف كقوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] وقوله ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] وكذلك الصدق قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وكذلك المحبة. وهي أفرض الواجبات. إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومخها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدحُ أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم. وظن أنهما متباينان وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لاينافي الصبر لاينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربا وإلها، والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لايصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولا.

ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس فى صلاته. فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالى فى إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر مَن سَها فى صلاته بسجدتى السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «**إن الشيطان يأتى أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا- لما لم يكن يذكر- حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى**» ولكن لانزاع أن هذه الصلاة لايثاب على شئ منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبى ﷺ: «**إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها- حتى بلغ عشرها**» وقال ابن عباس رضى الله عنه: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبارها ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة، ولا ينبغى أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لايثاب عليها فاعلها، والقول بأن الصلاة التى لا خشوع فيها ألبتة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة، مبنى على أن كلمة «الصحة» إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية فى أعمالها البدنية الظاهرة، دون الأعمال الباطنة كالإخلاص، كما تطلق فى عرف الأطباء على سلامة الجسد. دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق. وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضى سقوط الفرض وعدم المؤاخذة فى الآخرة. ولامراد أنها صحيحة ظاهراً كتسمية المنافق مسلماً فى الظاهر.

والقصد: أن هذه الأعمال: - واجبها ومستحبها- هى عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك. وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء- وهو القلب- قائماً بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته. وأما المحرمات التى عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهى نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التى هى أشد تحريما من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها. والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر فى حقه وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر، بسحب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره فى تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ : **«إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل. يا رسول الله. فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»** فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، في الإثم دون الحكم. وله نظائره كثيرة فى الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

عبودية اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس. فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: **«ربنا ولك الحمد»** بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفى ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة فى العلم النافع، وتابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريما.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوى الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لايخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس فى حقه شئ لا له ولا عليه.

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرا من الكلام لايتعلق به أمر ولا نهى، وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح، وأكثر ما يكب الناس على مناخيرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح. فإن صاحبها ينتفع بتحريكها فى المباح المستوى الطرفين، لما له فى ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح به استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه فى الآخرة. وأما حركة اللسان بما لاينتفع به فلايكون إلا مضرة.

وربما كانت الجوارح في الحركة- مضرة، ومنفعة، ومسئولية سواء، وظهور ذلك من اللسان: إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له. فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى وخصوصا السمع والبصر.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوى الطرفين، كانت حركة اللسان التى هى الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لايلزم ذلك فقد يكون الشئ مباحاً، بل واجباً، ووسيلته مكروهة- كالوفاء بالطاعة المنذورة- هو واجب، مع أن وسيلته- وهو النذر- مكروه منهى عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له

الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جداً. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وماجعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً. إذ الحواس خمس. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام بها، واستماع الخطبة للجمعة، فى أصح قولى العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة: من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التى تُخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولايجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لايريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لاتحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه. وهو استماع كل ما يكره ولايعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر فى المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التى يؤديها إلي أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات لشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذى المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، وذلك أوجب الواجبات، فإنه قد ورد الأمر المشدد به في القرآن كثيراً جداً، وجاء التوعد الشديد لمن عمي وغفل عن آيات الله الكونية. فإن العمى عنها مؤد ولابد إلى التكذيب بآيات الله في الأنفس والافاق، ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكر في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضول. وكم قاد فضولها إلى فضول عزَّ التخلص منها، وأعيي دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان.

عورة وراء الثياب وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شئ، وذهبت هَدَرا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقأوا عينه»** ورواه أبو داود ، وفيه **«ففقأوا عينه فقد هدرت»**.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور- أو مأذون له- في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس. من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة. وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله ﷺ **«نهي عن طعام المتبارين»** وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: مالم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة أو طيبة؟ وهل هى سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، ومالايملك ؟ ومن هذا شم المقوِّم، وربِّ الخِبْرة، عند الحكم بالتقويم ، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب فى الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك.

ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ: **«من عُرضت عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»**.

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: مالامنع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها.

والحرام: لمس مالا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة فى الإحرام للذة. وكذلك فى الاعتكاف، وفى الصيام، إذا لم يأمن على نفسه، ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هى عورة.

والمباح: مالم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضاً مرتبة على البطش باليد، والمشى بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف.

والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه. ولايجب لإخراج الزكاة، وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله فى الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمى الجمار.

والحرام: كقتل النفس التى حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب مالا يحل ضربه، ونحو ذلك وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ماهو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً، إلا مقروناً بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالا: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: ٧٩] وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا ان يكون مجتهداً مخطئاً، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام، وكتابة مالافائدة في كتابته، ولا منفعة فيه فى الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة فى الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعاً، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه فى دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ومنه: لمس الركن بيده فى الطواف، وفى تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: مالا مضرة فيه ولاثواب.

وأما المشى الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، فى أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلا، مذكورة فى غير هذا الموضع. والمشى حول البيت للطواف الواجب. والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه والمشى إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشى إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجْل الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً.

فواجبه: فى الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين.

وفى الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

مصطلحات وأساليب

وقد أكثر الناس القول في صفة منازل «إياك نعبد» التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله تعالى، وأكثروا في عدها، فمنهم من جعلها ألفاً، ومنهم من جعلها مائة، ومنهم من زاد ونقص، فكل وصفها بحسب سيره وسلوكه.

ولأرباب السلوك اختلاف كثير في عدد المقامات وترتيبها، وكل يصف منازل سيره، وحال سلوكه. ولهم اختلاف في بعض منازل السير: هل هي من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما: أن المقامات كسبية. والأحوال وهبية. ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات. والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالاً.

والصحيح في هذا: أن الواردات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع بوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازَلَتْه وباشرها فهي أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهي مقامات. وهي لوامع ولوائح في أولها، وأحوال في أوسطها، ومقامات في نهاياتها. فالذى كان بارقا هو بعينه الحال. والذى كان حالاً هو بعينه المقام. وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه.

فالحال ثمرة العلم ولايصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له.

وعلى هذا، فإن الحال هو تكيف القلب وانصباغه بحكم الواردات، فهو يدعو صاحبه إلى المقام الذي جاء منه الوارد، كما تدعوه رائحة البستان الطيبة إلى دخوله والمقام فيه.

وهذا لأن الرجل قد يكون عالما بالشئ ولايكون متصفاً بالتخلق به واستعماله. فالعلم شئ والحال شئ آخر. فعلم العشق، والصحة، والشكر، والعافية غير حصولها والاتصاف بها، فإذا غلب عليه حال تلك المعلومات صار علمه بها كالمغفول عنه. وليس بمغفول عنه. بل صار الحكم للحال.

فإن العبد يعرف الخوف من حيث العلم. ولكن إذا اتصف بالخوف، وباشر الخوف قلبه: غلب عليه حال الخوف والانزعاج، واستغرق علمه في حاله. فلم يذكر علمه لغلبة حاله عليه.

ومَنْ هذه حالهُ فقد ظفر بالاستقامة. لأن العلوم إذا أثمرت الأحوال: كانت عنها الاستقامة في الأعمال. ووقوعها على وجه الصواب. وتحقق صاحبها في الإشارة إلى ما وجده من الأحوال. ولم تكن إشارته عن تخمين وظن وحسبان. واستحق اسم النسبة– في صحة العبودية– إلى الرحمن عز وجل. لقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ..الآيات ﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٧٦] وقوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٦] وقوله: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨].

والمقصود: أن هذا قد انتقل من أحكام العمل وحده إلى أحكام العمل بالحال المصاحب للعلم. فهو عامل بالمواجيد الحالية، المصحوبة بالعلوم النبوية: فإن انفراد العلم عن الحال تعطيل وبطالة، وانفراد الحال عن العلم: كفر وإلحاد. والأكمل: إن لايغيب عن شهود العلم بالحال، وإن استغرقه الحال عن شهود العلم، مع قيامه بأحكامه: لم يضره.

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه، وقد لايعود.

ومن المقامات: مايكون جامعاً لمقامين.

ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات. فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لايتصور وجودها بدونهما.

و« التوكل » جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا. ولا يتصور وجوده بدونهما.

و« الرجاء » جامع لمقام الخوف والإرادة.

و« الخوف » جامع لمقام الرجاء والإرادة.

و« الإنابة » جامعة لمقام المحبة والخشية، لايكون العبد منيباً إلا باجتماعهما.

و« الإخبات » له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع لايكمل أحدها بدون الآخر إخباتا

و« الزهد » جامع لمقام الرغبة والرهبة. لايكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام « المحبة » جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة. فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة. وبها تحققها.

ومقام « الخشية » جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كمال قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].فالعلماء به وبامره هم أهل خشيته. قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

ومقام « الهيبة » جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام « الشكر » جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق « الرضا » وهو يتضمن « الصبر » من غير عكس. ويتضمن « التوكل » و« الإنابة » و« الحب » و« الإخبات » و« الخشوع » و« الرجاء » فجميع المقامات مندرجة فيه. لايستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا

باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل فى الشكر، فرجع الإيمان كله شكراً. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالي: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومقام «الحياء» جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام «الإنس» جامع لمقام الحب مع القرب. فلو كان المحب بعيداً عن محبوبه لم يأنس به. ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم. فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضا والتسليم، فهو معنى ملتئم من هذه الأمور. إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة. وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك «الرغبة» و«الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و«الخوف» والرجاء علي الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون، فالأبرار في أذياله، والمقربون فى ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها. وكل من النوعين لايحصى تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلا الله.

و«المريد» فى الاصطلاح: هو الذى قد شرع فى السير إلى الله. وهو فوق العابد، ودون الواصل. وهذا اصطلاح بحسب حال السالكين. وإلا فالعابد مريد، والسالك مريد، والواصل مريد. فالإرادة لا تفارق العبد مادام تحت حكم العبودية.

و«العارف» فوق السالك. ولايفارقه السلوك، لكنه مع السلوك قد ظفر بالمعرفة. فأخذ منها اسما أخص من اسم السالك. وهكذا الشأن فى سائر المقامات والأحوال. فإنها لا تفارق من ترقي فيها. ولكن إذا ترقي فى مقام أخذ اسمه، وكان أحق به مع ثبوت الأول له.

والمتكلمون فى هذا الشأن يرجحون «المعرفة» على «العلم» جداً. وكثير منهم لايرفع بالعلم رأساً. ويعده قاطعاً وحجاباً دون المعرفة. وأهل الاستقامة منهم: أشد الناس وصية للمريدين بالعلم. وعندهم: أنه لايكون ولى الله كامل الولاية من غير أولى العلم أبداً. فما اتخذ الله ولا يتخذ ولياً جاهلاً. والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص. والعلم أصل كل خير وهدى وكمال.

والفرق بين «العلم» و«المعرفة» عند أهل الاستقامة من المتكلمين فى هذا الشأن: أن «المعرفة»

عندهم هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه. فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لايصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله، وبالطريق الموصل إلى الله، وبآفاتها وقواطعها. وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة. فالعارف- عندهم- من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله. ثم صدق الله في معاملته. ثم اخلص له فى قصوده ونياته. ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخلفاته، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته. ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته. ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله، ولم يَشُبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم. ولم يزن بها ماجاء به الرسول عليه من (الله) أفضل صلواته. فهذا الذى يستحق اسم العارف على الحقيقة، إذا سمى به غيره على الدعوى والاستعارة.

وحقيقة الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه:

أحدها: إن «المعرفة» تتعلق بذات الشئ و«العلم» يتعلق بأحواله. فتقول: عرفت أباك، وعلمته صالحاً عالماً. ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة. كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨] وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

فالمعرفة: حضور صورة الشئ ومثاله العلمى فى النفس. والعلم: حضور أحواله وصفاته، ونسبتها إليه. فالمعرفة: تشبه التصور. والعلم: يشبه التصديق.

الثانى: ان «المعرفة» في الغالب- تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه. فإذا ادركه قيل: عرفه، أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه. فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها، قيل: عرفه، قال الله تعالي: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقال تعالي: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠] لما كانت صفاته معلومة عندهم، فرأوه: عرفوه بتلك الصفات. وفي الحديث الصحيح: «**إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولاً: أتعرف الزمان الذى كنت فيه؟ فيقول: نعم. فيقول: تمنَّ فيتمنى على ربه**» وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] فالمعرفة: تشبه الذكر للشئ. وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر. ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار، وضد العلم: الجهل. قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] ويقال: عرف الحق فاقر به. وعرفه فأنكره.

وقد وقع فى القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم» فلفظ «المعرفة» كقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ

الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠].

وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقاً. كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ- الآية﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠] وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٤٠] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤] وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم «**العلم**» وما تصرف منه. فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلام، وعَلِمَ، ويعلم. وأخبر أن له علما، دون لفظ «المعرفة» فى القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له فى معناه، ومن هاهنا تدرك أن هؤلاء القوم قد أخطأوا حين رجحوا اصطلاح «المعرفة» وأكثروا الدندنة حوله، وإنما جاريناهم في ذلك خروجا من الخلاف، وحرصا على المعانى المباركة الصائبة الكثيرة التى وصفوا بها العارفين.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمنى أهل الكتاب خاصة. كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ - إلى قوله- مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

والسالكون ضربانٌ أيضاً من باب آخر: سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم، وسالكون على العلم، ملتفتون إلي الحال، حتى كأنهما غيران وحزبان، وكل فرقة منهما لا تانس بالأخرى، ولا تعاشرها إلا على إغماض ونوع استكراه.

وهذا من تقصير الفريقين، حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم. وضعف الآخر عن الحال في العلم. فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم. فأخذ هؤلاء العلم، وسَعته ونوره. ورجحوه، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه. ورجحوه. وصار الصادق الضعيف من الفريقين: يسير بأحدهما ملتفتاً إلى الآخر.

فهذا مطيع للحال. وهذا مطيع للعلم. لكن المطيع للحال متى عصى به العلم: كان منقطعاً

محجوباً، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون. والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعاً منقوصاً. مشتغلاً بالوسيلة عن الغاية.

وصاحب التمكين: يتصرف علمه في حاله، ويحكم عليه فينقاد لحكمه، ويتصرف حاله في علمه، فلا يدعه أن يقف معه. بل يدعوه إلى غاية العلم.، فيجيبه ويلبى دعوته. فهذه حال الكمل من هذه الأمة. ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك.

فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم: دخل عليهم النقص والخلل. والله المستعان: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فكذلك يهب لمن يشاء علماً. ولمن يشاء حالا. ويجمع بينهما لمن يشاء. ويخلى منهما من يشاء.

واعلم أن الترتيب الذى يشير إليه كل مرتب للمنازل لايخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله. وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات. لايكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها. وكلما وفى واجباً أشرف على واجب آخر بعده. وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال فى أول بداية سيره. فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة مالم يحصل بعد لسالك في نهايته. ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور- من البصيرة. والتوبة، والمحاسبة- أعظم من حاجة صاحب البداية إليها. فليس فى ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك.

بل أن التوبة- التى جعلوها من أول المقامات- هى غاية العارفين، ونهاية أولياء الله المقربين. ولاريب أن حاجتهم إلى المحاسبة فى نهايتهم، فوق حاجتهم إليها فى بدايتهم.

واعلم أيضاً أن السائر إلى الله لاينقطع سيره إليه مادام فى قيد الحياة. ولا يصل العبد مادام حيا إلي الله وصولا يستغنى به عن السير إليه ألبتة وهذا عين المحال. بل يشتد سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده، وأسمائه وصفاته. ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً ، وقياماً بالأعمال، ومحافظة عليها إلي أن توفاه الله. وهو أعظم ما كان اجتهادا وقياما بوظائف العبودية. فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله. وكان بعد في طريق الطلب والإرادة.

وعلى هذا فإن تقسيم السائرين إلى الله إلى طالب ، وسائر، وواصل، أو إلي مريد، يريد الله، ومراد، أعلى منه، يريده الله ويجذبه إليه: تقسيم فيه مساهلة، لا تقسيماً حقيقياً، فإن الطلب والسلوك والارادة لو فارق العبد: لانقطع عن الله بالكلية.

ولكن هذا التقسيم باعتبار تنقل العبد فى أحوال سيره وإلا فإرادة العبد المراد، وطلبه وسيره: أشد من إرادة غيره، وطلبه وسيره.

وأيضاً فإنه مراد أولا، حيث أقيم في مقام الطلب، وجذب إلى السير. فكل مريد مراد، وكل واصل وسالك وطالب لايفارقه طلبه ولاسيره، وإن تنوعت طرق السير، بحسب اختلاف حال العبد.

فمن السالكين: من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم: من سيره بقلبه أغلب عليه، أعني قوة سيره وحدته.

ومنهم- وهم الكمل الأقوياء- من يعطي كل مرتبة حقها. فيسير إلى الله ببدنه وجوارحه، وقلبه وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بانهم دائماً في مقام الإرادة له. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٩-٢١] فالعبد أخص أوصافه، وأعلى مقاماته: أن يكون مريداً صادق الإرادة، عبدا في إرادته، بحيث يكون مرادهُ تبعاً لمراد ربه الدينى منه. ليس له إرادة فى سواه.

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقاً في كل مقام مقام. ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ، فمن تأمله- كسهل بن عبد الله التسترى وأبى طالب المكى، والجنيد بن محمد، وأبى عثمان النيسابورى، ويحيى بن معاذ الرازى- وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل أبى سليمان الدارانى، وعون بن عبد الله- الذى كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما. . فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مفصلا جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب. ولا حصر للمقامات بعدد معلوم. فإنهم كانوا أجل من هذا. وهمهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة. ولهذا كلامهم قليل فيه البركة. وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

واعلم أن منتهي همة الصادقين أرباب البصائر إلي ثلاثة أشياء:

أحدها: الكشف عن منازل السير.

والثانى: الكشف عن عيوب النفس، وآفات الأعمال ومفسداتها.

والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات، وحقائق التوحيد والمعرفة.

وهذه الأبواب الثلاثة: هى مجامع علوم القوم. وعليها يحومون. وحولها يدندنون. وإليها يشمرون. فمنهم من جل كلامه ومعظمه: فى السير وصفة المنازل. ومنهم من جل كلامه: فى الآفات، والقواطع. ومنهم من جل كلامه: فى التوحيد والمعرفة، وحقائق الأسماء والصفات.

والصادق الذكى يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق. فيستعين به على مطلبه. ولايرد مايجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويهدره به. فالكمال المطلق لله رب العالمين، وما من العباد إلا له مقام معلوم.

ولابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم. إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم. ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه، ولعدوه سلوكاً عامياً، وللخاصة سلوك آخر، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم «إن القوم كانوا أسلم، وإن طريقنا أعلم» وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه «إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه. وضبط قواعده وأحكامه. اشتغالاً منهم بغيره. والمتأخرون تفرغوا لذلك. فهم أفقه».

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها، وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شئ. فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن، و﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق: ٣]

فالأولى بنا: أن نذكر منازل «العبودية» الواردة فى القرآن والسنة. ونشير إلي معرفة حدودها ومراتبها. إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله. وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق. فقال تعالى: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾[التوبة: ٩٧] فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية: يستكمل العبد الإيمان، ويكون من أهل ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق: ٣].

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق، بل مستحسن، بحسب ترتيب السير الحسى، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس. فيكون التصديق أتم، ومعرفته أكمل، وضبطه أسهل.

فهذه فائدة ضرب الأمثال، وهى خاصة العقل ولبه، ولهذا أكثر الله تعالى منها في القرآن. ونفي عقلها عن غير العلماء. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

المنازل الأربع الأساسية الأولى

(١) اليقظة (٢) الفكرة

(٣) البصيرة (٤) العزم

انتفاضة اليقظة

فأول منازل العبودية « اليقظة » وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، . ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو فى سكرات الغفلة فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التى سُبى منها.

واعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه في نوم الغفلة، قلبه نائم وطرفه يقظان. فصاح به الناصح. وأسمعه داعى النجاح. وأذن به مؤمن الرحمن: حى على الفلاح.

فأولى مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم. وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وكأنها هى القومة لله المذكورة في قوله﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ [سبأ: ٤٦].

فالقومة لله هى اليقظة من سِنَة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وأول أنوارها: لَحْظُ القلب إلى النعمة، على اليأس من عدّها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير في حقها.

وهذا هو موجب اليقظة وأثرها. فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حدق قلبه وطرفه فيها، شاهد عظمتها وكثرتها. فيئس من عدها، والوقوف على حدها، وفرَّغ قلبه لمشاهدة منة الله عليه بها، من غير استحقاق ، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها. وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم، واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له، وإزراءه على نفسه. حيث عجز عن شكر نعمه. فصار متحققاً بـ« **أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت** » وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه

لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير.

وهذا اللحظ يؤدى به إلي مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها.

فينظر إلى ماسلف منه من الإساءة. ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مسرف على الهلاك بمؤاخدة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تُقَدِّمُ يداه فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧] فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل. وتخلص من رقِّ الجناية بالاستغفار والندم. وطلب التمحيص. وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما. ولايمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لايدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم ا لملائكة: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [النحل: ٣٢] فليس فى الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون فى دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يبشرونهم بالجنة وكان من الذين: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ [فصلت: ٣٠] عند الموت ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً– وهى العامة الشاملة الصادقة– ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً– وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه– وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من فى يده قدح السكر، وهو يقول: استغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات فى كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما–: مُحِّص فى البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة. وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول الصدقة

والدعاء. قال الإمام أحمد: لايختلفون في ذلك. وماعداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب، بدَنيِّها وماليها.

فإن لم تف هذه بالتمحيص. محص بين يدى ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكير، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له وتمحيصاً لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه. فإذا خرج خبثه وصفى ذهبه. وصار خالصاً طيباً، أخرج من النار، وأدخل الجنة.

ثم إن من أعلى مراتب اليقظة: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها، وتعمير باقيها.

فيعرف ما معه من الزيادة والنقصان. فيتدارك مافاته في بقية عمره التي لاثمن لها، ويبخل بساعاته- بل بأنفاسه- عن ذهابها ضياعا في غير ما يُقَرِّبَه إلى الله. فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم في قدرة، قلة وكثرة. فكل نَفَس يخرج في غير مايقرب إلى الله فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به.

فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم بروق المنة، والاعتبار بأهل البلاء.

فهى النور الذى أوجب اليقظة، فاستنار القلب به لرؤية التنبه. وعلى حسبه- قوة وضعفاً- تصفو له مشاهدة النعمة. فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس. فليس له نصيب من هذا النور البتة. فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعم بذكره، والتلذذ بطاعته: هو أعظم النعم. وهذا إنما يدرك بنور العقل، وهداية التوفيق.

وكذلك شَيمهُ بروق منن الله عليه. وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سحب الطبع، وظلمات النفس. والنظر إلى أهل البلاء- وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله- فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً، فإذا رآهم، وعلم ماهم عليه، عظمت نعمة الله عليه في قلبه، وصفت له وعرف قدرها . فالضد يُظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء.

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة: رؤية أهل النار وماهم فيه من العذاب.

وأما مطالعة الجناية: فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.

فمن كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتى إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه فى كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها- مع عظم قدر من خالفه- عظمت الجناية عنده. فشمر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره فى التخلص من الجناية التى تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابا لايرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] وقال: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] وأخبر تعالى أن أهل النجاة فى الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعى الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات.

ذلك أن السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه. وكذلك تَفقُّد إجابة داعى تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم هو بطئ عنها؟ فبحسب إجابة الداعى- سرعة وإبطاء- تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

والذى يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة، والإعراض، وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه. فهو مقطوع. وعن فلاحه وفوزه ممنوع: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة. وهي- كما تقدم- تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسا له.

والفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة.

فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفى. والتى تتعلق بالطلب والإرادة: هى الفكرة التى تميز بين النافع والضار.

ثم يترتب عليها فكرة أخرى فى الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها.

فهذه ستة أقسام. لا سابع لها، هى مجال أفكار العقلاء.

وأصلها: الفكرة فى التوحيد: وهى استحضار أدلته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين، بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق، والرب الحق. وهو الله الواحد القهار.

وهذه الفكرة هي حقيقة البراء والولاء. البراء من عبادة غير الله، والولاء لله، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال أيضا: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ... إلى آخرها ﴾ [الكافرون: ١ - ٦] وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

وهى حقيقة المحو والإثبات. فيمحو محبة ما سوى الله عز وجل من قلبه، علماً وقصداً وعبادة، كماهي ممحوة من الوجود. ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وهى حقيقة الجمع والفرق. فيفرق بين الإله الحق وبين من ادعيت له الإلهية بالباطل. ويجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على إلهه الحق الذى لا إله سواه.

وهى حقيقة التجريد والتفريد. فيتجرد عن عبادة ما سواه، ويفرده وحده بالعبادة. فالتجريد نفى، والتفريد إثبات . ومجموعها هو التوحيد.

فهذا الولاء والبراء. والمحو والإثبات والجمع والتجريد. والتفرد المتعلق بتوحيد الإلهية: هو النافع المثمر المنجي. الذى به تنال السعادة والفلاح.

بصائر تهدى

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة»، فهى نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله فى هذه لأوليائه، وفى هذه لأعدائه. فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، ووضع الكتاب، وجئ بالنبيين والشهداء، وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب. وكثر العطاش وقل الوارد. ونصب الجسر للعبور، ولُزَّ الناس إليه. وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه. والنار يحطم بعضها بعضاً تحته. والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك. ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الاخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

فـ«البصيرة: نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين فيتحقق مع ذلك– انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معني قول بعض العارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشئ والتضرر به» وقال بعضهم «البصيرة: ما خلصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان».

و«البصيرة» على ثلاث درجات. من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة فى الأسماء والصفات، وبصيرة فى الأمر والنهى، وبصيرة في الوعد والوعيد.

المرتبة الأولى من البصيرة

فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن لايتأثر بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله. بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك فى وجود الله. فكلاهما سواء فى البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم. وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك. موصوفاً بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال، منزها عن العيوب والنقائص والمثال. فهو كما وصف نفسه فى كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه. حى لايموت. قيوم لاينام. عليم لايخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا في الأرض. بصير يرى دبيب النملة السوداء، على

الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا. وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلا. ووسعت الخليقة أفعاله عدلا. وحكمة ورحمة وإحساناً وفضلا. له الخلق والأمر. وله النعمة والفضل. وله الملك والحمد. وله الثناء والمجد. أول ليس قبله شئ. وآخر ليس بعده شئ. ظاهر ليس فوقه شئ. باطن ليس دونه شئ. أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد. ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل. كل شئ من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ولا ترك الإنسان سدى عاطلا. بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلي زيادة كرامته. تعرف إلى عباده بأنواع التعريفات. وصرف لهم الآيات. ونوع لهم الدلالات. ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب. ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب. فأتم عليهم نعمه السابغة. وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. وضمن الكتاب الذى كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذى ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم، وإذا تأملت حال العامة- الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم- رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيماناً، وأعظم تسليما للوحى، وانقياداً للحق.

المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة فى الأمر والنهى. وهى تجريده عن المعارضة بتأويل ، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص.

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد

وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، في دار العمل ودار الجزاء. وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته. فإن الشك فى ذلك فى إلهيته وربوبيته. بل شك في وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ولايليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملا، وتركها سدى. تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية . ولهذا كان الصحيح : أن المعاد معلوم بالعقل . وإنما اهتُدِى إلى تفاصيله بالوحى . ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه . لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته . وكلاهما مستلزم للكفر به . قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد : ٥] .

وفى الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم : «أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» فعجبٌ قولهم ! كيف ينكرون هذا . وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئاً .

والثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له . فانكارهم للبعث، وقولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد» أعجب .

وعلى التقديرين : فإنكار المعاد عجب من الإنسان . وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته . وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه .

ولصاحب كتاب منازل السائرين الذى نشرحه، شيخ الإسلام الهروى، فى « البصيرة » طريقة أخرى، إذ جعل : « البصيرة ما يخلصك من الحيرة » وجعل الدرجة الأولى منها : أن تعلم أن خبر رسول الله ﷺ : من حقه أن تؤديه يقيناً، وتغضب له غيرة .

ومعنى كلامه : أن ما أخبر به الرسول ﷺ صادر عن حقيقة صادقة، لايخاف متبعها فيما بعد مكروهاً . بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها . إذ هى حق . ومتبع الحق لاخوف عليه . ومن حق ذلك الخبر عليك : أن تؤدى ما أمرت به من غير شك ولا شكوى، والأحوط بك والذي لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديق محقق، لايصحبه شك، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حق، ويهمل جانبه .

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام « البصيرة » لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع، والغضب على من أضاعه . فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه . وذلك عين البصيرة . فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال مُعمٍ لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله– إذا ضيعت، ومحارمه إذا انتهكت– معم لعين البصيرة .

ثم جعل الدرجة الثانية : أن تشهد فى هداية الله للناس وإضلاله لهم : إصابة العدل، وتعاين فى جذبه إياك من نفسك الأمارة بالسوء : حبل الوصل .

يريد - رحمه الله- بشهود العدل فى هدايته من هداه، وفى إضلاله من أضله: أمرين.

أحدهما: تفرده بالخلق، والهدي والضلال.

والثانى: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالاتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، أصلاً وميراثاً. قال تعالي: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لايليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولايبقى إلا أن يقال: فلم خلق من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط فى الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم.

أما قوله الآخر فيريد به أن تعاين في توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك: أنه يريدتقريبك منه. فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال، وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكا بحبله- الذى هو عهده ووصيته إلى عباده- على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر، وبذل النصيحة في العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة التي تؤدى إلى درجة ثالثة منها رآها الهروى تفجر المعرفة، وتُنبِت الفِراسة.

وصدق - رحمه الله- فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التى لاتنال بكسبٍ ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

الفِراسة ثمرة البصيرة

فالبصيرة تنبت فى أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:

٧٥] قال مجاهد : للمتفرسين. وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل»** ثم قرأ ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر: ٧٥].

و« التوسم » تفعل من السيما. وهى العلامة. فسمى المتفرس متوسماً. لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهى، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شئ، وآتاه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها، ليشكرها بحسن الانتفاع بها، ووضعها في مواضعها الصالحة لها بأصل الخلق والفطرة لأنها إنما خلقت وسخرت له. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب فهوقابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، ، وتصح الدلالة. وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحى والإيمان، فيضاف ذلك إلي نور الفراسة والاستعداد، فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولايزال فى تزايد حتى يرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنة. فاظلم. وعمى عن البصيرة. فحجبت عنه حقائق الإيمان. فيرى الحق باطلاً، والباطل حقا، والرشد غياً، والغى رشدا. قال تعالى: ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤] و« الرين » و« الران » هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعهفا تكون الفراسة. ففراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره، متصلة بالله، ذلك أن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متعلقة بنور الوحى مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علماً وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

قصد يحث على الاقتحام

فإذا انتبه وأبصر أخذ فى « القصد » وصدق الإرادة، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لابد له منه. فأخذ فى أهبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن

عوائق السفر، وقطع العلائق التى تمنعه من الخروج.

وقد رآه الشيخ الهروي:

« قصداً يبعث على الارتياض، ويخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض »

فهو يبعث على السلوك بلا توقف، ولا تردد ، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق، بحيث لايلقى سبباً يعوّق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهّلها، فيجعل ديدنه الاستسلام لتهذيب العلم، وإجابة داعى الحكم.

فهو ينقاد إلى العلم ليتهذب به ويصلح. ويقصد إجابة داعى الحكم الدينى الأمرى كلما دعاه. فإن للحكم فى كل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادى للإيمان بها علما وعملا. فيقصد إجابة داعيها.

اما الأسرار والحكم الداعية إلى شرع الحكم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنه من الحكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

ابتداء العزم على الانتهاء

فإذا استحكم قصده صار « عزما » جازما، مستلزماً للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل على الله. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

و« العزم » هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود. وان التحقيق: ان الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا انه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظُن انه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و« العزم » نوعان. أحدهما: عزم المريد على الدخول فى الطريق. وهو من البدايات. والثاني: عزم فى حال السير معه. وهو أخص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره في موضعه إن شاء الله.

وفى هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما له مما عليه، ليستصحب ماله ويؤدى ما عليه. وهو « المحاسبة » وهى قبل « التوبة » فى المرتبة. فإنه إذا عرف ماله وما عليه أخذ فى أداء ما عليه، والخروج منه. وهو « التوبة ».

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثانى. كمنازل السير الحسي. هذا محال. ألا تري أن « اليقظة » معه في كل مقام لاتفارقه، وكذلك « البصيرة » و« الإرادة » و« العزم » وكذلك « التوبة » فإنها كما أنها من أول المقامات فهى آخرها أيضاً. بل هى في كل مقام مستصحبة. ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالي في غزوة تبوك. وهى آخر الغزوات التى قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١١٧] فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال في سورة أجل رسول الله ﷺ التى هى آخر سورة أنزلت ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)** ﴾ [النصر : ١ -٣].

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها « **أن رسول الله ﷺ ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة وإلا قال في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لى، يتأول القرآن** » فالتوبة هى نهاية كل سالك وكل ولي لله. وهى الغاية التى يجرى إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغى له. قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)** ﴾ [الأحزاب : ٧٢، ٧٣] فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك « الصبر » فإنه لاينفك عنه في مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن « الرضا » مترتب على « الصبر » لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام « الرضا » بعد مقام « الصبر » لايعنى به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعنى أنه لايحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن « القصد » و« العزم » متقدم على سائر المنازل، وعلمت بذلك أن « المحاسبة » متقدمة على « التوبة » بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه، وهى حقيقة التوبة. وأن منزلة« التوكل » قبل منزلة « الإنابة » لأنه يتوكل في حصولها. فالتوكل وسيلة، والإنابة غاية.

(٥) منزلة المحاسبة

ذكرنا « اليقظة » و« الفكرة » و« البصيرة » و« العزم »

وهذه المنازل الأربع لسائر المنازل كالأساس للبنيان. وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولايتصور السفر دون نزولها البتة. وهى على ترتيب السير الحسي. فإن المقيم في وطنه لايتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره، ومافيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة « المحاسبة » وهى « التمييز » بين ما له وما عليه. فيستصحب ماله. ويؤدى ما عليه. لأنه مسافر سفر من لايعود.

ومن منزلة « المحاسبة » يصح له نزول منزلة « التوبة » لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهى حقيقة « التوبة » فكان تقديم « المحاسبة » عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً. وهو ان « المحاسبة » لاتكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه علي ذلك، والنظر : هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لايصلح؟

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: « على من لا تخفى عليه أعمالكم ».

ما غرّك بربك.. الكريم؟

وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عز وجل، وجنايتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم انه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعَطَب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك

أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص. وأن حَدَّها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبدا. ولولا هداه ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوقفه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم- عدم الذات، وعدم الكمال - فهناك تقول حقا: «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي».

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة.

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

آلات المقايسة

إلا إن هذه المقايسة تشق على من ليس له نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة، فهي تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نوَّر الله به قلوب أتباع الرسل، فبقدره ترى التفاوت ، وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر. ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه. فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالا. فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السُّخط تبدى المساويا

ولا يسئ الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لايشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة. وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر إنما هو مستدرج، ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولاينفك عنهما، وذلك قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧] وقوله: ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منه. وإلا فهى حجة. وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقْتُرن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حُجة وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول فى الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل، ومعرفة الإيمان فهى منة، وإلا فهى حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع المنن والمحن. والحجج والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك: ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

لك .. وعليك!

فإذا توغلت في هذه المقايسات: فتحت المحاسبة لك باباً من التمييز بين ما عليك لله من وجوب العبودية والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين مالك. فالذى لك: هو المباح الشرعى، فعليك حق، ولك حق، فادِّ ما عليك يؤتك مالك.

ولابد من التمييز بين ما لك وما عليك. وإعطاء كل ذى حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله. فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أدَّاه.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيرا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه.

فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات. ويظن ذلك حقاً عليه، كمن يتعبد بترك

النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلا، أو الطيبات من المطاعم والملابس. ويرى- لجهله- أن ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجل الطاعات. وقد أنكر النبى ﷺ على من زعم ذلك، ففى الصحيح: **«أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبى ﷺ مقالتهم. فخطب، وقال: مابال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلاآكل اللحم، ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكنى أتزوج النساء، وآكل اللحم. وأنام وأقوم وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنتى فليس مني»** فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة. فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

الكثير .. القليل!

ومن تمام هذا التمييز أن يعلم أن رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه. وجهله بحقوق العبودية. وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامله به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغى أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ماهو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها. فقال: ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)** ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩] وقال تعالى: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٧] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفى الصحيح: **«أن النبى ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا. ثم قال: اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت ياذا الجلال والإكرام»** وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله. فقال فى آخر سورة أنزلت عليه: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)**

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر: ١-٣].

ومن هـهنا فـهـم عـمـر وابن عـبـاس- رضي الله عنهـم- أن هذا أجل رسـول الله ﷺ أعلمـه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شئ. فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه: «**سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلنى من التوابين، واجعلنى من المتطهرين**».

فهذا شأن من عرف ما ينبغى لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضي لله نفسه وعمله؟

ولله در الشيخ أبى مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب فى قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التى تبذلها فى تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البضاعة لايصلح للملك الحق، ولوجئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله.

ازدراء البطئ.. وراء!

ولايكمل هذا المعنى إلا بأن تربأ بنفسك عن تعيير المقصرين، فلعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه، وأشد من معصيته. لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والازدراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله. فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تدل بها عليه. وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لايصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدل. وأنين المذنبين أحب إلي الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولاتشعر.

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لايعلمها إلا هو، ولايطالعها إلا أهل البصائر. فيعرفون

منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك مالايطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبى ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولايُثرِّب» أى لايعير، من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] فإن الميزان بيد الله. والحكم لله. فالسوط الذى ضُرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب. والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب. ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله. وقد قال الله تعالي لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ «لا ومقلب القلوب» وقال: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل. إن شاء أن أقامه، وإن شاء أى يزيغه أزاغه» ثم قال: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

(٦) منزلة التوبة

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام «التوبة» لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنزل «التوبة» أول المنازل ، وأوسطها، وآخرها. فلايفارقه العبد السالك، ولايزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هى بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال تعالى: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجى، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب. ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه. وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«يا أيها الناس، توبوا إلي الله، فوالله إنى لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»** وكان أصحابه يَعُدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: **«رب اغفر لى وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور»** مائة مرة، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها. إلا قال فيها: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لى»** وصح عنه ﷺ أنه قال: **«لن ينجى أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»**.

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

فاتحة التوبة

ولما كانت «التوبة» هى رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لايحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ولاتحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها- علما وشهوداً وحالاً ومعرفة- علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل

ينافي معرفة الهدى والثاني غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا.

الاعتصام.. أو الذنوب

وأول معاني التوبة: أن تنظر إلى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب، وأن الله منع عصمته عنك، وأن تنظر إلى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب، وقعودك عن تداركه، مصرا عليه، مع تيقنك نظر الحق إليك، فإن العبد لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ١٠١] فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً. قال الله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الحج: ٧٨] أى متى اعتصمتم به تولاكم. ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما العدوان اللذان لايفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج. وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله، ونقص هذا الاعتصام يؤدى إلى الانخلاع من عصمة الله، وهو حقيقة الخذلان فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك. ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلك الله إلي نفسك، ويخلى بينك وبينها، والتوفيق: أن لايكلك الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية- بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته- حكم وأسرار. سنذكر بعضها.

وهكذا ترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك.

وتشتد الغفلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحه بها غطى عليه ذلك كله. وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا. ولايكمل بها فرحه. بل لايباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به. ومتى خلى قلبه من هذا الحزن. واشتدت غبطته وسروره، فَلْيَتَّهِم إيمانه. ولْيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب الذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يُحس به فما لجرح بميت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قل من يهتدي إليها أو ينتبه لها. وهى موضع مخوف جدا، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة. وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد فى استدراكه.

فإذا اشتدت غفلته إلى هذا الحد: نقلته ولابد إلي الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة. والعزم على المعاودة وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة الذنب: أنه يوجب ذنباً أكبر منه. ثم الثانى كذلك. ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار علي المعصية معصية أخرى. والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها. وذلك علامة الهلاك. وأشد من هذا كله: المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم. وإن لم يؤمن بنظره إليه وإطلاعه عليه فذلك كفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية: فهو دائر بين الأمرين: بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والإنسلاخ من الدين. فلذلك يشترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً- ولايزال- إليه مطلعاً عليه، يراه جهرة عند مواقعة الذنب. لأن التوبة لاتصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له. فتوبته دخوله في الإسلام، وإقراره بصفات الرب جل جلاله، إذ حقيقة التوبة: الرجوع إلي الله. ولايصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق. ومعرفة أنه كان فاراً من ربه، أسيرا فى قبضة عدوه. وأنه ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه، وجرأته عليه. فلابد أن يعرف كيف جهل؟ ومتى جهل؟ وكيف وقع أسيراً، ومتى وقع؟ ويؤمن أن التوبة إنما هى عملية شاقة بمجهود كبير، ويقظة تامة للتخلص من العدو والرجوع والفرار إلي ربه الرحمن الرحيم. والعود من طريق الهلاك الذى أخذه عدوه إليه، ومعرفة مقدار الخطوات التى يَعُد بها عن ربه، والمجهود والعقبات التى لابد من الحرص على اقتحامها للعود إلى صراط الله المستقيم.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم. والإقلاع. والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هى الندم على ما سلف منه في الماضى. والإقلاع عنه فى الحال. والعزم على أن لايعاوده فى المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذى تقع فيه التوبة: فإنه فى ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم فحينئذ يرجع إلي العبودية التى خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به. وإصراره عليه. وفى المسند «الندم توبة».

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار فإنه من تمام التوبة أيضاً، ولا نقصد به الاعتذار الذى هو محاجة عن الجناية، بل بأن يقول فى قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لى من ذنب فاعتذر. و لاقوة لى فانتصر، ولكنى مذنب

مستغفر. اللهم لا عذر لى، وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتى، فإن عفوت وإلا فالحق لك.

فهو اعتذار بإظهار الضعف والمسكنة، وإنه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس الأمارة بالسوء والقول بلسانه: يارب: لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلا به، ولا إنكارا لإطلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً فى مغفرتك واتكالا على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعا فى سعة حلمك ورحمتك. وغرنى بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخى عليّ، وأعاننى جهلى، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك. ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة: وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق له.

حقائق التوبة

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له إذا خولفت أوامره وعدم الاعتذار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه.

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس– مثلا– لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنهُ دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه. لايتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها، وأنها توبة علة وهو لايشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله. فتاب للحال، لا خوفا من ذى الجلال. أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التى تقدم في كون التوبة خوفا من الله، وتعظيما له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضا: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، وتذكر

حلاوة مواقعته. فربما تنفس، وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بانه قد تاب، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لايستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان عليه قبلها.

ومنها: أنه لايزال الخوف مصاحباً لايأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿ **أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾[فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿ **لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لايشبهها شئ. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا حب مجرد. وإنما هى أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدى ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

فليس شئ أحب إلى الله من الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال: «**أسألك بعزك وذلى إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لى سيد سواك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وابتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه**».

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى

تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشئ أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قدر.. وخيار

وأما الغيرة لله تعالى عند مخالفة الناس لأوامره وعدم الاعتذار عنهم بالقدر فلأن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر. فلا أحد أحب إليه العذر من الله. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، إزالة لأعذار خلقه. لئلا يكون لهم عليه حجة.

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه، ولله الحجة البالغة.

والثابت: إنه لا عذر لأحد ألبتة في معصية الله، ومخالفة أمره. مع علمه بذلك، وتمكنه من الفعل والترك. ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم. لا في الدنيا ولا فى العقبى، ومن ادعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه لم يستطع دفعه فهو ظالم جاهل، ولولا جهله وظلمه لعلم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وإنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. و﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾ [العاديات: ٦]. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «كفور جحود لنعم الله» وقال الحسن «هو الذى يعد المصائب. وينسى النعم» وقال أبو عبيدة «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التى لا نبيت بها وقيل: التى لا تنبت شيئا من المنافع، وقال الفضل بن عباس: «الكنود الذى أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

ولولا جهله لعلم أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه، فهو الحجر فى طريق الماء الذى به حياته. وهو السِّكْرْ الذى قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه، ويستغيث مع ذلك: العطش العطش، وقد وقف فى طريق الماء. ومنع وصوله إليه. فهو حجاب قلبه عن سر غيبه. هو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب. فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ فى نكايته وعداوته منه.

ما تبلغ الأعداء من جاهل　　　ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتباً له ظالما فى صورة مظلوم، وشاكياً والجناية منه. قد جد فى الإعراض وهو ينادى : طردونى وأبعدونى.

يأخذ الشفيق بحجزته عن النار. وهويجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها، ويستغيث: ما حيلتى؟ وقد قدمونى إلى الحفيرة وقذفونى فيها. والله كم صاح به الناصح: الحذر الحذر، إياك إياك، وكم

أمسك بثوبه. وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصما لله مع نفسه، جبرى المعاصي، قدرى الطاعات، عاجز الرأى مضياع لفرصته، قاعد عن مصالحه، معاتب لأقدار ربه، يحتج على ربه بما لايقبله من ولده وامرأته. إذا احتجوا به عليه فى التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شئ فارتكبه، وقال: القدر ساقنى إلى ذلك. لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل فى ترك حق ربك، فهلا كان حجة لامرأتك فى ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيئ، وجنى عليك جان، واحتج بالقدر: لاشتد غضبك عليه. وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة. ثم تحتج على ربك به. وتراه عذراً لنفسك؟ فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس: أزاح عللك، ومكنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به، وماتحارب به قطاع الطريق عليك. فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله. وأنزل إليك كتابه، ويسّره للذكر والفهم والعمل. وأعانك بمدد من جنده الكرام، يثبتونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لاتميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم، وموالاته دونهم. بل تظاهره وتواليه دون وليِّك الحق الذى هو أولى بك. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

أمرك الله بشكره، لالحاجته إليك، ولكن لتنال به المزيد من فضله، فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنك.

وأمرك بذكره ليذكرك بإحسانه، فجعلت نسيانه سبباً لنسيان الله لك ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾

أمرك بسؤاله ليعطيك، فلم تسأله، بل أعطاك أجلّ العطايا بلا سؤال، فلم تقبل.

تشكو من يرحمك إلى من لايرحمك، وتتظلم ممن لايظلمك، وتدع من يعاديك ويظلمك، وإن انعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه على معاصيه!.

دعاك إلى بابه فما وقفت عليه وطرقته، ثم فتحه لك فما ولجته!

أرسل إليك رسوله يدعوك إلى دار كرامته، فعصيت الرسول، قلت: لا أترك ما أراه لشئ سمعت به.

ومع هذا فلم يؤيسك من رحمته. بل قال: «متى جئتنى قبلتك. إن أتيتنى ليلاً قبلتك. وإن

أتيتني نهاراً قبلتك. وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً. وإن تقربت منى ذراعاً تقربت منك باعاً. وإن مشيت إليّ هرولتُ إليك. ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لاتشرك بي شيئاً. أتيتك بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟

عبادي يبارزونني بالعظائم، وانا أكلؤهم على فُرشهم، إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر سواى. خيرى إلى العباد نازل. وشرهم إليّ صاعد. أتحبب إليهم بنعمى، وأنا الغنى عنهم. ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر شئ إليّ.

من أقبل إليّ تلقيته من بعيد. ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد. ومن أراد رضاى أردت ما يريد. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد.

أهل ذكرى أهل مجالستى. وأهل شكرى أهل زيادتى. وأهل طاعتى أهل كرامتى. وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إليّ فانا حبيبهم. فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين. وإن لم يتوبوا إليّ فانا طبيبهم. ابتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب.

من آثرنى على سواى آثرته على سواه، الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عندى بواحدة. فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل. وأغفر الكثير من الزلل. رحمتى سبقت غضبى، وحلمى سبق مؤاخذتى. وعفوى سبق عقوبتى. أنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته بأرض مهلكة دويَّة عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى إذا أيس من حصولها. نام فى أصل شجرة ينتظر الموت. فاستيقظ فإذا هى على رأسه. قد تعلق خطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»**.

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه، ومحبة وبرا به. لايتكثر به من قلة، ولا يتعزز من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة، ولايعده لنائبة، ولايستعين به فى أمر **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾** [الإسراء: ١١١] فنفى أن يكون له ولىّ من الذل. والله ولى الذين آمنوا. وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد. وهم يقيمون أعذار أنفسهم. ويحملون ذنوبهم على أقداره.

استأثر الله بالمحامد والمجـ ـد، وولى الملامة الرجلا

التحقيق: أن الغيرة لله، والغضب له، من حقائق التوبة. فتعطيل عذر الخليقة فى مخالفة الأمر

والنهى، وشدة الغضب: هو من علامات تعظيم الحرمة، ومن حقائق التوبة:

ولاسيما أنه يدخل فى العذر: عذر عباد الأصنام والأوثان، وقتلة الأنبياء. وفرعون وهامان، ونمرود بن كنعان ، وأبى جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعد حدود الله، ومنتهك محارم الله. فإنهم كلهم تحت القدر. وهم من الخليقة.

وإن التائبين حقاً، المؤمنين بالقدر حقاً، هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الربانى، فلما قربت منهم ناداهم الربان ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١] فهى سفينة نوح حقاً. وسفينة من بعده من الرسل. من ركبها نجا. ومن تخلف عنها غرق. فركبوا سفينة الأمر بالقدر. تجرى بهم فى تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف فى البحار. فلم يك إلا غفوة، حتي قيل لأرض الدنيا وسمائها: يا أرض ابلعى ماءك، ويا سماء أقلعى، وغيض الماء. وقضى الأمر. واستوت على جودى دار القرار.

والمتخلفون عن السفينة– كقوم نوح– اغرقوا. ثم أحرقوا. ونودى عليهم على رؤوس العالمين: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ [هود:١٠٢] ثم نودى بلسان الشرع والقدر، تحقيقاً لتوحيده. وإثباتاً لحجته. وهو أعدل العادلين :﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ندفع القَدَر بالقَدَر

وراكب هذا البحر فى سفينة الأمر، وظيفته: مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين، وهو معني قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى: «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا. فانفتحت لى فيه رَوْزَنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون مستسلماً مع القدر» ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم؟.

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة– وهى من قدره– بالحسنة– وهى من قدره– وكذلك الجوع من قدره. وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتى مات: مات عاصياً. وكذلك البرد والحر والعطش. كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبى ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: **«يارسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقى بها، وتقى نتقى بها. هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هى من قدر الله»**.

وفي الحديث الآخر «إن الدعاء والبلاء ليَعْتلجان بين السماء والأرض».

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله. أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله. وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قدرت عليك، وفعلتها بالقدر. فادفع موجبها بالتوبة النصوح، وهى من القدر.

ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه- ولما يقع- بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله. ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثانى: دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوى، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة. ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز.

شروط ثلاثة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التَّقيَّة من العزَّة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة. لأن التائب داخل فى «الجميع» من قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] فأمر التائب بالتوبة مما خالط توبته من شوائب الإدلال بها.

وتمييز التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لايريد بذلك عز الطاعة. فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً. فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك. ولايميزه إلا أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين فى الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً. فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: ذكر الجفا في وقت الصفا جفا.

ومنهم: من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه. بل لايزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت. فيحدث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً، أنفع له من صفاء وقته.

قالوا: ولهذا نقش داود الخطيئة في كفه. وكان ينظر إليها ويبكى.

قالوا: ومتى تهت عن الطريق فارجع إلي ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: إنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت وأطرقت بين يدى الله عز وجل، خاشعاً ذليلاً خائفاً. وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل فى هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيماً من الدعوى. ورقيقة من العجب ونسيان المنة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له. وإن كان في حال مشاهدته منة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته، وقد خالط قلبه حال المحبة، والفرح بالله. والأنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه، وعفوه. وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات. فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب: أولى به وأنفع، فإنه متى رجع إلي ذكر الجناية تواري عنه ذلك. ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له. أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة.

وبعد هذا: يتوب من رؤية التوبة. فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته. ولو خلى ونفسه لم تسمح بها ألبتة. فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به. وغفل عن منة الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة.

وقد يكون فى التوبة علة ونقص، وآفة تمنع كمالها. وقد يشعر صاحبها بذلك. وقد لايشعر به. فيتوب من نقصان التوبة، وعدم توفيتها حقها، والمقدار المفقود هو الذى يحتاج أن يتوب منه.

الحليم العادل.. سبحانه

ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء: أن ينظر الجناية التى قضاها الله عليه فيعرف مراد الله فيها .إذ خلاَّك وإتيانها، فإن الله عز وجل إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين.

أحدهما: أن يعرف عزته فى قضائه، وبره في ستره، وحلمه فى إمهال راكبه، وكرمه فى قبول العذر منه، وفضله فى مغفرته.

الثانى: أن يقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته.

وتفصيل ذلك أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور.

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والإقرار على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلي الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفا وخشية، تحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلي تمكين الله منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته،وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لاتحصل بدون لوازمها البتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها فى الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لابد منه.

وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: أن يعرف العبد عزته فى قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بان قلّب قلبه وصرّف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه. وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذ لايقدر على ذلك إلا الله. وغاية المخلوق: أن يتصرف فى بدنك وظاهرك. وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاءه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته فى قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيرِه، لا عصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، فى قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضاً فى قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البَرُّ» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة هذا البر والإحسان

والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة. فيبقى مع الله سبحانه. وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته. فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً، بل فى هذه الحال. فإذا فقدها ليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذكر الجناية، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لعاجله بالعقوبة. ولكنه الحليم الذى لايعجل. فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه بإسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الإسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه، فيقبل عذره بكرمه وجوده. فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك. فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك علي شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك. فعبودية التوبة بعد الذنب لون. وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله فى مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله. وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محموداً. وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك. فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبداً بمقتضاها. وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية. ولو قدرت لقالت كقول فرعون. ولكنه قدر فاظهر. وغيره عجز فاضمر. وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية. وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله. فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه، فقراء إليه. وهو وحده الغنى عنهم. وكل أهل السموات والأرض يسألونه. وهو لا يسأل أحداً.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية. وهو ذل الاختيار. وهذا خاص بأهل طاعته. وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب. فليس فى   حكم الهوى آنف يشال ويعقد

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم. إذ يذل له خوفاً وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقراً وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقر الذى يشير إليه القوم. وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر. بل هو لب العبودية وسرها. وحصوله أنفع شئ للعبد، وأحب شئ إلى الله.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم «الرزاق» يقتضي مرزوقاً. واسم «الرحيم» يقتضي مرحوماً. وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه. حيث يقول: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»**.

وأنت إذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات. ودلهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرَّفهم به ودلهم عليه ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٢]

الرحيم.. سبحانه

ومنها: السر الأعظم، الذى لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمأنينة وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره. وشهوداً لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافاً على حقيقة الإلهية. وهو ما ثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ : **«لله أفرح بتوبة عبده- حين يتوب إليه- من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال- من شدة الفرح- اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»** هذا لفظ مسلم.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لاينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه. ولايطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله. وشرفه. وخلقه لنفسه، وخلق كل شئ له. وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته- الذين هم أهل قربه- استخدمهم له. وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته. وأنزل إليه وعليه كتبه. وأرسله وأرسل إليه. وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار. وجعلهم معدن أسراره. ومحل حكمته. وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني. فإنه خلاصة الخلق. وهو المقصود بالأمر والنهي. وعليه الثواب والعقاب.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات. وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شئ. وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدواً له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه. وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به. ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته. ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوباً له. وأعدَّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقر به إليه. ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه. قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق. واستقطع عباده، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم. وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه. ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه. ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذي. ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم. ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه. فعرّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم. وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين. وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته. وأنه قد أفاض على خلقه النعمة. وكتب على نفسه الرحمة. وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر. وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود

كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً. ويغمرهم إحساناً وجوداً. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبته للجود والإعطاء والإحسان والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم. وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ماهو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شان الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه. ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته. فجوده العالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذى خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه. وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدى. فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه. ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التى هى أحب شئ إليه. وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه رأى في بعض السكك باباً قد فتح وخرج

منه صبى يستغيث ويبكى. وأمه خلفه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه ودخلت. فذهب الصبى غير بعيد، ثم وقف مفكراً. فلم يجد له مأوى غير البيت الذى أخرج منه، ولا من يؤيه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً. فوجد الباب مرتجاً، فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكى. وتقول: يا ولدى، أين تذهب عنى؟ ومن يؤيك سواى؟ ألم أقل لك: لا تخالفنى، ولا تحملنى بمعصيتك لى على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتى الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لاتحملنى بمعصيتك لى على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله ﷺ : **«لَلَّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها»** وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التى وسعت كل شئ؟

فإذا اغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ماهو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهى بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبوداً: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر، وهو سبحانه يحب أن يُعبد ويطاع ولايعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية. فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خلق عبثاً لغير شئ، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذى وضع فيها. بل قلبته شوكاً ودغلاً. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلي مقتضي الحكمة التى خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل. فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. فأوجبت

هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يقدر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده. وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشئ وغاب عنه. ثم وجده وصار طوع يده. فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدوسيسومه سوء العذاب. ويعرضه لأنواع الهلاك. وأنت أولى به منه. وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد فلم يفجاك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟

هذا. ولست الذى أوجدته وخلقته . وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذى أوجد عبده. وخلقه وكونه. وأسبغ عليه نعمه. وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهراً لنعمه، قابلاً لها، شاكراً لها، محباً لوليها، مطيعاً له عابداً له، معادياً لعدوه، مبغضاً له عاصياً له. والله تعالي يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده. فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه. ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح.

وفى صفة النبى ﷺ فى بعض الكتب المتقدمة «عبدى الذى سُرَّت به نفسى» وهذا لكمال محبته له، جعله مما تسر به نفسه سبحانه.

ومع الفرح.. ضحك أيضاً

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين ياتى من عبوديته باعظم ما يحبه.

فيضحك سبحانه فرحاً ورضا. كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو. فاقبل إليهم. وباع نفسه لله ولَقَّاهم نَحْره، حتى قُتل فى محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه ، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً، حيث لايراه إلا الله الذى أعطاه. فهذا الضحك منه حباً له. وفرحاً به، وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة. فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

وهو «فرح» ليس كمثله شئ، و«ضحك» ليس كمثله شئ، نؤمن بهما لورودهما فى نص الحديث كايماننا بسائر صفات الله التى اثبتتها النصوص.

العقوبة بعد إقامة الحُجّة

أما أن الله عز وجل خلّى بين العبد والذنب من أجل أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته، فمغزاها أن اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لايعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الملك: ٨، ٩] وقال: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود: ١١٧].

وفى الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه. والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أى إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من ظلم.

وعلى القول الثانى إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون، فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان فى آية الأنعام أيضاً: ﴿ **ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال الله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ⑥⑨ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ⑦⓪** ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حى قابل للانتفاع، يقبل الإنذار وينتفع به. وميت لايقبل الإنذار ولاينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءنى رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لايؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ٣٣] وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التى حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [الزمر: ٧١] وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب

كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم. لا مع مراد أنفسهم، مع علمه بموت قلوب بعضهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم.

نفس معيبة.. ورب متفضل

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلي أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهى. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محال الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، فيعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها بها عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها ويزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه ربها ومولاها، وأن لايكله إليها طرفة عين. فإنه إن وكله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلي نفسه. وقال النبى ﷺ لحصين بن المنذر: «قل: «اللهم ألهمنى رشدى، وقنى شر نفسى» وفي خطبة الحاجة «الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] وقال: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبعت عليه: علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] وهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها، ولكن هو الله الذى مَنّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٨] «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه.

اللطيفة الثانية من أسرار التوبة: أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال. لأنه يسير بين مشاهدة المنة. وتطلب عيب النفس والعمل، فإن من له بصيرة بنفسه،

وبصيرة بحقوق الله. وهو صادق في طلبه: لم يبق له نظره في سيئاته حسنة البتة. فلا يلقي الله إلا بالإفلاس المحض، والفقر الصرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خلص له عمل وحال مع الله. وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه به، ومجرد فضله. وأنه ليس من نفسه، ولا هى أهل لذاك. فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى تطلبها رآها.

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار: **«اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت. خلقتنى، وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك عليّ. وأبوء بذنبى. فاغفر لى. إنه لايغفر الذنوب إلا أنت»**.

فتضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته. لا مهرب له منه. ولا ولى له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده- وهو أمره ونهيه- الذى عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتى، لا بحسب أداء حقك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب. فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك. فإنك إن لم تُعِذْنى من شره، وإلا حاطت بى الهلكة. فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك والتزم بنعمتك عليّ. وأقر والتزم وأبخع بذنبى. فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومنى الذنب والإساءة. فأسألك أن تغفر لى بمحو ذنبى، وأن تعفينى من شره، إنه لايغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية. فأى حسنة تبقي للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

الشيطان ملحاح بطئ اليأس

النظر الرابع: نظره إلى الآمر له بالمعصية. المزين له فعلها، الحاض له عليها. وهو شيطانه الموكل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة. والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لايشعر. فإنه يريد أن يظفر به فى عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لاينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولي: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به فى هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهى عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد لما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة فى الدين، التى لا يقبل الله منها شيئاً. والبدعتان فى الغالب متلازمتان. قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضي عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه علي:

العقبة الثالثة: وهى عقبة الكبائر. فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه. وسوف به. وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه أعمال الفسوق والعصيان، فإن الشيطان يقول له- عند فتح باب الإرجاء- إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصى. وهذا هو معنى الارجاء الذى هو شر البدع التى أفسدت الدين، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهى قوله: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لاينفع مع الشرك حسنة» والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لايتوب منها. ولايرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة. ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة. وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله. واعتبارها ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه. ونفي ما أثبته. وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقائق بجعل الحق باطلا والباطل حقا، والإلحاد فى دين الله، وتعمية الحق على القلوب. وطلب العوج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين. كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لايقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون فى ظلمة العمى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهى عقبة الصغائر فيقول له: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بانها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات. ولايزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها. فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار. وقد قال ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض. فأعوزهم الحطب. فجعل هذا يجئ بعود،**

وهذا بعود. حتى جمعوا حطباً كثيراً. فأوقدوا ناراً. وأنضجوا خبزتهم. فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه».

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. واتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة. وهى عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها. فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات. وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده. ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلي ترك السنن. ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. واقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة. والمنازل العالية. ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات. ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونورهاد. ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشترى، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته وضمن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح. طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمره بها. وحسنها في عينه. وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً. لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع فى تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضى عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد فى العالم، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها فى الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها، فإن فى الأعمال والأقوال سيدا ومسودا ورئيسا ومرؤوسا، وذروة وما دونها، كما فى الحديث الصحيح **«سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت- الحديث»** وفي الحديث الآخر: **«الجهاد ذروة سنام الأمر»** ولايقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذى حق حقه.

عبودية المراغمة

فإذا نجا مما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهى عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد

واللسان والقلب، علي حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله. وظاهر عليه بجنده. وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له فى التخلص منها. فإنها كلما جد فى الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به. فهو فى هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب. وأخذ فى محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين. وهى تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شئ أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً** ﴾ [النساء: ١٠٠] سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١٢٠) ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال تعالى فى مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ [الفتح: ٢٩] فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبى ﷺ للمصلى إذا سها فى صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان**» وفى رواية «**ترغيما للشيطان**» وسماهما «**المرغمتين**».

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المرغمة. ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لايراه إلا الله. لما فى ذلك من إرغام العدو. وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس. ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان. وعليه التكلان. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح. فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لاتستهزئ بها. فلعلك لا تظفر بها فى مصنف آخر ألبتة. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق.

الفطرة تأبى القبائح

أما اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة، ففى أن يرى التائب قبح ما نهى الله عنه، وحسن ما أمر به، وأنه كان مفسداً حين ركب ما نهاه الله تعالى عنه، مفوتاً لمصلحة حين قصر في تنفيذ ما أراده الله منه، وإن الله تعالى ما نهى إلا عن أمر قبيح بالذات، وما أمر إلا بأمر حسن الذات، فإن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر. وفطرهم على استقباح أضدادها. ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامهم، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم. وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة. فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره.

من أدلة ذلك قوله تعالى ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)**﴾ [الأعراف: ٢٨- ٣٣] فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه. وأمر باجتنابه بأخذ الزينة. و«الفاحشة» ههنا هى طوافهم بالبيت عراة- الرجال والنساء- غير قريش ثم قال تعالى: «إن الله لايأمر بالفحشاء» اى لايامر بما هو فاحشة في العقول والفطر، إذ كانت قريش هى التى تقوم بتطويف الحجاج والمعتمرين، وقيادتهم فى كل مناسك الحج وشعائره. ويأخذون منهم ما يعيشون به، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾ [إبراهيم: ٣٧] فرزقهم الله ما أهوت إليهم أفئدتهم، ولكن أكثرهم لم يقم الصلاة كما أحب الله، ولا شكرا لله. بل كفروا، واتخذوا الآلهة والأنداد من الموتي، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين. وكان الشيطان مولاهم من دون الله. فقلل فى أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق. وأوحى إليهم أن يشرعوا للناس بدعة فاحشة: أن لايطوف أحد بالبيت إلا فى ثياب من عند قريش، وهم الحمس وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقى تحت أقدام الطائفين حول الكعبة. فانقاد الناس لهم بالتقليد وأصبح مورداً لقريش يتحكمون به فى الناس كما يشاءون. ثم أوحى إليهم أن يزيدوا في الأثمان كلما رأوا إقبال

الناس، حتى عجز أكثر الناس. وطلبوا من السادة المستكبرين الرخصة عن الثمن. فقالوا: لابد من ذلك، وإلا فطوفوا عراة، فطافوا عراة.

ثم قال: «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده. والطيبات من الرزق؟» دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة.

ثم قال: «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن» فهى فواحش قبل التحريم وبعده، والشارع كساها بنهيه عنها قبحاً إلى قبحها. فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحا عند العقل بنهى الرب تعالي عنها، وذمه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر: حسن في نفسه، وازداد حسنا إلي حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فالمدح والثناء والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفاً. وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً. وما يحله تشهد كونه طيبا. وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً. وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وهى بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين. والكذابين والسحرة. فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغى وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب– وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ– عن أى شئ أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك علي أنه رسول الله؟ قال: « ما أمر بشئ فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شئ، فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلّ شيئاً. فقال العقل: ليته حرمه. ولا حرّم شيئاً، فقال العقل: ليته أباحه» فانظر إلى هذا الأعرابى، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل. وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه.

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أى لغير شئ لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر فى الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولايحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهى، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهى والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جوّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى مالا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فأنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيئ. والحاكم به مسيئ ظالم.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح فى نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه. وأنه لايليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في إلهيته، بالبراهين الدالة على قبحه فى صريح العقول والفطر؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم؟ وأى شئ يصح فى العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتي، وأن العلم بقبحه بَدَهيّ معلوم بضرورة العقل، وأن الرسل نبهوا الأمم على ما في عقولهم وفطرهم من قبحه، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة. بل نفي عنهم السمع والبصر. والمراد: سمع القلب وبصره. فأخبر أنهم صم بكم عمى. وذلك وصف قلوبهم أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق. وشبههم بالأنعام التى لاعقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح، والحق والباطل. ولذلك اعترفوا في النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل. وأنهم لو رجعوا إلى اسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ما جاءت به الرسل وقبح مخالفتهم.

قال الله تعالى حاكيا عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وكم يقول لهم فى كتابه ﴿أفلا تعقلون؟﴾ ﴿لعلكم تعقلون﴾. فينبههم على ما فى عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح. ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلى وحسى ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم: ٢٨] يحتج سبحانه عليهم بما فى عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضي بذلك. فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادى؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر فى العقول والفطر والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩] احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول

من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذى قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لايستويان.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ممثلا لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنّ والأذى المبطل للصدقات بـ «الصفوان» وهو الحجر الأملس «عليه تراب» غبار قد لصق به «فاصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلدا» أملس لا شئ عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ «الصفوان» وهو الحجر. كقلب المرائى والمان والمؤذى. و«التراب» الذى لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته. و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض. فإذا صادفها لينة قابلة: نبت فيها الكلأ وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئاً. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذى على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله. فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر فى العقول. فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالي: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فإن كانت هذه الجنة- التى بموضع عال، حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضعفى ما يخرج غيرها- إن كانت مستحسنة فى العقل والحس، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثبات من نفسه، وقوة على الإنفاق، لايخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الانفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين: كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته. وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه. أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التى

تحبط ثواب الحسنات وشبهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء، بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه. وله بستان هو مادة عيشة وعيش ذريته. فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات. فأرجي وأفقر ما هو له وأسر ما كان به إذ أصابه نار شديدة فأحرقته. فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال. وبهذا فسرها عمر، وابن عباس رضي الله عنهم: «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانا. فبعث الله له الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل؟

ثم هؤلاء الفقهاء: يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم. ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة. والمفاسد التي هي كذلك. ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما. ويدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما. ولايتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال.

يشاء الله السوء ولا يرضاه

وهذه اللطيفة الثالثة من أسرار التوبة التي يتضح فيها الحسن والقبح تقتضي رؤية الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيئته وإرادته الكونية، وعدم التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما، كما فعل الجبرية الذين قالوا: المشيئة والمحبة سواء، أو متلازمان، وإن كل ما شاءه الله فقد أحبه ورضيَه، وقالوا: إن الأفعال جميعها محبوبة للرب، إذ هي صادرة عن مشيئته، وهي عين محبته ورضاه، فلزم من ذلك أن صار أن حدهم لايستقبح سيئة، ولا يستنكر منكرا.

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر: ٧] وقوله: ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨] والتبس عليهم كيف يكون مكروها له. وقد أراد كونه؟ وكيف لا يحبه، وقد أراد وجوده؟ أولوا هذه الآيات ونحوها بأنه لايحبها ديناً. ولايرضاها شرعاً. ويكرهها كذلك، بمعنى أنه لايشرعها، مع كونه يحب وجودها ويريده.

ثم بنوا علي ذلك أنهم مأمورون بالرضا بالقضاء. وهذه قضاء من قضائه. فنحن نرضي بها. فمالنا لإنكارها ومعاداة فاعلها. ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء؟ فتركب من اعتقادهم: كونها محبوبة للرب، وكونهم مأمورين بالرضا بها، والتسوية بين الأفعال، وعدم استقباح شئ منها أو إنكاره.

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها، وأنها ليست فعله.

فلزم من ذلك: رفع الأمر والنهى، وطى بساط الشرع، والاستسلام للقدر، والذهاب معه حيث كان.

فمنشأ الغلط: التسوية بين المشيئة والمحبة، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء. ونحن نبين ما فى الفصلين إن شاء الله تعالى. فإن القوة لله جميعا.

فأما المشيئة، والمحبة: فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة، والعقل، والفطرة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [النساء: ١٠٨] فقد أخبر أنه لا يرضي بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت ورمى البرئ، وشهادة الزور، وبراءة الجانى. فإن الآية نزلت فى قصة هذا شأنها، مع أن كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

وتأويل من تأول الآية على أنه لايرضاه ديناً، مع محبته لوقوعه: مما ينبغى أن يصان كلام الله عنه. إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له. ولكن لايثاب فاعله عليه. فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعاً.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدراً وشرعاً، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فإنه يخلق ما يحب ويكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها ما يبغضه ويكرهه- كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة- وفيها ما يحبه ويرضاه- كأنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه- وهكذا الأفعال كلها خلقه. ومنها ما هو محبوب له وماهو مكروه له، خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان. وقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥] مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى: ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ [الزمر: ٧] فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره. وأحدهما محبوب له مرضي. والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله عقيب ما نهي عنه من الشرك والظلم والفواحش ﴿ **كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴾ [الإسراء: ٣٨] فهو مكروه له، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال. وكثرة السؤال. وإضاعة المال**» فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة.

وفى المسند «**إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته**» فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين. اجتمعا فى المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة. وهذا في الكتاب والسنة أكثر

من أن يذكر جميعه.

وقد فطر الله عباده على قولهم: هذا الفعل يحبه الله، وهذا يكرهه الله ويبغضه وفلان يفعل مالايحبه الله. والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه. وذلك صفة قائمة به، يترتب عليها العذاب واللعنة. لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما. ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾[النساء: ٩٣] ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته. وجعل كل واحد غير الآخر.

وكان من دعاء النبى ﷺ: «**اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**».

فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة «الرضا» من صفة «السخط» وبفعل «المعافاة» من فعل «العقوبة» فالأول: للصفة، والثاني: لأثرها المترتب عليها. ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده. لا إلي غيره. فما أعوذ منه: واقع بمشيئتك وإرادتك. وما أعوذ به: من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، وإن شئت أن ترضي عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه. فإعاذتى مما أكره وأحذر، ومنعه أن يحل بى: هو بمشيئتك أيضاً. فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك. فعياذى بك منك: عياذى بحولك وقوتك، وقدرتك ورحمتك وإحسانك، مما يكون بحولك وقوتك وقدرتك وعدلك وحكمتك. فلا أستعيذ بغيرك من غيرك. ولا أستعيذ إلا بك من شئ هو صادر عن مشيئتك وخلقك. بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذى تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك. فاعوذ بك منك.

ولايعلم ما في هذه الكلمات- من التوحيد والمعارف والعبودية- إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته.

وأشرنا إلى شئ يسير من معناها. ولو استقصينا شرحها لقام منه سفر ضخم. ولكن قد فتح لك الباب. فإن دخلت رأيت مالا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر.

والمقصود: أن انقسام الكون في أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضي له، ومسخوط مبغوض له، مكروه له: أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة، من العقل والنقل، والفطرة والاعتبار، فمن سوى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التى فطر عليها عباده. وخالف المعقول

والمنقول وخرج عما جاءت به الرسل.

ولأى شئ نوع الله سبحانه وتعالى العقوبات البليغة في الدنيا والآخرة. وأشهد عباده منها ما أشهدهم؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته وبغضه له. فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه: وقوع أنواع المكاره بهم، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال ويرضاه: أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها. وشهود ما فى العالم من إكرام أوليائه، وإتمام نعمه عليهم، ونصرهم وإعزازهم، وإهانة أعدائه وعقوبتهم، وإيقاع المكاره بهم: من أدل الدليل علي حبه وبغضه وكراهته، بل نفس موالاته لمن والاه، ومعاداته لمن عاداه: هى عين محبته وبغضه. فإن الموالاة: أصلها الحب. والمعاداة: أصلها البغض. فإنكار صفة «المحبة، والكراهة» إنكار لحقيقة «الموالاة، والمعاداة».

وبالجملة: فشهود القلوب لمحبته وكراهته، كشهود العيان لكرامته وإهانته. وأما مسألة «الرضا بالقضاء» فيقال:

أولاً: بأى كتاب، أم بأى سنة، أم بأى معقول: علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره؟ بل بجواز ذلك، فضلا عن وجوبه؟ هذا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأدلة العقول ليس فى شئ منها الأمر بذلك، ولا إباحته.

بل من المقضي ما يرضي به، ومنه ما يسخطه ويمقته، فلا نرضى بكل قضاء كما لايرضى به القاضي لأقضيته سبحانه. بل من القضاء ما يسخطه، كما أن من الأعيان المقضية: مايغضب عليه، ويمقت عليه، ويلعن ويذّم.

ثم يقال: القضاء له وجهان

أحدهما: تعلقه بالرب تعالي، ونسبته إليه. فمن هذا الوجه: يرضى به كله.

الوجه الثاني: تعلقه بالعبد، ونسبته إليه. فمن هذا الوجه: ينقسم إلى ما يرضي به، وإلى مالا يرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس- له اعتباران. فمن حيث إنه قدّره الله وقضاه وكتبه وشاءه، وجعله أجلا للمقتول، ونهاية لعمره: يرضى به، ومن حيث إنه صدر من القاتل، وباشره وكسبه، وأقدم عليه باختياره، وعصي الله بفعله: يسخطه ولا يرضي به.

راقب عملك.. وناقش نفسك

ومن العابدين أناس توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات. دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما. ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها؛ ولو تفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق. لشغلهم ذلك عن

استكثارها. ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفاً عليه، فيستكثر منه، ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما في ذلك من شوك الرياء: وجد لعمله ثقلاً كالجبال وقل في عينه. ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها. وفهم ما أريد بكل آية، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة- أو أكثرها، أو ما قرأت منها- بسهولة وخفة. مستكثراً من القراءة. فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد، والنظر إلى مالايخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به. لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها. وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة: لم تكد أن تصلى غيرهما إلا بجهد. فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب. فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها دليل على قلة الفقه.

وقد يرى فاعلها أن له حقاً على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أعماله، لايدرى أنه لن ينجو أحد البتة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته.

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله، قليل المنفعة، دنيا وأخرى، كثير المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود. فإنه - وإن كثر- متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لايكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغى أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بها بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

ولكن أحب العباد إلى الله: الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لها، فقد ندب الله تعالي إلى ذلك فقال: ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾** ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبى ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد**» وقال لمن سأله أن يوصيه بشئ يتشبث به: «**لايزال لسانك رطباً من ذكر الله**».

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثاراً منها.

وفى الحديث الصحيح الإلهي: « **ما تقرب إليّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولايزال عبدى**

يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. فبى يسمع، وبى يبصر، وبي يبطش، وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه».

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

صغيرة المؤمن .. كبيرة

وأيضاً، فإن استقلال المعصية ذنب، كما أن استكثار الطاعة ذنب، والعارف من صغرت حسناته في عينه. وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله. وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قلت وصغرت عند الله. وسيئاتك بالعكس. ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية، تلاشت حسناته عنده. وصغرت جداً في عينه. وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه. وأن الذى يليق بعزته، ويصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها. لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه. فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله. ولو كانت أعمال الثقلين. وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غير عارف به وبما ينبغى له. وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه. وتعظم في عينه، لمشاهدته الحق ومستحقه. وتقصيره فى القيام به. وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

الوقوف .. رجوع

وتوبة الخواص تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو، فإنه يفضى إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه. بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل. إما إلي أمام وإما إلي وراء. وليس فى الطبيعة، ولا فى الشريعة وقوف ألبتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طى إلى الجنة أو إلي النار، فمسرع ومبطئ ومتقدم ومتأخر. وليس فى الطريق واقف ألبتة. وإنما يتخالفون فى جهة السير. وفى السرعة والبطء: **﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيراً لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)﴾** [المدثر: ٣٥ - ٣٧] ولم يذكر واقفا. إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد فى طلب شئ لابد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه، ويعدها

للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة فإن «لكل عمل شرة.. ولكل شرة فترة»

وأما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخَّره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب واشتد سعياً ليلحق الركب. وإن استمر مع داعى التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعى الهوى، حتى يرده إلي أسوأ منها وأنزل دركاً. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منها وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو فى تأخر إلى الممات. راجع القهقهرى، ناكص على عقبيه، أو مول ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة، أرفع منه وأخص. لايعرفه إلا الخواص المحبون، الذين يستقلون فى حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له. فهم أشد شئ احتقاراً لها وإزراء عليها. وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم، ولم يوفوه حقه، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها. فالتوبة لا تفارقهم أبداً. وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾[يوسف: ٧٦] وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه، وشهوداً لتقصيرهم. فعظمت لذلك توبتهم. ولذلك كان خوفهم أشد. وإزراؤهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم.

من أحكام التوبة

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة، تشتد الحاجة إليها، ولا يليق بالعبد جهلها.

منها: أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولايجوز تأخيرها. فمتى أخَّرها عصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى. وهى توبته من تأخير التوبة. وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شئ آخر. وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومالا يعلم. فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولاينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم. فإنه عاص بترك العلم والعمل. فالمعصية في حقه أشد. وفى صحيح ابن حبان: أن النبى ﷺ قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم**».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولايعلمه العبد.

وفى الصحيح عنه ﷺ: «**أنه كان يدعو فى صلاته: اللهم اغفر لى خطيئتي وجهلي، وإسرافى في أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى جدى وهزلى، وخطئى وعمدى. وكل ذلك عندى. اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت إلهى لا إله إلا أنت**».

وفى الحديث الآخر: «**اللهم اغفر لى ذنبى كله، دِقه وجلّه، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره**»

فعهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه ومالم يعلمه.

التوبة متجددة أبداً

ومن أحكام «التوبة» أنه: هل يشترط فى صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبدا، أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تبيناً أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط. وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإن كانت في حق آدمى: فهل يشترط تحلله؟ فيه تفصيل– سنذكره إن شاء الله– فإذا عاوده، مع عزمه حال التوبة على أن لايعاوده. صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل، وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مصرا؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية. فلا يعود إليه إثمه. وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفى هذا الأصل قولان:

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول، لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة.

قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر. والكافر إذا أسلم هدَم إسلامُه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه. فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة. كما ثبت في الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية. ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر**» فهذا حال من أسلم وأساء فى إسلامه. ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام. فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره. ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما. فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لاتسقط الإثم السابق. كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه.

قالوا: والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر. فوقتها مدة العمر. إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره. فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم. فإذا امسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات: بطل ما تقدم من صيامه. ولم يعتد به. وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه.

قالوا: ويدل على هذا الحديث الصحيح. وهو قوله ﷺ: «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفراً موجباً للخلود. أو معصية موجبة للدخول. فإنه لم يقل: «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنما أخبر: أنه يعمل بعمل يوجب له النار. وفى بعض السنن: «**إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة. فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار**» فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية والأعمال بالخواتيم.

فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات. وهذا قول المعتزلة. والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هى التى تحبط السيئات لا العكس. كما قال: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبى ﷺ لمعاذ: «**اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

قيل: والقرآن والسنة، قد دلا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض. ولايرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه – فعل أهل الهوى والتعصب– بل نقبل الحق

ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف (٨،٩) والأنبياء (٤٢) والمؤمنون (١٠١-١١١) والقارعة، والحاقة (١٩-٣٧)

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٣] وتفسير الإبطال ها هنا بالردة. لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فابطلاها. شبه سبحانه بطلانها- بالمن والأذى- بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» وقالت عائشة -رضي الله عنها- لأم ولد زيد بن أرقم- وقد باع بيع العينة- «أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ؛ إلا أن يتوب» وقد نص أحمد على هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه. فيستدين ويتزوج، لايقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة- أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص- جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن. فيلتقى العملان، ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعاً.

قالوا: وقد دل القرآن ، والسنة، وإجماع السلف على الموازنة. وفائدتها: اعتبار الراجح، فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح، قال ابن مسعود: «يحاسب الناس يوم القيامة. فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة. ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩] ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح».

واحتج الفريق الآخر- وهم القائلون بانه لايعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة- بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة مالم يعمله. وكأنه لم يكن. فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولايشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال. فإن الكفر له شأن آخر. ولهذا يحبط جميع الحسنات. ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات. فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات وهذا

باطل قطعاً. وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب، والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة، التي تقدمها الألوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن الخوارج كفروهم، والمعتزلة فسقوهم. وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**[النساء: ٤٠].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً إلى النبى ﷺ : **«إن الله يحب العبد المفتن التواب»**.

قلت: وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه. فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[آل عمران: ١٣٥] والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متي ظفر به. فهذا الذى يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط فى صحة كمالها ونفعها. لا شرط فى صحة ما مضى منها. وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة. فإن تلك عبادة واحدة. لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها. وأما التوبة: فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب. فكل ذنب له توبة تخصه. فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل. كما تقدم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر. فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟

بل نظير من صلى ولم يصم. أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة. فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر. فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضاً. بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر. ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر. فيكون من أهله. كما قال تعالى: **﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾**[آل عمران: ١٦٧] وقال: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[يوسف: ١٠٦] أثبت لهم الإيمان به،مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا

الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لاتخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفى. وشرك جلى. فالخفى قد يغفر. وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لايغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]

حُسن الخاتمة يحفظ ذخيرة العمر

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها. ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة عادت إليه حسناته. ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها. بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره: من عتاقة، وصدقة، وصلة. وقد قال حكيم بن حزام: «**يا رسول الله، أرأيت عتاقة أعتقتها فى الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحمى. فهل لى فيها من أجر؟ فقال: أسلمت على ما أسلفت من خير**» وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن. فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.

توبة القلب تامة

ومن أحكامها: أن العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزانى إذا جب، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده. ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

الأظهر: أن توبته صحيحة ممكنة، بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفى المسند مرفوعاً «الندم توبة» فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه. فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولاسيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله فى

الحديث الصحيح: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيما**» وفى الصحيح أيضاً عنه «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة. حبسهم العذر**» وله نظائر فى الحديث. فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهرا- مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه- منزلة التارك المختار أولى.

نتحلل الذى ظلمناه

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه. كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، قبل أن لايكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**».

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط فى توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولايشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام مَنْ قذفه وإعتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان في حد القذف، هل يشترط فى توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويُخرَّج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف فى مذهب الشافعي، وأبى حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم فى كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لاسيما إذا كان من الحق عارفا بقدره. فلابد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لاتسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله ﷺ: «**من كان لأخيه عنده مظلمة- من مال أو عرض فيتحلله اليوم**».

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقا لله، وحقا للآدمى. فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه. والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لايشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه. ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة. فإنه لايزيده إلا أذى وحنقاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه. فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضرراً فى نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فإن الذى يؤذيك منه سماعه وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه. فضلا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل. فلا يصفو له أبداً. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولِّدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. هذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين.

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه. فلايجوز إخفاؤها عنه. فإنه محض حقه. فيجب عليه أداؤه إليه. بخلاف الغيبة والقذف. فإنه ليس هناك شئ ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة. بل ربما سره ذلك وفرح به بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، من أنواع القذف والغيبة والهجو. فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد. وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت . والله أعلم.

إذا نزل بالذنب . . صعد بالتوبة

ومن أحكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ الصحيح: أن من التائبين من لايعود إلى درجته. ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب.

وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجدّه وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلي درجة. وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان منحطا عنها.

ويتبين هذا بمثلين مضروبين.

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعدو مرة ويمشى أخرى، ويستريح تارة وينام أخري. فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل، وماء بارد ومُقيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها، فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيده وكتفه ومنعه من السير. فعاين الهلاك. وظن أنه منقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه. فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف

على رأسه والده الشفيق القادر. فحلَّ كتافه وقيوده. وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد. واعلم أنك مادمت حاذراً منه، متيقظاً له لايقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعني على الأثر.

فإذا كان هذا السائر كَيِّساً فطناً لبيباً، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالاً آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه. ووصوله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان، وهو معرض لما عرض له أولاً.

وإن أورثه ذلك توانياً في سيره وفتوراً، وتذكراً لطيب مقيلة، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكوناً بقلبه إليه. لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: عبد في صحة وعافية جسم، عرض له مرض أوجب له حِمْية وشرب دواء وتحفظاً من التخليط. ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفا في القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة.

وفي هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما.

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول. لايلوى على شئ في طريقه. فعرض له رجل من خلفه جذب ثوبه وأوقفه قليلاً. يريد تعويقه عن الصلاة. فله معه حالان.

أحدهما: أن يشتغل به حتي تفوته الصلاة. فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه، ويتفلت منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال.

أحدها: أن يكون سيره جمزاً ووثباً، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة. فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورث تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً. فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت. فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

مفاضلة

ويتبين هذا بمسالة شريفة. وهى أنه: هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلي الله توبة نصوحاً، أو هذا التائب أفضل منه؟

اختلف فى ذلك

جمال البراءة

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً. واحتجوا بوجوه.

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله. وهذا الذى لم يعص أطوع. فيكون أفضل.

الثاني: أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق. فتكون درجته أعلى من درجته. وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه. وذلك في سير آخر فانى له بلحاقه؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله. فعمد أحدهما إلى كسبه فاضاعه، وامسك عن الكسب المستانف. والآخر مجد في الكسب. فإذا أدركته حمية المنافسة، وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئاً كثيراً. فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره. فأنَّى له بمساواته؟

الثالث: أن غاية التوبة أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها. فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه. فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح؟

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره. ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا. فالله لم يزل عنه راضيا. ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيا عنه ثم مقته، ثم رضي عنه. فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم. والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هى الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه. وربما أدَّيا به إلى التلف أو المرض أبداً.

السادس: أن العاصى على خطر شديد. فإنه دائر بين ثلاثة أشياء: أحدها: العطب والهلاك بشرب السم. الثانى: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك. والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيد.

والأكثر إنما هو القسمان الأولان. ولعل الثالث نادر جداً. فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطا حصيناً، لايجد الأعداء إليه سبيلا. فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبداً. والعاصى قد فتح فيه ثغراً، وثلم فيه ثلمة. ومكن منه السراق والأعداء. فدخلوا فعاثوا فيه يميناً وشمالاً: أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه، وقطعوا ثمراته، وأحرقوا في نواحيه، وقطعوا ماءه، ونقصوا سقيه. فمتى يرجع هذا إلي حاله الأول؟ فإذا تداركه قَيِّمه ولمّ شعثه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيراً، ولكن لا يلحق ببستان صاحبه الذى لم يزل علي نضارته وحسنه. بل فى زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

الثامن: أن طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمى جاهلاً. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصى الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وقال في حق غيره: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطمع فيه عدوه. وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً سيئاً ولابد: إما هلاكاً كلياً. وإما خسراناً وعقاباً، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان. وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع في الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة. فإنه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل فى تكفير السيئات. وأين هذا من هذا؟

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله. وكلما زادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم. وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانيا برأس ماله الأول وكسبه. فكسب عشرة أضعافه أيضاً. فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله. وكان ربحه كذلك، وهلم جرا. فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره، مرة واحدة فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وهذا معني قول الجنيد رحمه الله: «**لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان ما فاته أكثر مما ناله**» وهو صحيح بهذا المعنى. فإنه قد فاته فى مدة الإعراض ربح تلك الأعمال كلها. وهو أزيد من الربح المتقدم. فإذا كان هذا حال من أعرض، فكيف من عصى وأذنب؟ وفى هذا الوجه كفاية.

وللمستدرك جمال.. أيضاً

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه. واحتجت بوجوه.

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة

عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعدما فقدها، وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح فى شئ من الطاعات سوي التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما في حال التائب وقلبه، ومزيده لايعبر عنه. وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية. فيصير حبيبا لله. فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية. والله سبحانه أقر ب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» لأنه مقام ذلك وانكسار بين يدى ربه.

وتأمل قول النبى ﷺ. فيما يروى عن ربه عز وجل: «**أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمنى. قال: رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. ابن آدم، استسقيتك فلم تسقنى. قال: يارب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى. ابن آدم، مرضت فلم تعدنى. قال: يارب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتني عنده**» فقال فى عيادة المريض «**لوجدتنى عنده**» وقال فى الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندى» ففرق بينهما. فإن المريض مكسور القلب، ولو كان من كان، فلابد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا – والله أعلم– هو السر في استجابه دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه، وكذلك الصوم، فإنه يكسر ثورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف: «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل

بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى، ذكر ذنبه. فَيُحدِثُ له انكساراً ، وتوبة، واستغفاراً، وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجبا وكبرا ومنة. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً، باكياً نادماً، مستقيلاً ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة، وكبراً، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولاريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها، وبحاله على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك. فالله شهيد على ما في قلبه. ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويخضعوا له. ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً. ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه. متطلبا لعيبه في قالب حمية لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا. فتح له باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفى به عباده شره. وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلي عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة. ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال. كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه:

يا آدم، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كَيَسِك، فقد استخرج بها منك داء لايصلح أن تجاورنا به. وألبست بها حلة العبودية.

يا آدم إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى، وجودى وكرمي، على من عصاني **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**.

يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى من أجود بحلمى؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى، وتوبتى ، وأنا التواب الرحيم؟

يا آدم ، لا تجزع من قولى لك (اخرج منها) فلك خلقتها، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة. وابذر بذر التقوى. وأمطر عليه سحائب الجفون. فإذا اشتد الحب واستغلظ، واستوى على سُوقه، فتعال فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إليّ فى الصعود، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها، ما أخرجتك منها إلا لتعود .

يا آدم، ذنب تذل به لدينا، أحب إلينا من طاعة تُدلُّ بها علينا.

يا آدم، أنين المذنبين، أحب إلينا من تسبيح المدلّين.

«يا ابن آدم، إنك ما دعوتني، ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك. يا ابن آدم، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا. أتيتك بها مغفرة».

يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت، أن يعصمه ثم غلبته عيناه، فنام، فسمع قائلاً يقول: أنت تسألنى العصمة، وكل عبادى يسألوننى العصمة، فإذا عصمتهم فعلي من أتفضل وأجود بمغفرتى وعفوى؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوى ومغفرتى وفضلى؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، أمنت بى ولم تشرك بى شيئاً، أقمت حملة عرشى ومن حوله يسبحون بحمدى ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر: **«يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً. فمن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى»** ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (٥٣) ﴾ [الزمر: ٥٣]

يا عبدى لا تعجز. فمنك الدعاء وعليّ الإجابة. ومنك الاستغفار وعليّ المغفرة، ومنك التوبة وعليّ تبديل سيئاتك حسنات يوضحه:

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان: ٧٠] وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبى ﷺ فرح بشئ قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** (١) **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح: ١، ٢].

واختلفوا فى صفة التبديل، وهل هو في الدنيا، أو فى الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلي ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روي الترمذى في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا. وهو مقر لاينكر، وهو مشفق من كبارها فيقال: اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لى ذنوباً ما أراها ههنا»**. قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتي بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لايدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته. وهى أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا أشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلابد إذاً من دخول النار لأن الجنة لايكون فيها ذرة من الخبيث. ولايدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقى عليه شئ من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهى أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها. وهى الأصل. فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن التائب قد بدّل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التى حلت محله

وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها يوضحه:

الوجه الثامن: أن ذنب العارفين بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعا، وأحب إلي الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذلك وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله «**يبدل الله سيئاتهم حسنات**» ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فلهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما فى الحديث: فإن الذى عُذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه: ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين.

أحدهما: قوله «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع فى تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واغتباطاً.

والثانى: ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقَرَّر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الركيزة الجامعة

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لايعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه فى الماضى. وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع. وهو التحلل منه.

وهذا الذى ذكروه بعض مسمي «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله- كما تتضمن ذلك- تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، بل وتتضمن مقت من يتركه ومقاطعته. والتزام الأمر به والنهى عن تركه، فإن العمل الصالح- المشروط للتوبة، فى آية الفرقان- هو ضد ما كان يأتيه من السوء، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة. وهى اسم لمجموع الأمرين. لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهى كلفظة «التقوي» التى تقتضى عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور،وإن كان معناها أعم، إذ التقوى هى اتخاذ كل ما أعطى الله العبد- من عافية، ومال وولد، وليل ونهار، وغير ذلك- وقاية يتقى بها ما يكره ويخاف. فى سيره إلى ربه والدار الآخرة فإن الطريق كله عقبات، وأعداء من النفس الأمارة والهوى والشيطان-تتناوشه، وتجذبه، محاولة صده وإرجاعه وإهلاكه، وقد ابتلاه الله بكل ذلك. وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والنجاح. وذلك بحسن وضع النعمة من كل ذلك موضعه، فإن الهلاك إنما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها، بالجاهلية واتباع الهوى، وتغليب الشهوة البهيمية، والانسلاخ من آيات الله، واتخاذ الشيطان ولياً من دون الله.

إن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره. فهى رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها. والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[النور: ٣١] فكل تائب مفلح. ولايكون مفلحاً إلا من فعل ما أُمر به وترك ما نُهى عنه. وقال تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[الحجرات: ١١] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم. وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا. فالتائبون هم: ﴿ **الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾[التوبة: ١١٢] فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور وإنما سمى تائباً: لرجوعه إلي أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، بل لرجوعه إلى الله مولاه وحبيبه. وتخليصه نفسه من

عدوه. فإن عدوه يريده لشقائه. فيجذبه إليه بحبل الحيوانية وسفهها وجهلها وشهواتها. والله مولاه يريده لسعادته، وهو يتودد إليه بجميع ما يعطيه في نفسه وما سخر له، ويجذبه إليه بأسباب نعمه التى لا تحصي. ومن أقواها، آياته في الأنفس والآفاق، وسننه التى لا تتبدل. وما يوحى الله إلي رسله من الهدى والبصائر﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فإذن: «التوبة» هى حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

فإذن «التوبة» هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً أو باطناً إلي ما يحبه ظاهراً وباطنا. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن. وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها.

وأكثر الناس لايعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علماً وعملاً صالحاً ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

نفارق الباطل ثم نرجع إلى الحق

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح: ١٠، ١١] وكقول صالح لقومه:﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦] وكقوله تعالى:﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩] والمقرون كقوله تعالى:﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣] وقول هود لقومه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢] وقول صالح لقومه:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] وقول شعيب:﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠] فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لايغفر له.

ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لاتسمى مغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإن الله لايعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لايمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق.

ومع ذلك فلا مانع أن يكون معني الاستغفار طلب الغفر، وهو الستر، ستر العيوب والنقائض المهلكة الضارة وأكبر عيب الإنسان ونقصه: هو جهله وظلمه. فبخطام الجهل والظلم يجره العدو إلى ما يهلكه ويرديه، وسترهما إنما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يؤتيه الله ربه من العلم والعدل والإحسان. وكلما غفل العبد عن كرامته الإنسانية، التى نفخها الله فيه من روحه، أخلد إلى أرض البهيمية، فاشتد جهله وظلمه، وفضح نفسه. وكلما عنى بإنسانيته وغذاها بالتفكر فى آيات الله وسننه الكونية في نفسه وفي الآفاق، وتدبر آياته العلمية المرسل بها رسله، كلما غفر الله له وستر من عيوبه ونقصانه. وبهذا يفهم قول الله لرسوله ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] فإنه ﷺ لم يأت منكراً قط ولا عصي ربه قط ولا فسق عن أمره. وإنما هو ستر عيوب البشرية وجبلاتها بما أوتى من العلم والهدي الذى مكن له ربه به. من التحكم في هذه الطبائع البشرية، والإحسان بها وفيها. حتى كان الحكيم الرشيد عليه الصلاة والسلام.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فها هنا ذنبان: ذنب قد مضي. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لايفعله. والرجوع إلي الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضي، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤدى إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته. والتى توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فها هنا أمران لابد منهما: مفارقة شئ والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة . وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء- والله أعلم- الأمر بهما مرتباً بقوله: ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ فإن الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم.

التوبة النصوح

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [التحريم: ٨] فجعل وقاية شر السيئات- وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات- وهو حصول ما يحب العبد- منوطا بحصول التوبة النصوح. و« النصوح » على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشئ من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شئ واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبى ابن كعب رضي الله عنهما « التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لايعود إليه، كما لايعود اللبن إلى الضرع » وقال الحسن البصرى: « هى أن يكون العبد نادماً على ما مضي، مجمعاً على أن لايعود فيه » وقال الكلبى: « أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن » وقال سعيد بن المسيب: « توبة نصوحا تنصحون بها أنفسكم » جعلها بمعنى ناصحة للتائب كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أى قد نصح فيها التائب ولم يَشبْهَا بغش فهى إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل، أى ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظى: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان.

قلت: النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثانى: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لايبقى عنده تردد، ولا تَلَوُّم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء،أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص ، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه ، وتمحو جميع الذنوب، وهى أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان. وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إثابة أولها.. إلهام

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)** ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هى التى جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفى لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فقد أعطاه ربه هداية الفطرة: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾ [الإنسان: ٢،٣] فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة فى سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التى خلقها الله، فعقلها وأحسن تربيتها والاستفادة منها زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر والتأمل صفاء ونوراً، اهتدى به إلى الفقه فى كلامه وكلام رسول الله ﷺ **«ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»**.

فإذا اهتدى العبد: أوجبت تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وعكسه

فى أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول» و«الآخر» فهو المعدُّ. وهو الممد ومنه السبب والمسبب. وهو الذى يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذى نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وبقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] وبقوله: ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة رجع إليه فى المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ [الفرقان: ٧١] قال البغوى وغيره: «يتوب إلى الله متابا: يعود إليه بعد الموت، متابا حسنا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى- وهى قوله: «ومن تاب»- رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثانى: أن الجزاء متضمن معني الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه. والمعنى فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا- على أحد التأويلين- قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة: ٦٧]. أى اعلم ما يترتب على من عصي أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازماً، وُجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً، فتوبته إلى الله عملا وفعلا. وهذا نظير قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

صغائر دون الكبائر

و« الذنوب » تنقسم إلى صغائر وكبائر، بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: « **الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر** ».

والذى جاء فى لفظ الشارع، تسمية ذلك « لمما » و« محقرات » كما في الحديث « **إياكم ومحقرات الذنوب** » وقد قيل: إن « اللمم » المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره.

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء « اللمم » من الاجتناب إذ معناه: لايصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمما.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر. وهو منقطع. أى لكن يقع منهم اللمم.

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب - والغالب خلافه - أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ فى الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً. فالمعنى: لا يأتون ولايفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذى شجع أبا إسحاق على أن قال: « الذنوب كلها كبائر » إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولاسيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا فى فصلين: أحدهما: فى « اللمم » ما هو؟ والثاني: في « الكبائر » وهل لها عدد يحصرها، أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

تفسير اللمم

فأما « اللمم » فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لايعود إليه، وإن كان كبيرا. قال البغوى: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد ، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: « اللمم ما دون الشرك » قال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله عز وجل « إلا اللمم » فقلت: « هو الرجل يلم بالذنب ثم لايعاوده » فذكرت ذلك لابن عباس فقال: « لقد أعانك عليها ملك كريم ».

والجمهور : على أن «اللمم» ما دون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما فى صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال: «**ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ : إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا. أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين: النظر. وزنا اللسان: النطق. والنفس تمني وتشتهى. والفرج يصدق ذلك أو يكذّبه**» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة. وفيه : «**والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرِّجْل: زناها الخطي**».

وقال الكلبى «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا في الدنيا، ولا عذاباً فى الآخرة، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس، مالم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يلم به المسلم المرة بعد المرة، فيتوب منه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ بالقلب. أى ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد، فهو مغفور. فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما**»

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه فى الجاهلية قبل إسلامهم. فالله لايؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية. هذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح : قول الجمهور إن اللمم: صغائر الذنوب ، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق ، والشعبى. ولاينافى هذا قول أبى هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه يلم بالكبيرة ثم لايعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبى، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة- ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة فى عمره- باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة. وهذا من فقه الصحابة رضى الله عنهم وغور علومهم. ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مراراً كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا. ويذكر عن على رضي الله عنه: أنه «دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت، فلما قطعت يده قال: اصدقنى، كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت، إن الله لايؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم، فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبى هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين، والله اعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين. فإنه يقال: ألمّ بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القُبلة والغمزة لمما، لأنها تلم بما بعدها. ويقال: فلان لايزورنا إلا لماماً. أى حيناً بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت فى الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم» فإنهم لايجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسئ، وأن الله يجزى هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفهم بانهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لايكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسن حينئذ استثناء اللمم. وإن لم يدخل فى الكبائر، فإنه داخل فى جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلامًا﴾ [مريم: ٦٢] فإن «السلام» داخل فى الكلام الذى هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥] فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل فى الأول: لايسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً. وفى الثانى: لايذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذى يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧] فإن الظن داخل فى الشعور الذى هو جنس العلم والظن.

وادق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به ما كان فى شرع مَنْ تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم، والذم لمن فعله فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف».

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

وأما قوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦] فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفى الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء ألبتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جار فى كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

وقريب من هذا لفظة «أو» فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهى كالحجارة فى القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة ألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

إحصاء الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لايرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي الصحيحين من حديث الشعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**».

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟- ثلاثا- قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا- فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت**».

وفى الصحيح من حديث أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال: «**قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قال قلت: ثم أىّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أىّ؟ قال: أن تزنى بحليلة جارك**» فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه. قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**».

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق**».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله. والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شئ عُصى الله به فهو كبيرة. من عمل شيئاً منها فليستغفر الله. فإن الله لايخلد فى النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: « ما نهى الله عنه فى سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ [النساء: ٣١] فهو كبيرة» وقال على بن أبى طلحة: هى كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هى ما أوعد الله عليه حداً فى الدنيا، أو عذاباً فى الآخرة. وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله فى القرآن كبيراً، أو عظيماً. نحو قوله: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٢] ﴿ **إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿ **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النور: ١٦] ﴿ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٣]

وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السنة.

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة. فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع. وهذا معني قول بعض السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لايتاب منها. والمعصية يتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا وشرب الخمر والسرقة والقذف. أو عليه وعيد فى الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب فى آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك. فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: «هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع».

حسنات المسئ تشفع له

وههنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها- من الحياء والخوف، والاستعظام لها- ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة- من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها- ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها فى أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضا فإنه يُعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لايعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: انظر إلى موسى- صلوات الله وسلامه عليه- رمى الألواح التى فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبى مثله، وهو هارون، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه فى بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع. كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذى النون ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته. ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه مالا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لايشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لايدخل النار أحد من أهل التوحيد. بل كثير منهم يدخل بذنوبه. ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها. ولا تنافى بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه.

ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها فى ذلك النور- قوة، وضعفاً- لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس: من نور هذه الكلمة فى قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى.

ومنهم: من نورها فى قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضئ. وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما فى قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً، ومعرفة وحالا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته. حتى إنه ربما وصل إلى حال لايصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنباً، إلا أحرقه. وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئاً. فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها. فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته. فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر. فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه. أو حصّل أضعافه بكسبه. فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شئ ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن- من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض- ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبى ﷺ: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله**» وقوله: «**لايدخل النار من قال: لا إله إلا الله**» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى، واستقرار الشرع.

والشارع- صلوات الله وسلامه عليه- لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط. فإن هذا خلا ف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الأسفل من النار. فلابد من قول القلب، وقول اللسان. وقول القلب: يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته- من النفى والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التى يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعني بالقلب: علماً ومعرفة ويقيناً، وحالا- ما يوجب تحريم قائلها على النار. وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله ﷺ: «**من قال فى يوم: سبحانه الله وبحمده مائة مرة، حطت عنه خطاياه- أو غفرت ذنوبه- ولو كانت مثل زبد البحر**» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجياً مع ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه. فإن الأعمال لا

تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب. فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته- وهو في تلك الحال- على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب- وقد اشتد به العطش يأكل الثرى- فقام بقلبها ذلك الوقت- مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها- ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر، وملء الماء فى خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها، وهو ملآن، حتى أمكنها الرقى من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمل عند الله. والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً. والله المستعان.

علو المنزلة يوجب زيادة الانتباه

فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لايسامح به غيره، ويعفى للولى عما لايعفى لسواه.

فهذا الذى ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿ **يا نساءَ النَّبيِّ من يأتِ منكنَّ بفاحشةٍ مُّبيِّنةٍ يُضاعفْ لها العذابُ ضعفين** ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ **ولَوْلا أن ثبَّتْنَاكَ لَقَدْ كدتَّ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)** ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] أى لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشئ. ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿ **ولَوْ تقوَّلَ علَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] أى لو أتى بشئ من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقول عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم فى قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة، وسجن لأجلها فى بطن الحوت. ويكفي حال أبى البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سببه إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق. ولا تنافى بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره؛ فى إعطائه منها ما حرمه غيره، فحبى بالإنعام، وخص بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولى الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص أن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غفل وأخلّ بمقتضى مرتبته نبه لما لم ينبه عليه البعيد البرانى، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً. فيجتمع فى حقه الأمران.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حدّ من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحدّ من لم يعطه هذه النعمة الجلد.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر تحت كل لطيفة　　　فأخو البصائر غائص يتملق

أجناس المحرمات

ولايستحق العبد اسم « التائب » حتى يتخلص من جميع أجناس المحرمات.

وهى اثنا عشر جنسا مذكورة في كتاب الله عز وجل: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغى، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك. وقد لايعلم.

فالتوبة النصوح: هى بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت، لتتبين حدودها وحقائقها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شئ إليه.

كفر دون كفر

فأما « الكفر » فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود فى النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما فى قوله ﷺ فى الحديث: «**اثنتان فى أمتى ،هما بهم كفر: الطعن فى النسب، والنياحة**» وقوله: «**من أتى كاهناً أو عرافاً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمد**» وقوله: « **لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤] قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء: « هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أم لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل فى ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفى الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمداً من غير جهل به، ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوى عن العلماء عموماً.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن أعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه، فهذا مخطئ، له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصى كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذى هو العمل بالطاعة.

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وإن سمى هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح: إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكباراً. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقول الأمم لرسلهم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس: ١١] وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] وهو كفر أبى طالب أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك فى صدقه، ولكن

أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فإن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لايصدقه ولايكذبه، ولا يواليه ولايعاديه، ولايصغى إلي ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بنى عبد يا ليل للنبى ﷺ: «والله أقول لك كلمة؛ إن كنت صادقاً، فأنت أجلّ فى عينى من أن أرد عليك. وإن كنت كاذبا، فأنت أحقر من أن أكلمك».

وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم: أن هذا هو سبيل الرقى والمدنية.

وأما كفر الشك: فإنه لايجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك فى أمره. وهذا لايستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ﷺ جملة. فلا يسمعها ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها، فإنه لايبقى معه شك. لأنها مستلزمة للصدق، ولاسيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوى بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتى بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

الخاص المقيد: أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبراً أخبر الله به، عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلا، أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه، كحديث الذى جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذى فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا، والقصة مروية فى صحيح البخارى وغيره.

والشرك شركان أيضا

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لايغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله نداً، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شئ، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيى ولا تميت، إنما كانت هذه التسوية فى المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال

أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم- بل أكثرهم- يحبون إلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم- من المشايخ- أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذ حرد. وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه. ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدينا له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لاينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء. وهذا القدر هو الذى قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٣] ثم شهد عليهم بالكفر والكذب، وأخبر أنه لايهديهم فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل أعز من لايعادى من أنكره!.

والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لايشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضى قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء فى الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيّد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه.

و« الشفاعة » التى أثبتها الله ورسوله: هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّدَه، والتى نفاها الله: هى الشفاعة الشركية، التي فى قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

وتأمل قول النبى ﷺ لأبي هريرة- وقد سأله: **«من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: أسعد الناس بشفاعتى: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»** كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم

شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله. فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم، ولم يعلموا أن الله لايشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى فى الفصل الأول: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفى الفصل الثاني: ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضي من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. لاشفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضي من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لايغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام:١] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره فى العبادة والموالاة والمحبة، كما فى الآية الأخرى ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)** ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] وكما في آية البقرة: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم- إذا انتهكت- أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجردت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلهية التى له.، وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم فى الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلي الله. وهكذا قال النصارى للنبى ﷺ، لما قال لهم: «**إن المسيح عبد الله**» قالوا: تنقصت المسيح وعبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذى أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها..! وما ذلك بغريب، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٥] والشرك الجديد هو بعينه

القديم. ومنشأ هذا جميعه: التكذيب بيوم الدين، وأنه ليس على ما وصف الله العليم الحكيم، من الجزاء العادل، ووزن الأعمال بالقسط. وإنما هو - كما زعموا- بالأغراض والشفاعات التى لايقدر الله- بزعمهم- على دفعها. وليس هذه هى الآخرة التى وصفها الله، وحذر عباده مواقفها. والمشركون- قديماً وحديثا- يعتقدون أن أولياءهم فيهم شئ من خصائص الرب، ولذلك فهم ينادونهم، وقد ماتوا ودفنوهم. ويزعمون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها، ولكن من جنس حياة الرب- سبحانه- يقدرون بها وفيها على ما لايقدر عليه البشر الأحياء، فضلاً عن الموتى. فلما جاءت الرسل يقولون لهم: إنهم بشر ماتوا. قالوا لهم: أنتم تسبون آلهتنا وتنتقصونها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التى تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً، أو شفيعاً فهو: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١] فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لايكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك. فإن لم يكن شريكا له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التى يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهى الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لايشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنونه فى نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنما تنقض عري الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لايعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّبه وحسنه. وهو لايعرف: أنه هو الذى كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عري الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

إحصاء النفاق الأصغر

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**».

وإنما كان الحلف بغير الله شركا، لأن حقيقة اليمين ومقتضاه: أن الحالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لا يقدر هو- ولا أحد من البشر- أن يدفعه. لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه وبطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم.وهذا لا يكون إلا لله القوى المتين ذى البطش الشديد، الفعال لما يريد.

ومثله قول الرجل للرجل «ماشاء الله وشئت» و «هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك»و «مالى إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركا أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له:«**ماشاء الله وشئت**»: «**أجعلتنى لله ندا؟ قل: ماشاء الله وحده**» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لاتكون إلا لله. كالصلاة والصيام، والح، والنسك، فهى خالص حق الله.

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ: «**أُتى بأسير. فقال: اللهم إنى أتوب إليك. ولا أتوب إلي محمد. فقال رسول الله ﷺ: عرف الحق لأهله**».

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله،كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله، فإنه شرك، وهو أعظم من الحلف بغير الله. فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن فى السنن من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ: «**النذر حلفة**».

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على مالم يقسمه، ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن

يكون في الكون ما لا يشاؤه.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلي الله فيها. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لايقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد. فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن. وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبى ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين: **«أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة»**.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين فى الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله، ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله.

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع.

داء النفاق

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذى يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لايشعر. فأنه أمر خفى على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود فى النار في دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو فى الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لايؤمن بان الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة فى أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر فى المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة

آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته، وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ وكم من عَلَم له قد طمسوه؟ وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشُّبه فى أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!.

فلايزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولايزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[الصف: ٨].

قبائح الشخصية النفاقية

اتفقوا على مفارقة الوحى، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ولأجل ذلك ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: ٣٠].

درست معالم الإيمان فى قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذى أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحى عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، وقالوا: مالنا ولظواهر لفظية لاتفيدنا شيئا من اليقين؟ حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلي فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين، أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين أجهل لكنها أسلم.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامي إلي الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر، فهى لا تسمع منادى الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة

العمي. فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لاينطقون: ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)** ﴾ [البقرة: ١٨]

لهم علامات يعرفون بها مبينة فى السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان قام بهم - والله- الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا: ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العاثرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلا: ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلاً: ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما فى قلبه من كذبه ومينه. فتراه عند الحق نائماً، وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التى يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان فى الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

إن حاكمتهم إلي صريح الوحى وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدي أمداً بعيداً، ورأيتها معرضة عن الوحى إعراضاً شديداً ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾ [النساء: ٦١].

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب

السامع أنهم صادقون، قد ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢].

تباً لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبعد الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام فى ديارهم. فما متعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : ٣].

أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً، وألطفهم بياناً، وأخبثهم قلوبا، وأضعفهم جناناً، فهم كالخشب المسندة التى لا ثمر لها، قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب، إذ هى صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان.

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : ١٢٠].

كره الله طاعاتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم فى الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] ثم ذكر حكمته فى تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال، وهو أحكم الحاكمين: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر وبينها لهم. فقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٩].

أسرُّوا سرائر النفاق، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان. ووسمهم لأجلها بسيماء لايخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذا كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)**﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠]

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاقى، وتجلى الله – جل جلاله– للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحد من الحسام. وهو دحض مزلة، مظلم لايقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام. فقُسمت بين الناس الأنوار. وهم علي قدر تفاوتها في المرور والذهاب. وأُعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم فى هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حياري لايستطيعون المرور. فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه– الذى يلى المؤمنين– فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم، تبدو لناظر الإنسان ﴿**انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ**﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور، فقد أطفئت أنوارنا، ولاجواز إلا بمصباح من النور ﴿**قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا**﴾ حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد فى مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوى اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم فى هذه الدار. كما يذكّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿**أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ**﴾ نصوم كما تصومون، ونصلى كما تصلون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدق كما تصدقون، ونحج كما تحجون؟ فما الذى فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿**قَالُوا بَلَى**﴾ ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور: ﴿**وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)**﴾ [الحديد: ١٤، ١٥].

لا تستطل أوصاف القوم. فالمتروك– والله– أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله فى شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفى أجواف القبور. فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا

يستوحش المؤمنون فى الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات. سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال: «يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى طرقاتكم من قلة السالك».

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما «ياحذيفة، نشدتك بالله، هل سمانى لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا ولا أزكى بعدك أحداً» وقال ابن أبى مليكة «ادركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخارى. وذكر عن الحسن البصرى: « ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذُكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع».

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً، وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لايجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربعة استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلي السرائر، وكشف المستور، وبُعثر ما في القبور، وحصل ما فى الصدور، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التى حصّلها كانت كالسراب ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه- والله- أمارات النفاق، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دعوا إلي الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلي ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان، والخزى والخسران، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا**

﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].

أنواع الفسوق

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لايخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرد - الذى هو فسوق كفر- كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝٢٦ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - الآية﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧] وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩] وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا- الآية﴾ [السجدة: ٢٠] فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذى لايخرج عن الإسلام، فكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] فإن هذه الآية أنزلت في الوليد بن عقبة بن أبى معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق بعد الوقعة مُصْدِّقاً. وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية. فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه، تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ. فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله. فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ. فقال: إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم. وأرادوا قتلى. فغضب رسول ﷺ، وهمّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله، فقالوا يا رسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدى إليه ما قِبَلنا من حق الله» فبدا له فى الرجوع. فخشينا أنه إنما ردّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا. وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه. وقال له: انظر، فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد، ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلي رسول الله ﷺ وأخبره الخبر. فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا- الآية﴾.

و«النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن. و«التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علما.

وههنا فائدة لطيفة. وهى أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغى الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى. وفسقه من جهات أُخر. فمثل هذا لايرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة. ولاسيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأى، وهو متحر للصدق. فهذا لايرد خبره ولاشهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لايقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين، ففى رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذى لايخرج إلى الكفر.

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة.

وكلامنا آلان فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل. وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ** ﴾ [التحريم: ٦] وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ **مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)** ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] وقال الشاعر:

أمرتك أمراً جازماً، فعصيتنى فاصبحت مسلوب الإمارة نادماً

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه. كقوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف: ٥٠] فسُميت مخالفته للأمر فسقاً. وقال: ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾ [طه: ١٢١] فسمى ارتكابه للنهى معصية. فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و«التقوى»: اتقاء مجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله، علي نور من الله، يخاف عقاب الله.

ومن تأمل كلمة «التقوى» في كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ وكلام العرب،- وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر- علم أن «التقوى» هي أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران فى الأولى والأخرى، ويتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه في الأولى والأخرى، مؤمناً بأن كل ما آتاه ربه فى نفسه وماله وولده وما سخر له، صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران، بل القرآن نفسه كذلك ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] فضلاً عن غيره. ولذلك أوصانا الله ربنا أن نعوذ به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم، حتى لايضلنا فى فهمها على وضعها الذي أراد الله لنا منها فنكون من الخاسرين.

وأما فسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله. ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلا وتأويلاً، وتقليداً للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله، من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل. وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الوحي، لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هى منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة. ولايكتفي منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة. إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده. ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدي: البيان. لأن ذنبهم لما كان بالكتمان، كانت توبتهم منه بالبيان. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم. لأن ذاك كتم الحق، وهذا كتمه ودعا إلى خلافه. فكل مبتدع كاتم ولاينعكس.

وشرط فى توبة المنافق: الإخلاص . لأن ذنبه بالرياء. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

ألوان من السوء.. أخرى

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان. قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان، إذ هو فعل

ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به. فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلي القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئا أتلف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتعد للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد، كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء والحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧] وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها، كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه، فهو من العدوان. كمن أبيح له نظرة الخطبة، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق طرفه في ميادين محاسن المنظور، فتعدى المباح إلي القدر المحظور، وحام حول الحمى المحوط المحجور.

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغى المذكوران فى سورة الأعراف (٣٣) مع أن «البغى» غالب استعماله فى حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان «البغى» ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبهت والابتداء بالأذى. و«العدوان» تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان فى حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله.

فهنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما، فلا يصل إليهما.

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء، صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة، وهى الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء وهو ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذى عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماهما الله «فاحشة» لتناهى قبحهما. وكذلك القبيح من القول

يسمى فحشاً، وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول والفطر. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلي الذوق. والصوت المستنكر إلي الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة، كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: مالم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها، الذى تشتد نفرتها عنه وهو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر مالم يعرف فى شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين مالم يعرف حسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه فى الفطر والعقول.

القول على الله بلا علم .. أصل المفاسد

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً، وأعظمها إثماً. ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة. وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذى يباح في حال دون حال.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لايباح بحال، ومحرم في وقت دون وقت. وقال الله تعالى فى المحرم لذاته: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] ثم انتقل منه إلي ما هو أعظم منه فقال: ﴿ **وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ ثم انتقل منه إلي ماهو أعظم منه. فقال: ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ ثم انتقل منه إلي ما هو أعظم منه. فقال: ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً. فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى مالايليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لايليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثما. وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنتهم أشد التحذير. وبالغوا فى ذلك مالم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شئ أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله. فقال: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ - الآية** ﴾ [النحل: ١١٦].

فكيف بمن نسب إلي أوصافه سبحانه وتعالى مالم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم الله كذا. فيقول الله: كذبت. لم أحلَّ هذا، ولم أحرِّم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله، يقرّبه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبوءا ، وهو المنزل اللازم الذى لايفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم، كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلي الرسول فهو مضاف إلى المرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١].

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع.

وأنَّى بالتوبة منها لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإن السنة- بالذات- تمحق البدعة، ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلي الله، بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجوء إلي الله، والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلي أقواله وأعماله وهديه وسنته: «**فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله فهجرته إلي الله ورسوله**» ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة. والله المستعان.

مشاهد المعصية

وهى: مشهدا الحيوانية وقضاء الشهوة، ومشهد الجبر، ومشهد القدر. ومشهد الحكمة، ومشهد التوفيق والخذلان، ومشهد التوحيد، ومشهد الأسماء والصفات، ومشهد الإيمان وتعدد شواهده. ومشهد الرحمة، ومشهد العجز والضعف، ومشهد الذل والافتقار، ومشهد المحبة والعبودية.

فالثلاثة الأول: للمنحرفين، والبواقى لأهل الاستقامة.

وهذا الفصل من أجلِّ فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به فى كتاب سواه. إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى «سفر الهجرتين في طريق السعادتين».

الطبائع الحيوانية فى بعض البشر

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا فى اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأى طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم فى أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التى هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب. ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة. ولايسمح للكلب بشئ منها. وهمه شبع بطنه من أى طعام اتفق: ميتة أو مذكي، خبيث أو طيب. ولا يستحي من قبيح . إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك. وأن منعته هَرَّك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد فى كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حمَّله كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقها ولا عملا. ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفي هذين المثلين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه.

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذا الحيوانات في المنام عند الإنسان وفى داره، أو أنها تحاربه. وهو كما اعتمدوه. وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة. فكان تأويلها مطابقاً لأقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبى ﷺ فى قصة أحد «**بقراً تنحر**» فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار. فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض. وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع، فإنها ذلول مذللة، منقادة غير أبية. ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات، فكان طعن أبى لؤلوة له. والديك رجل أعجمى شرير.

ومن الناس: من طبعه خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجيعه قمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها. فجعلها فاكهته ونقله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش. وليس وراء ذلك من شئ.

وأحمد طبائع الحيوانات: طبائع الخيل التى هى أشرف الحيوانات نفوسا، وأكرمها طبعا. وكذلك الغنم. وكل من ألف ضربا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه. فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى. فإن الغاذى شبيه بالمتغذى.

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها. والله أعلم.

والمقصود: أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم. لايعرفون ما وراء ذلك ألبتة.

مشهد أصحاب الجَبر

ثم مشهد أصحاب الجبر. وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لايشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه. وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر، وحملوا ذنوبهم عليه، وقد يغلون فى ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشيئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً علي أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر

من القدرية النفاة. وأشد منهم عدواة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يتعذر عن إبليس، ويتوجع له، ويقيم عذره بجهده. وينسب ربه تعالى إلي ظلمه بلسان الحال والمقال، ويقول: ما ذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله إلا محسنا؟

وهؤلاء أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس ، وإخوانه. وإذا ناح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات السنتهم وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه.

مشهد القدرية النفاة

ثم مشهد القدرية النفاة: يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء ، ولا خلق أفعالهم، وأنه لايقدر أن يهدى أحداً ولا يضله إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهمه الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك فى قلبه.

ويشهدون أنه يكون فى ملك الله مالا يشاؤه، وأنه يشاء مالايكون، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله.

فالمعاصى والذنوب خلقهم، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يثبت قلوبهم، وأن لايزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويجنبهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لايدخل تحت مشيئة الرب شئ منها.

والشيطان قد رضى منهم بهذا القدر، فلا يوزهم إلى المعاصي ذلك الأز، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله فى ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يقر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وانكم تاركون الذنوب والكبائر التى يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم واقع بكم، وإنكم العاصمون لانفسكم، المانعون لها من المعصية.

الغرض الثاني: أنه يصطاد علي أيديهم الجهال. فإذا رأوهم أهل عبادة، وزهادة وتورع عن المعاصى، وتعظيم لها. قالوا: هؤلاء أهل الحق- والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية- فإذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها فى أعينهم وقلوبهم. ولايكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر.

أول الاستقامة: اكتشاف حكمة الخلق

ولكن أهل الاستقامة يشهدون حكمة الله في تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لعصمه منه، ولحال بينه وبينه. وأنه سبحانه لايعصي قسراً. وأنه لايكون في العالم شئ إلا بمشيئته: ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، وأن له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكل الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقدره، لما يبغضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذى بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ فلله سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التعرفات إلى خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزه، وتمام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه، ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ** ﴾ [آل عمران: ١٩١] إن هى إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الظاهرة.

ولله فى كل تحريكة   وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شئ له آية   تدل علي أنه واحـــد

ففكم من آية فى الأرض بينة، ودالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق. كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم، كآيته فى إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجي أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم فى ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على ممر الدهور؟! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له فى النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من كمال الخلة.

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قومهم، وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم، ومجاهدتهم في الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه

وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وجدت بسبب ظهور المعاصى والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثره عنده من فوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه- وإن كان محبوباً له- لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه. وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضى حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لايعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله، وكمال قدرته وربوبيته.

وكم في تسليط أوليائه علي أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض، من حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وخشية وافتقار إليه وانكسار بين يديه، أن لايجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرفه في مملكته، فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وَجَل، وأعظم مخافة، وأتم انكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت، وضعت رؤوسها بين يدى الرب خضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم، ازدادوا خضوعاً وذلا، وافتقاراً وانكسارا، وبه استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلا، وفيه رغبة، ومنه رهبة. وعلموا أنهم لاملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لايعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولا وآخرا.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.

وأما حظ العبد في نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده وقوة

بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شِرْب معلوم، ومقام لايتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. فالقلوب بيده. وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها: ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٨] يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بممنون. وهذا عدله وقضاؤه. ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال ابن عباس رضى الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده».

وفى هذا المشهد: يتحقق للعبد مقام ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ علماً وحالا، فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية، ثم يرقي منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدي والضلال، والسعادة والشقاء؛ كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذى يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها، من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه فى قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه فى قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه.

فهذا علامة توحيد الإلهية فى هذا القلب، والباب الذى دخل إليه منه توحيد الربوبية، أى باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقى إلي توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده فى كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به فى الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿ **إياك نعبد** ﴾ قال الله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾[الزخرف: ٨٧] أى فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى: ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)** ... ﴾[المؤمنون: ٨٤ – ٨٩] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ – الآيات** ﴾[المؤمنون: ٨٦ – ٨٨] وهكذا قوله: ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ – إلى آخر الآيات** ﴾[النمل: ٥٩ – ٦٥].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغى أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا. فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح في القولين في تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم التدليل. فلابد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين.

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخري. ولاينكرون ذلك.

الثاني: أنه لايتم الدليل، ولايحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أى فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر لايخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾[الرعد: ١٦] وقوله: ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ [لقمان: ١١] وقوله: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[النحل: ١٧] وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾[النحل: ٢٠] وقوله: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾[الفرقان: ٣] وهو كثير فى القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين.

والمقصود: أن العبد له هذا فى المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلي مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه. كما قال شعيب

خطيب الأنبياء ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨].

مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لايكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له. ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلي التوفيق فى كل نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فدأب لسانه «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، يا مصرّف القلوب صرّف قلبى إلى طاعتك» ودعواه: «يا حى يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث. أصلح لى شأنى كله. ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففى هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه، عياذ الملهوف. ويلقى نفسه بين يديه، طريحا ببابه مستسلما له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعاً ذليلاً مستكينا، لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولانشورا.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه، مريداً له، محباً له، مؤثرا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا مجرد فعله. والعبد محل له. قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لايصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله. لايمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات: ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه فى قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذى جعله فى قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقدموا بين يدى رسولى، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذى حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولى في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك. ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أنى حببته إليكم وزينته فى قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولاسمحت به أنفسكم.

وقد فسرت القدرية الجبرية «التوفيق» بأنه خلق الطاعة و«الخذلان» بأنه خلق المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلي محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا «التوفيق» بالبيان العام، والهدى العام، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة. وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء ولا بطريق هؤلاء وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل ان يكون في ملكه مالا يشاء، أو أن يقدر خلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شئ من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته، ومن قال ذلك لم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه- مع ذلك- عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئاً سدى، وأن تخلو أفعاله عن حكم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سببها، وغايات جعلت طرقا ووسائل إليها. وأن له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة فى الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم

عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوا من الباطل. فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناؤه عليهم، حكام بينهم، حاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولايكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبرا، بل ممن هو على بينة من ربه وبصيرة فى إيمانه، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق.

مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد. وهو أعلى مما قبله وأوسع.

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم- بما فيه- من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة. فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتض وفعل: إما لازما. وإما متعديا. ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا فى خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. وكل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه . وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكما ومصالح، وأسماؤه حسنى: ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل فى حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطله من أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى مالايليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى فى حق منكري النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى فى حق منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢١] فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا**

خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] عن هذا الظن والحسبان، الذى تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا فى القرآن كثيرة. ينفى فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته . إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدى مهملاً معطلاً، لايُؤمر ولا ينهى. ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حى فعال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضي مخلوقاً. وكذلك «الرزاق» واسمه «الملك» يقتضي مملكة وتصرفاً وتدبيراً، وإعطاء ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البر ،المحسن، المعطى، المنان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» فلابد لهذه الأسماء من متعلقات. ولابد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولابد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطى، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالي يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه: من موجب أسمائه وصفاته. وحصوله مايحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه: ما هو من موجبات كماله ومقتضي حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات. مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. ليست كمن يغفر عجزا. ويسامح جهلا بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال. وغايتها أيضاً: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عبادة بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله. وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم، «جَوَادٌ» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حيي» يحب الحياء وأهله، «بَرٌّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقدر عليه ما يقتضى وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضى له.

مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلي إنكاره، ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصى؟ ولاسيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للإيمان فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصى منه ومن غيره وإلي ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة. وبرهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما

جاءوا به. فإن الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، فى معاشهم ومعادهم. ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، ويثيب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، ويعاقب عليه بـ كيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، فى القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد يكون المراد بلفظ «ذكري» ما يذكر بالله سبحانه. وهو أولا المشار إليه بقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وبقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] وهذا كثير جداً فى القرآن. فإن الغفلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته فى الأنفس والآفاق والانسلاخ منها: هو الذي أركس الإنسان فى ظلمات الجاهلية. ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهلى الوثني واتخذ القرآن مهجورا. فلم يحاول أن يتدبر آياته، ولا أن يتلوه حق تلاوته، لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لا في عقيدة ولا في عمل ولا خلق ولا حال. فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غرورا. وزاده غروراً ومخادعة بإيهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللتبرك، واتخاذ المصحف تميمة يخرجه عن المعرضين عن ذكر الله.

وفُسرت المعشية الضنك: بعذاب القبر. والصحيح: أنها في الدنيا، وفى البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التى فى خلال ذلك مالايشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه فى السكر. فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصى فى جحيم قبل

الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)** ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ** ﴾ [الطور: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)** ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢]

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه. ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثارا مكروهة، وحزازات تربى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: «إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه. وظلمة في القلب ووهنا في البدن. ونقصا في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة، ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله. ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة. كما قال بعض الناس: إذا صدر منى ذنب ولم أبادره، ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيئ. فإذا أصابنى- أوفوقه أو دونه- كما حسبت: أكثرت قول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك وحصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علما بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها ولا سيما إذا انكسرت به وبقى على لوح تلعب به الرياح. فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه فى واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٨] فكل ما تراه في الوجود- من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك- فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد فى الأرض: ﴿ **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ - الآية** ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصى بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب فِى وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التى تفضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن،

والأمن بعد الخوف، والقوة فى قلبه بعد ضعفه ووهنه- ازداد إيماناً مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان فى قلبه وبراهينه وأدلته فى حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه: صار من أطباء القلوب، العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله فى نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضباً منه لله، وحرصا علي أن لايعصى. فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولايذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخلى ونفسه استغاث بالله والتجأ إليه. وتململ بين يديه تململ السليم. ودعا دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة علي المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً مع قيامه بحدود الله. وتبدل دعاؤه عليهم دعاء لهم. وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

مسكين.. هذا العاجز!

ثم يشهد الضعف، وأنه أعجز شئ عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجرى عليه أحكام القدر. وهو كالآلة طريحاً بين يدى وليه، ملقى ببابه، واضعاً خده على ثرى أعتابه. لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدني إليه من شراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع. لا يردها عنها إلا الراعي. فلو تخلّى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه. من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا. وإن تخلي عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ ولكن يمكن تأويله بثلاثة تأويلات:

أحدهما : أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى .والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثانى : أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لايكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ومن جعله حياً عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً، أولى أن يكون كذلك.

فالتأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

والتأويل الثالث : أن هذا من باب النفى، أى كما أنك لا تعرف نفسك التى هى أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟

والمقصود : أن المشهد يُعرِّف العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوي، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شئ، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

استشعار الافتقار لله

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة، وافتقارا تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كسرة خاصة لايشبهها شئ. بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذى لا شئ فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة. ولا يرغب في مثله. وأنه لايصلح للانتفاع إلا بجبر جديدمن صانعه وقيمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير. ويرى أنه لايستحق قليلاً منه ولا كثيراً. فأى خير ناله من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به، وسياقته إليه. واستقل ما فى نفسه من الطاعات لربه، ورآها– ولو ساوت طاعات الثقلين– من أقل ما ينبغى لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المسكور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلي الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين

المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكته هذه الذلة فهو ناكس الرأس بين يدى ربه. لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم. يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلي يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه. وإذا سجد القلب لله- هذه السجدة العظمى- سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها. وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلي العزيز الرحيم. فلا يرى إلا متملقاً لربه، خاضعاً له، ذليلاً مستعطفاً له. يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذى لا غنى له عنه. ولابد له منه. فليس له همٌ غير استرضائه واستعطافه. لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتى في رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى في قربه وحبه وذكره؟

وصاحب هذا المشهد: يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القيم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه فى حاجة له. فخرج عليه فى طريقه عدو فأسره وكتفه وشده وثاقاً. ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله. ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فبينا هو فى أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره فى آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى ديار أبيه. فرأى أباه منه قريبا، فسعى إليه، وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلي ولدك وما هو فيه. ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه فى طلبه، حتي وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلى بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فر عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه. يمرغ خده فى ثرى أعتابه باكيا بين يديه، يقول: يارب، يارب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوى له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولايهيضون عظما أنت جابره

فإذا استبصر فى هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى

مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصى، قد امتلأ قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لايعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتي جئت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولا مزاحم فيه ولا معوق.. فما هو إلا أن وضعت قدمى فى عتبته، فإذا هو- سبحانه- قد أخذ بيدى وأدخلني.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة. فيفتح له منها باب لايُفتح له من هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة. لكن الذى يفتح منها طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا، وتفريطا وذنبا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس. وهم في واد وهو في واد. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذى حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن سبحانه عليه قبل الذنب، وفى حال مواقعته، وبعده، وبرَّه به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه. فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره؟

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، ومعرفة أحكامها ، وتفاصيلها ومسائلها، والله الموفق لمراعاة ذلك. والقيام به عملا وحالا. كما وفق له علماً ومعرفة. فما خاب من توكل عليه. ولاذ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٧) منزلة الإنابة

قد علمت أن من نزل في منزلة « التوبة » وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن « التوبة » الكاملة متضمنة لها. وهى مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥] وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ [ق: ٦ - ٨] وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ - الآية ﴾ [الروم: ٣١].

فـ « منيبين » منصوب على الحال من الضمير المستكن فى قوله « فاقم وجهك » لأن هذا الخطاب له ولأمته. أى أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله «**فطر الناس عليها**» أى فطرهم منيبين إليه. فلو خلوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه. ولكنها تحول وتتغير عما فُطرت عليه. كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة- وفى رواية: على الملة- حتى يعرب عنه لسانه**». وقال عن نبيه داود: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة. فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

و« الإنابة » إنابتان: إنابة لربوبيته. وهى إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه « الإنابة » لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و« الإنابة » الثانية هى إنابة أوليائه. وهى إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهى تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفى اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت. المتقدم إلى محابه. وهى فى اللغة: الرجوع . وهى ههنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروى:

« وهى ثلاثة أشياء: الرجوع إلي الحق إصلاحا، كما رجع إليه اعتذارا، والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدا. والرجوع إليه حالا، كما رجعت إليه إجابة». أى لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح؛ ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخلٍ عن معصيته، وتحلٍ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده وعلى هؤلاء بالتعلم. وعلى هؤلاء بالنعم. ومدح الموفين بعهده. وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة. وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبى ﷺ: أن من علامات النفاق «**الغدر بعد العهد**».

فما أناب إلي الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالا. كما رجعت إليه إجابة».

أى هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا. فلابد من الإجابة حالا تصدق به

المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إلي الله إجابة بالمقال. فارجع إليه إجابة بالحال. قال الحسن: ابن آدم: لك قول وعمل. وعملك أولى بك من قولك. ولك سريرة وعلانية. وسريرتك أملك بك من علانيتك.

رجوع الإصلاح

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحا بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات. والتوجع للعثرات. واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات: هو بالتوبة من الذنوب التى بين العبد وبين الله. وأداء الحقوق التى عليه للخلق.

ثم أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع. وهذا دليل على إنابته إلى الله. بخلاف من لايتألم قلبه، ولاينصدع من عثرته. فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

وأيضاً أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولايشمت به. فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

ويكمل ذلك باستدراك الفائتات: وهو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها ولاسيما في بقية عمره، عند قرب رحيله إلى الله. فبقية عمر المؤمن لاقيمة لها. يستدرك بها ما فات. ويحيى بها ما أمات.

الرجوع وفاء بالعهد

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه عهداً: بثلاثة أشياء بالخلاص من لذة الذنب. وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفاً عليهم، مع الرجاء لنفسك. وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة».

فإن العبد إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره، والفكرة فيه. فمادامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أى الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه، وسكوناً إليه، والتذاذا بحبه، وتنعماً بذكره؟

قيل: حال هذا أكمل وأرفع. وغاية صاحب المجاهدة: أن يجاهد نفسه حتى يصل إلي مقام هذا ومنزلته، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب ومنوط به.

فإن قيل: فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة، وتركه محابه لله،وإيثاره رضا الله على هواه؟

وبهذا كان النوع الإنسانى أفضل من النوع الملكى عند أهل السنة وكانوا خير البرية. والمطمئن

قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها. فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلى.

قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه. وهذه الحال أعلى أحوالها. وأرفعها وهى التى يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله. فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامة والأهوال، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به. والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً، وراكعاً وساجداً. ليس له التفات إلي غيره. فهذا مشغول بالغاية وذاك بالوسيلة. وكل له أجر. ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بون.

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه فى ذات الله، وإن كان أكثر عملا، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل. وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه. ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولايراه إلا أمامه.

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق. ولايلزم من مشقتها تفضيلها فى الدرجة. فأفضل الأعمال الإيمان بالله. والجهاد أشق منه وهو تاليه فى الدرجة .ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء.

وَجَل.. دون يأس

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن أرْجُ لهم الرحمة. واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ماهم عليه. فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

وهذا الكلام لايفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله. فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم، بل تفريطهم، وإضاعتهم لحق الله، وإقبالهم على غيره، وبيعهم حظهم من الله بابخس الثمن من هذا العاجل الفانى، لم يجد بداً من مقتهم. ولايمكنه غير ذلك ألبتة. ولكن إذا رجع إلي نفسه وحاله وتقصيره، وكان على بصيرة من ذلك، كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة. فهذا هو الفقيه.

وأما الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس. ولعل أكثرها- أوكلها- أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لايراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقا، وهو خالص لوجه الله، ولايميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلي قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة في الآخرة. ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره. فلو وصل أثر الأعمال إلي قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله وأعدائه. وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى فى طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة. ولهذا لما ظهرت «رعاية» أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبب النفوس. فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً.

ولابد من حال يصدق المقال

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك. وبمعاينة اضطرارك، ورؤية لطفه بك.

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هى برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«لن ينجي أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»**.

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أيس من عمله، شهد أن الله عز وجل غنى بالذات، فإن الغنى وصف ذاتى للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً　　　كما الغنى أبداً وصف له ذاتى

وعلى العبد بعد ذلك أن ينظر إلى ألطاف الله، ويعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة مَنَّ بها عليه، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه. إذ هو المحسن بالسبب والمسبب. والأمر له من قبل ومن بعد. وهو الأول والآخر. لا إله غيره. ولا رب سواه.

(٨) منزلة التذكر

ثم ينزل القلب منزل « التذكر » وهو قرين الإنابة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣] وقال : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٨] وهو من خواص أولى الألباب . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد : ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

و« التذكر » و« التفكر » منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان . والعارف لايزال يعود بتفكره على تذكره ، وبتذكره على تفكره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم . قال الحسن البصرى : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت .

و« التذكر » تفعل من الذكر . وهو ضد النسيان . وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب . واختير له بناء التفعل ، لحصوله بعد مهلة وتدرج ، كالتبصر والتفهم والتعلم .

فمنزلة « التذكر » من « التفكر » منزلة حصول الشئ المطلوب بعد التفتيش عليه . ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى . كما قال في المتلوة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر : ٥٣ ، ٥٤] وقال عن القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٨] وقال فى آياته المشهودة : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) ﴾ [ق : ٦ - ٨] .

فـ « التبصرة » آلة البصر ، و« التذكرة » آلة الذكر . وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة . لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر . فاستدل بها على ماهى آيات له . فزال عنه الإعراض بالإنابة ، والعمى بالتبصرة ، والغفلة بالتذكرة . لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب بعد غفلته عنها . فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب ، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره .

وقال تعالى فى آياته المشهودة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾ [ق : ٣٦ ، ٣٧] .

والناس ثلاثة : رجل قلبه ميت . فذلك الذى لاقلب له . فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه .

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد. تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه. ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملقٍ السمع. فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لايبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذى قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره. وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذى يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد، مليئ باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله. وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة، ازداد بها نوراً إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل هل التذكر أيضاً ﴿ **فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصّرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا. قال الله تعالى: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

تفكر يقود إلى صالح العمل

وأبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. والاستبصار بالعبرة. والظفر بثمرة الفكرة.

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف والرجاء. فيتحرك للعمل، طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجو.

و« العظة » هى الأمر والنهى، المعروف بالترغيب والترهيب.

و« العظة » نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود، فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل وما أوحى إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

و« العظة » بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده فى العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه. ومايشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعانى التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر. فهو يظفر بها بالتفكر. وتنصقل له وتنجلي بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب إليه. وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

وأما الظفرة بثمرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

وللفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان، والعمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكر كان قد كلّ بأعماله في تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعانى وتخمرت فى القلب، واستراح العقل، عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه. فابتهج به وفرح به. وصحح في هذا المنزل ما كان فاته في منزل التفكر. لأنه قد أشرف عليه فى مقام التذكر، الذي هو أعلى منه. فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة. وهى العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكر.

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسى، فطالب المال مادام جاداً فى طلبه، فهو في كلال وتعب، حتى إذا ظفر به استراح من كدّ الطلب. وقدم من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأبصره، وصحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له وبردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه. والله أعلم.

شروط الانتفاع بالعظة

وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء: شدة الافتقار إليها. والعمى عن عيب الواعظ. وتذكر الوعد والوعيد.

إذ يشتد افتقار العبد إلى العظة- وهى الترغيب والترهيب- إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة

منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى.

فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهى، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتى.

وأما «الموعظة» فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك «الجدال» قد يكون بالتى هى أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التى هى أحسن شئ وأبينه، وأدله على المقصود. وأصله إلى المطلوب. والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته. لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لايعمل بعلمه ولا ينتفع به.

ولأجل هذه النظرة: قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى: فإذا أمرت بشئ فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به. وإذا نهيب عن شئ، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذى السقام من	الضنى ومن الضنى تمسي وأنت سقيم
لاتنه عن خلق، وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت ذميم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	بالقول منك، وينفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠] وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات:

٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق : ٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره شرط فى الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه.

شروط استبصار العبرة

وإنما تُستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل. ومعرفة الأيام. والسلامة من الأغراض.

و« العبرة » هى الاعتبار. وحقيقيتها: العبور من حكم الشئ إلى حكم مثله. فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هى صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشئ والتضرر به. وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين، التى جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن « ياحى يا قيوم لا إله إلا أنت » أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- شديد اللهج بها جداً. وقال لى يوماً: لهذين الاسمين- وهما « الحى القيوم » - تأثير عظيم فى حياة القلب.

وأما معرفة الأيام: فبأن يعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة. كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلي أيام البقاء. وهى كمدة المنام لمن له عقل حى وقلب واع. فما أولاه أن لايصرف منها نفساً إلا فى أحب الأمور إلي الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لاينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به.

وكذلك يتذكر أيام الله التى أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥] وقد فسرت « أيام الله » بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصى. فالأول تفسير ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد. والثانى: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين. وهى وقائعه التى أوقعها بأعدائه، ونعمه التى ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها « أياما » لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أى بالوقائع التى كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١].

ولايتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض.من متابعة الهوى والانقياد لداعى النفس الأمارة بالسوء. فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل. ويعمى بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق.

ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره. فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح فى صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فانى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟

ثمرة الفكرة تُجتنى بقصر الأمل

وإنما تجتنى الفكرة بثلاثة أشياء:

أحدها: قصر الأمل. والثانى: تدبر القرآن، والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل. وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معاقصة الأيام، وانتهاز الفرص التى تمر مر السحاب، ومبادرة طى صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلي دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه- إذا داوم مطالعة قصر الأمل- شاهد من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها. وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلامتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعا.

ويكفي فى قصر الأمل قوله تعالى: **﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾**[الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧] وقوله تعالى: **﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾**[يونس: ٤٥] وقوله تعالى: **﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾**[النازعات: ٤٦] وقوله تعالى: **﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) ﴾**[المؤمنون: ١١٣، ١١٤] وقوله تعالى: **﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾** [الأحقاف: ٣٥] وقوله تعالى: **﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤) ﴾**[طه: ١٠٣، ١٠٤] وخطب النبى ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: **«إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم**

هذا فيما مضى منه» وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

تدبر القرآن يولد الأفكار

وأما التأمل فى القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر. قال الله تعالي: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[محمد: ٢٤] وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**﴾[المؤمنون: ٦٨] وقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[الزخرف: ٣] وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به. فاتخذوا تلاوته عملا.

فليس شئ أنفع للعبد فى معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع فيه الفكر على معانى آياته. فإنها تطلع العبد علي معالم الخير والشر بحذافيرها. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما. وتثبت قواعد الإيمان في قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه. وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتبصره مواقع العبر. وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، ومالسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه فى مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضرورى للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم. فتريه الحق حقا، والباطل باطلا. وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال. والغى والرشاد. وتعطيه قوة فى قلبه، وحياة وسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً. فيصير فى شأن والناس فى شأن آخر.

فإن معانى القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما ينزه

عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم.

والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله فى خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وماجعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسفلى، وما يختص بالنوع الإنسانى منهم، من حين يستقر فى رحم أمه إلى يوم يوافى ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التى لايشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التى لايخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهى، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، فى خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلي ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه فى ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل. وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر ! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبى الله ونعم الوكيل.

وفى تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

مكدرات القلوب

وأما مفسدات القلب فهى: كثرة الخلطة، والتمنى، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب. ذلك أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، آفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وصحته وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه- إن لم تصمه وتبكمه- وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهى عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولاابتهاج، ولا كمال ، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة، كما أنه لانعيم له في الآخرة، ولا فوز إلابجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة. فله جنتان. لايدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه- أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حى يشهد هذا ويعرفه ذوقا.

وهذه الأشياء: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

نخالط الناس فى الخير فقط

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى ادم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهما وغما، وضعفا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسّم فكره فى أودية مطالبهم وإرادتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت فى بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبى طالب- عند الوفاة – أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التى تكون علي نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ**

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] وقال تعالي: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألما، وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع فى أمر الخلطة، أن يخالط الناس فى الخير- كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد والنصيحة- ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين ، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مالا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوى قلبه، ولايلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسُلَّ قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين ، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولايعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقي به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجوء إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلا، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتى ذكرها. ولاينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

فى التمنى مزيد فساد

ويفسد القلب أيضاً بركوبه بحر التمنى وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم. كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال

والبهتان، فلا تزال أمواج الأمانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه، وكل حسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان. وللضرب فى الأرض والتطواف فى البلدان، أو للأموال والأثمان، فيمثل المتمنى صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان. والعمل الذى يقربه إلى الله. ويدنيه من جواره.

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة. وأمانى أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبى ﷺ متمنى الخير. وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان الذى يتقى فى ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال: **«هما فى الأجر سواء»**.

تمام الخذلان فى التعلق بغير الله

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلي ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)**﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ**﴾ [يس: ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله، كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا**﴾ [الإسراء: ٢٢] مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل. وقد يكون مذموماً منصوراً كالذى قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محموداً منصوراً كالذى تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

النهم المميت

ومن مفسدات القلب: الطعام، والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهى نوعان: محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضا صاحبه، إما قهراً وإما حياء وتذمماً.

والثانى: ما يفسده بقدره، وتعدى حده، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً، وفى الحديث المشهور: **«ماملأ آدمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**.

رقاد الغافلين

والمفسد الخامس: كثرة النوم، إذ النوم الكثير يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ماكان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولاسيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. ومازاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذى ينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه. فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة لاينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. والله المستعان.

(٩) منزلة الاعتصام

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال الله تعالي: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الحج: ٧٨].

و« الاعتصام » افتعال من العصمة: هو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلي هداية الطريق. والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التى بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله، يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التى يستلئم بها فى طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف فى الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: « عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة ».

وقال مجاهد وعطاء: « بعهد الله » وقال قتادة والسدى وكثير من أهل التفسير: « هو القرآن ».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولاتفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفى الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله يرضى لكم ثلاثاً. ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال** » رواه مسلم فى الصحيح.

فالاعتصام بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره.

ونريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوي امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هى العمل بطاعة الله على نور من الله. ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه فى كلام النبى ﷺ كقوله: **«من صام رمضان إيمانا واحتسابا. ومن قام ليه القدر إيماناً واحتساباً، غفر له»** فالصيام والقيام: هما الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شئ سواه. و«الاحتساب» رجاء ثواب الله.

فالاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل. والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هى الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

درجات الاعتصام

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخبر، استسلاماً وإذعاناً بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهى. وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف.

فالعامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله، استسلاماً من غير منازعة، بل إيماناً. وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعيد. وأسسوا معاملتهم على اليقين، لا على الشك والتردد، وسلوك طريقة الاحتياط. كما قال القائل:

زعم المنجـــم والطبيب كلاهما   لا تُبعث الأجساد. قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاســر   أو صحَّ قولى فالخســـار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك. يقومون بالأمر والنهى احتياطاً. وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله. ولا تحصل لصاحبها السعادة. ولا توصله إلى المأمن.

وأما الإنصاف الذى أسسوا معاملتهم عليه: فهو الإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه.

فأما الإنصاف في معاملة الله: فأن يعطى العبودية حقها، وأن لاينازع ربه صفات إلهيته التى لا تليق بالعبد ولا تنبغى له، من العظمة، والكبرياء، والجبروت.

ومن إنصافه لربه: أن لايشكر سواه على نعمه وينساه. ولايستعين بها على معاصيه.

لاعلائق

واعتصام الخاصة: وهو إسبال الخلق عن الخلق بسطا، ورفض العلائق عزما.

فإن حُسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق، يدل على سعة قلب صاحبه. وكرم نفسه وسجيته. وفى هذا الوصف، يكف الأذى، ويحمل الأذي.

وأما رفض العلائق عزما: فهو العزم التام على رفض العلائق، وتركها فى ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتى كان فى قلبك ضرك ولو لم يكن فى يدك منه شئ.

قيل للإمام أحمد: أيكون الرجل زاهداً. ومعه ألف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولايحزن إذا نقصت.

ولعله- رحمه الله- يقصد فرح الأشر والبطر. أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها في موضعها من محاب الله ومراضيه. فلا يمكن أن يكره ذلك الإمام أحمد.

ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال.

وقيل لسفيان الثورى: أيكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وإنما يحمد قطع العلائق الظاهرة فى موضعين: حيث يخاف منها ضرراً فى دينه، أو حيث لايكون فيها مصلحة راجحة. والكمال من ذلك: قطع العلائق التى تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور. وهى كلاليب الشهوات والشبهات. ولا يضره ما تعلق به بعدها.

وذروة الاعتصام إنما تكون بالقرب. إذ لاريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩] وقوله فى الأثر الإلهى: «**من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً**» وكقوله: «**وماتقرب إليّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها. ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى**»». وفي الحديث الصحيح «**أقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل الأخير**» فى الحديث أيضاً: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» وفى الحديث الصحيح- لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر- فقال: «**يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

(١٠) منزلة الفرار

ومن منازل« إياك نعبد وإياك نستعين » « منزلة الفرار »

قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شئ إلى شئ. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس فى قوله تعالى: «**ففروا إلى الله**» فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

وأدناه: الفرار من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً. ومن الكسل إلى التشمير جداً وعزما. ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء.

و« الجهل » نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة. قال موسى: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] لما قال له قومه ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أى من المستهزئين. وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] أى من مرتكبى ما حرمت عليهم. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقاله غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل.

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة. ومن جهل العمل إلى السعى النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً.

ثم يفر من إجابة داعى الكسل إلى داعى العمل والتشمير بالجد والاجتهاد.

و« الجد » ههنا هو صدق العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون. وهو تحت السين وسوف، وعسى، ولعل. فهى أضر شئ على العبد. وهى شجرة ثمرها الخسران والندامات.

والفرق بين الجد والعزم: أن « العزم » صدق الإرادة واستجماعها. و« الجد » صدق العمل وبذل

الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] أى بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

ثم يهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التى تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه. وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه، ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه. يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلي سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه وبره. ومن أحسن كلام العامة قولهم: لاهَمَّ مع الله. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبوالعالية: مخرجا من كل شدة؛ وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقى من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم فى الدنيا والآخرة مخرجا. وقال الحسن: مخرجا مما نهاه عنه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] أى كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسب» الكافي ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عيه، فإن الله لايخيب أمله فيه ألبتة. فإنه سبحانه لايخيب أمل آمل، ولايضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له– بعد الإيمان– من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

تجريد

وأبعد الفرار: الفرار من الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد، فإن أرباب العزائم فى السير لايقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولايعتدون إلا بأرواحها وحقائقها. وهذا القدر هو الذى فات الزنادقة وقطاع الطريق، فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هى المطلوبة أرواحها،لا صورها وأشباحها ورسومها، قالوا: نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره. وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها. فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك، وهممهم أعلى، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر. فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل.

وجملة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته. وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته. فظنوا

أنهم يصلون إلى حقيقته، من غير رسمه وظاهره، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة. وجحدوا ما علم بالضرورة مجئ الرسل به. فهؤلاء كفار زنادقة منافقون. وأولئك مقصرون غير كاملين. والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم. وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح. وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح.

فهؤلاء خواص أهل الإيمان وأهل العلم والعرفان، الذين يكملون فرارهم بفرار من حظوظ النفس على اختلاف مراتبها، إلى التجريد، وهذه الحظوظ لايعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما، ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها. يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم.

والحظ: ما سوى مراد الله الدينى منك، كائنا ما كان. وهو ما يبرح حظا محرما إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب، غيره أحب إلى آلله منه. ولايتميز هذا إلا فى مقام الرسوخ فى العلم بالله وأمره، وبالنفس وصفاتها وأحوالها.

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق. ويفر من الحظ إلى التجريد. وأكثر الناس لايصلح لهم هذا. لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه.

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لايقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله، ولايفرح بما حصل له دون الله، ولايأسى على ما فاته سوى الله، ولايستغنى برتبة شريفة، وإن عظمت عنده أو عند الناس. فلا يستغني إلا بالله. ولايفتقر إلا إلي الله. ولايفرح إلا بموافقته لمرضاة الله. ولا يحزن إلا علي ما فاته من الله. ولايخاف إلا من سقوطه من عين الله، واحتجاب الله عنه. فكله بالله، وكله لله. وكله مع الله. وسيره دائماً إلى الله. قد رفع له علمه فشمر إليه. وتجرد له مطلوبه فعمل عليه. تناديه الحظوظ: إليّ، وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لى حصل لى كل شئ وإذا فاتنى فاتنى كل شئ. فهو مع الله مجرد عن خلقه. ومع خلقه مجرد عن نفسه. ومع الأمر مجرد عن الحظ المزاحم للأمر. وأما الحظ المعين على الأمر: فإنه لايحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه.

وهذا أيضاً موضع غلط فيه من غلط الشيوخ، فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة.

والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان، حظ يزاحم الأمر، وحظ يؤازر الأمر فينفذه. فالأول هو المذموم. والثاني ممدوح. وتناوله من تمام العبودية. فهذا لون وهذا لون.

(١١) منزلة السماع

ومن منازل «إياك نُعبد وإياك نستعين» منزلة « السماع »

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال: ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه و السماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله: ﴿ أفلا يسمعون ﴾ وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا - الآية ﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع. وتحريكه عنها: طلباً وهرباً وحباً وبغضاً. فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه، ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لايسمع بغيره. كما فى الحديث الإلهى الصحيح «**فبى يسمع وبى يبصر**» وهذا أعلى سماعا، وأصح من كل أحد.

والكلام فى «السماع» - مدحاً وذماً- يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار. والحق والباطل. والممدوح والمذموم.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه. وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضى عنهم به.

الثانى: مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لايحبه ولايبغضه. ولا مدح صاحبه ولا ذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالايعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله ديناً وقربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله، وضاهى بذلك المشركين.

السماع الإيمانى

فأما النوع الأول: فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه. وأمر وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا. وهم القائلون فى النار: ﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التى أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع. سماع إدراك بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة فى القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن قولهم: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** ﴾ [الجن: ١، ٢] وقوله: ﴿ **يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ** ﴾ [الأحقاف: ٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٣] أى لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع

الإدراك «ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» أى ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا. لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة. وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] أى قابلون منهم مستجيبون لهم.

والمقصود: أن سماع المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً، وتدبراً وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لاسماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لاسماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لاسماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح. ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومنادٍ ينادى للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قِبل فالق الإصباح «حي على الفلاح ،حى على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة فى آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غى، وبصيرة من عمى، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثاً على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق ، وإبطال باطل.

فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، وعندئذ تزدحم معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه، فما شئت من علم وحكمة، وبصيرة وهداية، فيزداد حثاً لنفسه وسفراً إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذى جعل وسيلة إليها. وهو الحق سبحانه. فإنه غاية كل مطلب ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] وليس وراء الله مرمى، ولا دونه مستقر. ولا تقر العين بغيره ألبتة. وكل مطلوب سواه فظل زائل، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور.

السماع المذموم

وسماع آخر يبغضه الله ويكرهه. ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد فى قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده. فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادنى حباً له: سمعى حديث سواكا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [القصص: ٥٥] وقوله: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته. فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لايشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه. فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طوَّل عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب.

ثقل الكتاب عليهم لمـا رأوا تقييده بأوامـر ونواهى

وعليهم خف الغنا لمـا رأوا إطلاقه فى اللهو دون مناهى

يا فرقة ماضَرَّ دين محمـد وجنى عليه وملَّه إلا هى

سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى زجراً وتخويفاً بفعل مناهى

ورأوه أعظـم للنفس عن شهواتها. يا ويحها المتناهى

وأتى السماع موافقاً أغراضها فأجل ذاك غدا عظيم الجـاه

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع مباح، بكونه مستلذاً طبعاً. تلذه النفوس، وتستروح إليه. وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة. فيهون عليه بالحُداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة فى خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٩]. وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة. فقال فيه: ﴿ **فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ﴾ [الروم: ١٥] وأن ذلك هو السماع الطيب. فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشئ كأذنه- أى

كاستماعه- لنبى حسن الصوت يتغنى القرآن. وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت. وقال: «**لقد أوتى هذا مزماراً من مزاميز آل داود**» فقال له أبو موسى: «لو علمت أنك استمعت لحبّرته لك تحبيرا» أي زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**».

وبقوله ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**» والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت. وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع.

وبأن النبى ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد. وقال لأبى بكر: «**دعهما. فإن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا أهل الإسلام**».

وبأنه ﷺ أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهواً. وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء، وأذن فيه. وكان يسمع أنساً والصحابة، وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق.

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة. وحدا به الحادى في منصرفه من خيبر. فجعل يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينا

ونحن إن صيح بنا أتينا   وبالصياح عوَّلوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله.

وسمع قصيدة كعب بن زهير، وأجازه ببرده.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه.

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه.

وصَدَّق لبيدا فى قوله: «ألا كل شئ ما خلا الله باطل».

ودعا لحسان «**أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه**» وكان يعجبه شعره. وقال له «**اهْجُهُمْ، وروح القدس معك**».

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة.

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام. وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحا. وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوب الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة.

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع. وتعلق بما لامتعلق به. فإن جهة كون الشئ مستلذاً للحاسة ملائما لها، لايدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون فى الحرام، والواجب، والمكروه، والمستحب، والمباح. فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جملتها إلا لذيذة تلذ السمع؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه.

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة فى النعمة. والله خالقها. ومعطى حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا إلا مذهب الإباحة

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حل أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به في الجنة.

أما القصائد التى مُدح بها الله ورسوله ودينه وكتابه، وهُجى بها أعداؤه، فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها. وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها. وحرض حساناً عليها. وهى التى غرّت أصحاب السماع الشيطانى. فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد. فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام. والتسبيح كلام. والغيبة كلام. والدعاء كلام، والقذف كلام.

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن، وأذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له.

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القد والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق، وما جري هذا المجرى. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما.

وأعجب من هذا: استدلاهم على إباحة السماع- المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية- بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، فى وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم. فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك «مزموراً من مزاميز الشيطان» وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة فى إنشادهما. ولااستماعهما. أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على مالايخفى. فيا سبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان، والأوتار والعيدان؟

والذى يفصل النزاع في حكم هذه المسألة أن تعلم أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أو ذوق من الأذواق، هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحيه الذى تتلقي أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله

فليس على شئ من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور: ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [النور: ٣٩].

فإذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شئ: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة. فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي، ولاسيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب، وهو رقية له ورائد وبريد. فهذا لايشك فى تحريمه أولو البصائر. فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء- كما قال ابن مسعود رضى الله عنه- هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبى إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب إلا ولا، ولا شيخ إلا والا. والعيان من ذلك يغني عن البرهان.

وإذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بموجود. وله بمقتضي هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء، وهى للسابقين. والصبر، وهى لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر. والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون وأصحاب يمين. فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضى الله عنه: «**إنما نهيت عن صوتين أحمقين، فاجرين: صوت ويل عند مصيبة. وصوت مزمار عند نعمة**».

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع الإمعان في تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلا. إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات. ويلبس محبة سماع الآيات. ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شئ، ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى ... إلى غاية ما فوقها لى مطلب

فلما تلاقينا. وعاينت حسنها ... تيقنت أنى إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لايمترى فيه إلا أبعد الناس عن العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذى هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النائحة- وقد ضربها حتى بدا شعرها- وقال: «لاحرمة لها. إنها تأمر بالجزع. وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر. وقد أمر الله به. وتفتن الحى وتؤذى الميت. وتبيع عبرتها. وتبكى شجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذى شاهدناه- نحن وغيرنا- وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء.

ذلك أنهم باللهو والغناء يقلبون حياتهم من الجد إلى اللعب والسخرية. ومن الرشد إلى السفه والغى. ومن القوة إلى الضعف والوهن. فإن حياة الغناء واللهو واللعب لابد تحلل عناصر القوة والنشاط العلمى والعملى الذى لا نجاح للأمة ولا قوة لها إلا به. فتضعف صناعياً واقتصادياً وزراعياً وعسكرياً فضلاً عن انهيارها الخلقى، وشدة تعرضها للعنة الله. ويصبح أمرها فرطا. لأن قلوبها غفلت عن الحق فى سنن الله وآياته وحكمته. واتبعت هواها. فهوى بها إلى درك الوهن والضعف.

(١٢) منزلة الخوف

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخوف»

وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهى فرض على كل أحد. قال الله تعالى: ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ - إلى قوله- أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)** ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١] وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت: «**يارسول الله، قول الله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الذى يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق. ويخاف أن لايقبل منه**» قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. أن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة علي مجارى الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨] فهى خوف مقرون بمعرفة. وقال النبى ﷺ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**».

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك، له حالتان.

إحداهما: حركة للهرب منه، وهى حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره فى مكان لايصل إليه فيه. وهى الخشية. ومنه انخش الشئ، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضي البازى وتقضض.

وأما « الرهبة » فهى الإمعان في الهرب من المكروه. وهى ضد « الرغبة » التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه.

وبين الرهب والهرب تناسب فى اللفظ والمعني. يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذى هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع.

وأما « الوجل » فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما « الهيبة » : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين. والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبي ﷺ : **«إنى لأعلمكم بالله. وأشدكم له خشية» وفي رواية «خوفاً»** وقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلي الصُّعدات تجأرون إلي الله تعالى»**.

فصاحب الخوف: يلتجئ إلى الهرب، والإمساك. وصاحب الخشية: يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم. ومثلهما مثل من لا علم له بالطب. ومثل الطبيب الحاذق. فالأول يلتجئ، فى الحمية والهرب. والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقوّم به الشاردين عن بابه. قال: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر. وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل. فإنك إذآ خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

• قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها. وطرد الدنيا عنها. وقال ذو النون: الناس على الطريق مالم يزل عنهم الخوف. فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصودا لذاته. بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل. ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال. والمحبة تتعلق بالذات والصفات. ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم. ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل . فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال أبو عثمان : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول : الخوف المحمود : ماحجزك عن محارم الله .

وقال صاحب المنازل الشيخ الهروى رحمه الله : « الخوف : هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر »

يعنى الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

قال : « وأول الخوف : الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذى يصح به الإيمان . وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العافية » .

والخوف مسبوق بالشعور والعلم . فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به .

وله متعلقان . أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه . والثانى : السبب والطريق المفضى إليه . فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلي المخوف، وبقدر المخوف يكون خوفه . وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضى إلى محذور كذا، لم يخف منه ذلك السبب . ومن المعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره، لم يخف منه ذلك الخوف . فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن افضاء السبب إليه، حصل له الخوف .

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد، وذكر الجناية .

وفى مراقبة العاقبة زيادة استحضار المخوف، وجعله نصب عينه، بحيث لا ينساه . فإنه وإن كان عالماً به- لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف . فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان . وترحله من القلب علامة ترحل الإيمان منه . والله أعلم .

ومن الخوف المحمود : خوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة، المشوبة بالحلاوة .

يريد : إن من حصلت له اليقظة بلا غفلة، واستغرقت أنفاسه فيها استحلى ذلك . فإنه لا أحلى من الحضور فى اليقظة . فإنه ينبغى أن يخاف المكر، وأن يسلب هذا الحضور، واليقظة والحلاوة، فكم من مغبوط بحالة انعكس عليه الحال . ورجع من حسن المعاملة إلي قبيح الأعمال . فأصبح يقلب كفيه ويضرب باليمن على الشمال؟ بينما بدْرُ أحواله مستنيراً فى ليالي التمام . إذ أصابه

الكسوف فدخل فى الظلام. فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة، وبالإقبال إعراضاً، وبالتقريب إبعادا، وبالجمع تفرقة.

تكامل الخوف والرجاء

القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتي قطع الرأس مات الطائر ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا أن يقوى فى الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة أبى سليمان وغيره.

قال: ينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف. فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هى المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائق. والله الموصل بمنه وكرمه.

(١٣) منزلة الإشفاق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإشفاق»

قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال تعالى: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)**﴾ [الطور: ٢٥ – ٢٧].

«الإشفاق» رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

وبدايته: إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد، أو أن تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية. ثم هو إشفاق على العمل أن يصير إلي الضياع.

فيخاف على عمله أن يكون من الأعمال التى قال الله فيها: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣] وهى الأعمال التى كانت لغير الله وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ. ويخاف أيضا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصى تفرقه وتحبطه. فيذهب ضائعاً. ويكون حال صاحبه كحال التى قال الله تعالي عن أصحابها: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ – الآية**﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضى الله عنهم: «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أولا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسى منها شئ يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخى قل. ولا تحقرن نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلا لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غنى يعمل بطاعة الله فبعث الله إليه الشيطان. فعمل بالمعاصى حتى أغرق جميع أعماله».

وأوسطه: إشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق.

أى يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عز وجل، وعلى القلب أن يزاحمه عارض.

والعارض المزاحم: إما فترة، وإما شبهة، وإما شهوة، وكل سبب يعوق السالك.

ونهايته: إشفاق يصون سعيه عن العجب، ويكف عن مخاصمة الخلق، ويحمل صاحب الإرادة على حفظ الجدّ.

فالعجب : يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والمخاصمة للخلق: مفسدة للخُلُق. فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والإرادة: يفسدها عدم الجد. وهو الهزل واللعب، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله. والله المستعان.

(١٤) منزلة الخشوع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخشوع»

قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [الحديد: ١٦] قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝** ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿ **وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ** ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [فصلت: ٣٩].

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وردَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح. وهي تظهره. و«**رأى النبي ﷺ رجلا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خضع قلب هذا لخشعت جوارحه**» وقال النبي ﷺ: «**التقوي ههنا - وأشار إلى صدره- ثلاث مرات**» قال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأي بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لا ههنا. وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة- رضي الله عنهم- وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «ياصاحب الرقبة، ارفع رقبتك،

ليس الخشوع فى الرقاب. إنما الخشوع فى القلوب». «ورأت عائشة - رضى الله عنها- شبابا يمشون ويتماوتون فى مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء. فقالوا : نسّاك. فقالت كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال أسمع. وإذا ضرب أوجع. وإذا أطعم أشبع. وكان هو الناسك حقاً». وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما فى قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً». وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

الخشوع تذلل واستسلام

وجماع الخشوع: التذلل للأمر، والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق.

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال، ومواطاة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل، وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم الشرعى: فبعدم معارضته برأي أو شهوة.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما فى القلب والجوارح وهذا أحد التأويلين فى قوله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠] وهو مقام الرب على عبده بالإطلاع والقدرة الربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة. وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً. وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثاني :-وهو أليق بالآية- يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف.

واعلم أن نمو الخشوع إنما يكون بترقب آفات النفس والعمل، ورؤية كل ذى فضل عليك، فإن انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك يجعل القلب خاشعاً لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما؛ من الكبر والعجب، والرياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفسانى، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذى ترضاه لربك، وغير ذلك من عيوب النفس، ومفسدات الأعمال.

وأما رؤية فضل كل ذى فضل عليك: فهو أن تراعى حقوق الناس فتؤديها. ولا ترى أن مافعلوه من حقوقك عليهم. فلا تعارضهم عليها. فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك. وتعترف بفضل ذى الفضل منهم. وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً ولا يشهد له على غيره فضلا. ولذلك لايعاتب، ولايطالب، ولايضارب.

افتقار واستتار

ويكمل الخشوع بتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل، فيخفى أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها. فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع فى هذه المفازة من سالك؟ والعصوم من عصمه الله. فلا شئ أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شئ. وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعى الشرف فيه.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيراً: مالى شئ، ولا منى شئ، ولا فيّ شئ. وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدّى وابن المكدى   وهكذا كان أبى وجدى

وكان إذا أثنى عليه فى وجهه يقول: والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليّ فى آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه. وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات   أنا المسيكين فى مجموع حالاتى

أنا الظلوم لنفسى. وهى ظالمتى   والخير إن يأتنا من عنده يأتى

لا أستطيع لنفسى جلب منفعة   ولا عن النفس لى دفع المضرات

والفقر لى وصف ذات لازم أبدا   كما الغنى أبدا وصف له ذاتى

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم   وكلهم عنده عبد لى آتي

وأما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لايرى الفضل والإحسان إلا من الله. فهو المانُّ به بلا سبب من العبد، ولا وسيلة سبقت منه توسل بها إلى إحسانه، بل أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه، وبفضله عليه من غير استحقاق منه. ولابذل عوض استوجب به ذلك. كما قال تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكذلك يشهد أن مازوى عنه من الدنيا، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح. كما قال بعض السلف: «يا ابن آدم، لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوى عنك؟» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت. إن كان الغنى، إن فيه للشكر. وإن كان الفقر، إن فيه للصبر» وقال بعض السلف: «نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها. إنى رأيته أعطاها قوما فاغتروا».

(١٥) منزلة الإخبات

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخبات»

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤] ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٥] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

و«الْخَبْت» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون. وقال الكلبى: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمر بن أوس: هم الذين لايظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عُدِّى بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

وهو من أول مقامات الطمأنينة.

كالسكينة، واليقين، والثقة بالله ونحوها. فالإخبات: مقدمتها ومبدؤها. وبه يكون ورود المأمن من الرجوع والتردد.

إذ لما كان «الإخبات» أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد– الذى هو نوع غفلة وإعراض– والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدى أنفاسه. لاينتهى مسيره إليه مادام نفسه يصحبه– كان حصول الإخبات له كالماء العذب الذى برده المسافر على ظمأ وحاجة فى أول مناهله. فيرويه مورده، ويزيل عنه خواطر تردده فى إتمام سفره، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر. فإذا ورد ذلك الماء، زال عنه التردد، وخاطر الرجوع . كذلك السالك إذا ورد مورد «الإخبات» تخلص من التردد والرجوع، . ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره، وجَدَّ فى السير.

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة ويستهوى الطلب السلوة.

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف إرادته، وشهوة تعارض إرادته، فتصده عن مراده. ورجوع عن مراده وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه من هذه الثلاثة. فتستغرق عصمتُه شهوتَه.

و« العصمة » هى الحماية والحفظ. و« الشهوة » الميل إلى مطالب النفس. و« الاستغراق » للشئ الاحتواء عليه والإحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفى جميع أجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة، فذلك دليل على إخباته. ودخوله فى مقام الطمأنينة، ونزوله أول منازلها، وخلاصه فى هذا المنزل من تردد الخواطر بين الإقبال والإدبار، والرجوع والعزم، إلى الاستقامة والعزم الجازم، والجد في السير، وذلك علامة السكينة.

وتستدرك إرادته غفلته. و« الإرادة » عند القوم: هى اسم لأول منازل القاصدين إلى الله. و« المريد » هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. وأخذ في السفر إلى الله، والدار الآخرة. فإذا نزل في منزل « الإخبات » أحاطت إرادته بغفلته. فاستدركها. واستدرك بها فارطها.

وأما « استهواء طلبه لسلوته » فهو قهر محبته لسلوته، وغلبتها له. بحيث تهوى السلوة وتسقط، كالذى يهوى فى بئر. وهذا علامة المحبة الصادقة: أن تقهر فيه وارد السلوة، وتدفنها في هوة لا تحيا بعدها أبداً.

فالحاصل: أن عصمته وحمايته تقهر شهوته. وإرادته تقهر غفلته. ومحبته تقهر سلوته.

الدرجة الثانية: أن لايوحش قلبه عارض، ولايقطع عليه الطريق فتنة.

و« العارض » هو المخالف. كالشئ الذى يعترضك فى طريقك. فيجئ في عرضها. ومن أقوى هذه العوارض: عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت إليه، كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش فى طريقك من قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما « الفتنة » التى تقطع عليه الطريق: فهى الواردات التى ترد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده، فإذا تمكن من منزل « الإخبات » وصحة الإرادة والطلب، لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لاتصح إلا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات. وتجلت عليه معانيها.

الدرجة الثالثة: أن يستوى عنده المدح والذم، وتدوم لائمتُه لنفسه.

فاعلم أنه متى استقرت قدم العبد فى منزلة « الإخبات » وتمكن فيها، ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم، فلا يفرح بمدح الناس. ولايحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه.

وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات. وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب، وخلوه من الله، وإنه لم تباشره روح محتبه ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

ولايذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه. والله لو تحقق الناس فى هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة. وقالوا: هذا مبتدع، ومن دعاة البدع. فرلى الله المشتكى. وهو المسئول الصبر، والثبات. فلابد من لقائه ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه: ٦١] ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

والمراد بالنفس عند القوم: ما كان معلولاً من أوصاف العبد، مذموماً من أخلاقه وأفعاله. سواء كان ذلك كسبياً، أو خلقياً، فهو شديد اللائمة لها. وهذا أحد التأويلين فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢] قال سعيد بن جبير وعكرمة: تلوم على الخير والشر. ولا تصبر على السراء ولا على الضراء.

وقال قتادة: اللوامة: هى الفاجرة.

وقال مجاهد: تندم على مافات، وتقول: لو فعلت؟ ولو لم أفعل؟

وقال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها: إن كانت عملت خيراً قالت: هلا زدت؟ وإن عملت شراً قالت: ليتنى لم أفعل.

وقال الحسن: هى النفس المؤمنة. إن المؤمن- والله- ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وأن الفاجر يمضي قدماً، ولايحاسب نفسه ولايعاتبها.

وقال مقاتل: هى النفس الكافرة، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت فى أمر الله في الدنيا.

والقصد: إن من بذل نفسه له بصدق كره بقاءه معها. لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له. ولأنه قد قربها له قرباناً. ومن قرّب قرباناً فتقبل منه ليس كمن ردّ عليه قربانه. فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه.

فالنفس جبل عظيم شاق فى طريق السير إلى الله عز وجل. وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلابد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه. وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفى ذلك الجبل أودية، وعقبات، وشوك، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين. ولاسيما أهل الليل المدجلين. فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع. وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير.

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قلة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه. ويخوفهم منه. فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلته. وضعف عزيمة السائر ونيته. فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع. والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رقى السائر فى ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قمته: انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً. وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقباتها. ويري طريقاً واسعاً آمنا، يفضى به إلى المنازل والمناهل. وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أعدت لركب الرحمن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(١٦) منزلة الزهد

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الزهد»

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ [الحديد: ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ - الآية﴾ [يونس: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ - إلى قوله- وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] وقال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف: ٧، ٨] وقال: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ - إلى قوله- وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

والقرآن مملوء من التزهيد فى الدنيا، والأخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها، والترغيب فى الآخرة، والأخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام فى قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ماهو أولى بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام فى «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه. ونطق عن حاله وشاهده. فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم، أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: الزهد ترك مالا ينفع فى الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى «الزهد، الورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثورى: الزهد فى الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء.

ذلك أن الزهد في الشئ في لغة العرب - التى هى لغة الإسلام- الانصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يجئ في القرآن إلا فى شأن الذين شروا يوسف:

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان في هذه الحياة، بما جعله بلاء وعوناً للمهتدين على الإيمان والهدي وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقياً صالحاً للآخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان، عند الغافلين الكافرين. الزهد في ذلك: إعراض عن نعم الله وتحقير لها. وليس هذا من هدى رسول الله ﷺ، ولا هدى أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] فالزاهد لايفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الخلاء: الزهد هو النظر إلي الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها. ولا حزنه على إدبارها. فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم. على شريطة أن لايفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التتبع.

وقال يحيى بن معاذ: لايبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقيل: الزهد الإيثار عند الاستغناء، والفتوة الإيثار عند الحاجة. قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[الحشر: ٩].

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتى على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته. وهو من أجمع الكلام. وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العِلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعى رحمه الله بإمامته فى ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذى أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبد الله بن المبارك. وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السرى، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء، لايستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهى المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك. فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما. ولهما من المال والملك والنساء ما لهما. وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق. وله تسع نسوة. وكان على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان- رضى الله عنهم- من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال. وكان الحسن بن على رضى الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم. وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة- إذا أصبت بها- أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه. وقد روى مرفوعاً.

سنة الزهد ماضية

وقد اختلف الناس فى «الزهد» هل هو ممكن فى هذه الأزمنة أم لا؟

فقال أبو حفص: الزهد لايكون إلا فى الحلال. ولا حلال في الدنيا ، فلا زهد.

وخالفه الناس في هذا. وقالوا: بل الحلال موجود فيها. وفيها الحرام كثيراً، وعلى تقدير: أن لايكون فيها الحلال، فهذا أدعى إلى الزهد فيها، وتناول ما يتناوله المضطر منها، كتناوله للميتة والدم ولحم الخنزير.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغنى أن رجلا بلغ في الزهد منزلة أبى ذر وأبى الدرداء وسلمان

والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد . لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض. والحلال المحض لايوجد في زماننا هذا. وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال. لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لايكون إلا في الحرام. وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يري أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقاً إلى جنته، أفضل من الزهد فيها، والتخلي عنها، ومجانبة أسبابها.

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكراً الله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله أعلم.

استبراء واستعلاء

وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد فى الشبهة، بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفساق.

أما الزهد في الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل حلال، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: «**الحلال بين، والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات. لايعلمهن كثير من الناس. فمن اتقي الشبهات اتقي الحرام. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. ألا وهى القلب**».

ثم يأنف لنفسه من نقصه عند ربه، وسقوطه من عينه. لا أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من أعينهم. وإن كان ذلك ليس مذموماً، بل هو محمود أيضاً. ولكن المذموم: أن تكون أنفته كلها من الناس، ولايأنف من الله.

أما كراهة مشاركة «الفساق» فذلك أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة فى الدنيا. ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام. فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف. ويرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذى زهدك فى الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

إذا لم أترك المـــــاء اتقاء تركت لكثرة الشـــركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدى ونفسى تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود مـاء إذا كان الكلاب يلغــن فيه

بناء.. فى سكون

الدرجة الثانية: اغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش.

إذ لما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى خوفا من المعتبة، وحذراً من المنقصة، كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله. لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت. فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

وعمارة الوقت: الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو منكح، أو منام، أو راحة. فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.

بل لاتحسب أن عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب. فإن عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله، بالزراعة والصناعة، والعمل فى عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والعدد والعدد، لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الإسلام، ومد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكل ومشرب وملبس، وغير ذلك مما يهيئ الحياة الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة، لتكون في جو وبيئة صالحة كريمة، لإنشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين، عاملين لقوة الأمة وعزتها، وكذلك التمهر في الصناعات والحرف التى تسبق بها الأمة غيرها في مضمار العمران، كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به، ينبغى أن يعمر الوقت به.

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبى فى حال أكله وشربه، وراحته، أقوى من سيره البدنى فى بعض الأحيان.

ولاريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وجمعيتها، وزال تشتتها.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبة ورهبة، وحباً وبغضاً، وسعياً. فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه. بأن لايلتفت إليها،

ولايتعلق بها في حالتى مباشرته لها وتركه. فإن الزهد زهد القلب، لازهد الترك من اليد وسائر الأعضاء. فهو تخلى القلب عنها. لا خلو اليد منها.

زهد بماذا.. وما ثَمَّ شئ!!

الدرجة الثالثة: الزهد فى الزهد. وهو بثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب.

فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة أشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لايرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً. لأن الدنيا بحذافيرها لاتساوى عند الله جناح بعوضة. فالعارف لايرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له، فيستحى من صح له الزهد أن يجعل ما تركه الله قدراً يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه. ويستحى من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يري ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهداً فى حال أخذه، كما هو زاهد فى حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركا، لصغره فى عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً. بل الله وحده هو المعطى المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء فى النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالي هو الذى منعه منه. فيذهب بمشاهدة الفعّال وحده عن شهود كسبه وتركه.

(١٧) منزلة الورع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الورع»

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعى والضحاك، والشعبى، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى:

وإنى– بحمد الله– لا ثوب غادر   لبست. ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أبى بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت بر طاهر.

وقال الضحاك: عملك فاصلح. قال السدى: يقال للرجل، إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرظى: وخلقك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التى لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لايتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاووس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها.

والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدى الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما فى الآخر. ولهذا نهي عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر فى القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس فى الثياب أمر خفى. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها. حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما.

وقد جمع النبى ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» فهذا يعم الترك لما لا يعنى من الكلام،والنظر والاستماع، والبطش، والمشى، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال اسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه فى الذهب والفضة، والزهد فى الرياسة أشد منه فى الذهب والفضة، لأنهما يبذلان فى طلب الرياسة.

وقال أبو سليمان الدارانى: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحيي بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، وقال: الورع على وجهين، ورع في الظاهر، وورع فى الباطن. فورع الظاهر: أن لايتحرك إلا لله، وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه. وقال: من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

وقال سفيان الثورى: ما رأيت أسهل من الورع، ماحاك في نفسك فاتركه.

وقال سهل: الحلال هو الذى لايعصى الله فيه، والصافى منه الذى لا ينسي الله فيه. وسأل الحسن غلاماً. فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. فعجب الحسن منه.

وقال أبو هريرة: جلساء الله غدا أهل الورع والزهد.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس.

انتباه القلب يصون الجوارح

قال صاحب المنازل شيخ الإسلام الهروى:

«الورع: توقٍ مستقصى على حذر. وتحرّج علي تعظيم».

يعنى أن يتوقى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي. لأن التوقى والحذر متقاربان. إلا أن «التوقى» فعل الجوارح. و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشئ لا على وجه الحذر والخوف، ولكن لأمور أخرى: من إظهار نزاهة، وعزة وتصوف، أو اعتراض آخر، كتوقي الذين لايؤمنون بمعاد، ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة، تصوناً عنها. ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها، وطلباً للمحمدة، ونحو ذلك.

وقوله« وتحرج على تعظيم » يعنى أن الباعث على الورع من المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد. وإما تعظيم الرب جل جلاله، وإجلالا له أن يتعرض لما نهي عنه.

فالورع عن المعصية: إما تخوفا، أو تعظيما. واكتفي بذكر التعظيم عن ذكر الحب الباعث على ترك معصية المحبوب. لأنه لا يكون إلا مع تعظيمه. وإلا فلو خلا القلب من تعظيمه لم تستلزم محبته ترك مخالفته، كمحبة الإنسان ولده، فإذا قارنه التعظيم أوجب ترك المخالفة.

والورع عموما يبعث على تجنب القبائح، لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان. فهذ ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزرى بها عند الله عز وجل وملائكته، وعبادة المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها فى أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغر ت عنده ألقاها فى الرذائل. وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما فى تجنب القبائح: صون النفس.

وأما « توفير الحسنات » فمن وجهين.

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التى كان مستعداً لتحصيلها.

والثانى: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعاً، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يتسغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

وأما « صيانة الإيمان » فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعى وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وإضعاف المعاصى للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد- كما جاء في الحديث- «**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب واستغفر صقل قلبه. وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه**». وذلك الران الذى قال الله تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين: ١٤] فالقبائح تسود القلب. وتطفئ نوره. والإيمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعاً. فالحسنات تزيد نور القلب. والسيئات تطفئ نور القلب. وقد أخبر الله عز وجل أن كسب القلوب سبب للران الذي

يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا. فقال: ﴿ **وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا** ﴾ [النساء: ٨٨] وأخبر أن نقض الميثاق الذى أخذه على عباده سبب لتقسية القلب. فقال: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا** ﴾ [المائدة: ١٣] **فجعل** ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة- وهى صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان- هى أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به.

رجال المراتب العالية

ويرتقي الورع بصاحبه حتى يؤدى به إلى حفظ الحدود عندما لابأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وتخلصاً عن اقتحام الحدود.

فمن صعد إلى هذه الدرجة من الورع: يترك كثيراً مما لابأس به من المباح، إبقاء على صيانته، وخوفاً عليها أن يتكدر صفوها. ويطفأ نورها. فإن كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة، ويذهب بهجتها ، ويطفىء نورها. ويخلق حسنها وبهجتها.

وقال لى يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- فى شئ من المباح: هذا ينافى المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة. أو نحو هذا من الكلام.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته. ولاسيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام.

والفرق بين صاحب الورع العام وصاحب هذا: أن ذلك يسعى فى تحصيل الصيانة. وهذا يسعى فى حفظ صفوها أن يتكدر، ونورها أن يطفأ ويذهب.

وأما التخلص عن اقتحام الحدود ، فالحدود: هى النهايات. وهى مقاطع الحلال والحرام. فحيث ينقطع وينتهى، فذلك حده. فمن اقتحمه وقع في المعصية. وقد نهى الله تعالى عن تعدى حدوده وقربانه. فقال: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا** ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقال: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال. حيث نهى عن القربان فالحدود هناك: أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم.

فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدى هذه. وهو اقتحام الحدود.

الثمرات الطيبة

واعلم أن الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضاء. والذكر يثمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يثمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. الورع يثمر الزهد أيضاً. والتوبة تثمر المحبة أيضاً، ودوام الذكر يثمرها. والرضا يثمر الشكر. والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات. والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه. والعفة تثمر الخلق. والفكر يثمر العزيمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء، والخشية والإنابة، وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل. واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه فى وطن الآخرة. ثم تقبل به كله علي معانى القرآن واستجلائها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لايلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم. ولايعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها. والله المستعان.

(١٨) منزلة التبتل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التبتل»

قال الله تعالي: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[المزمل: ٨].

و«التبتل»: الانقطاع. وهو تَفَعَّل من البتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل- مصدر تفعل- لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدرج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى الفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلا، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير فى القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

فالتبتل: الانقطاع إلى الله بالكلية. وقوله عز وجل ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[الرعد: ١٤] أى التجريد المحض، أى التبتل عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذى لايخدم إلا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله: ﴿له دعوة الحق﴾في هذا الموضع، فيه إرادة هذا المعنى، وإنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعية بها ثواباً. فإنه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويُقصد ويشكر ويحمد، ويُحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويُلجأ إليه، ويصمد إليه. فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا- معرفة وذوقا وحالا- صح له مقام التبتل، والتجريد المحض. وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى.

فقال على رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد». وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالإخلاص. والدعاء الخالص لايكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

اتصال .. وانفصال

و«التبتل» يجمع أمرين: اتصالا وانفصالا. لايصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله، أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه.

والاتصال : لايصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإنابة وتوكلا.

والذى يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضا بحكم الله عز وجل وقسمه لك، فمن رضى بحكم الله وقسمه، لم يبق لرجاء الخلق فى قلبه موضع.

والذى يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله. فإن من سلم لله واستسلم به، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً. فإن نفسه التى يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها. وعلم أنه لايصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفى التسليم أيضاً فائدة لطيفة. وهى أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده. وأحرزها في حرزه. وجعلها تحت كنفه. حيث لا تنالها يدُ عدو عادٍ ولا بغى باغٍ عاتٍ.

فهذا هو الانقطاع عن الخلق، ولكن التبتل لايكتمل حتى يكون انقطاع المتبتل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتنسم روح الأنس، فإن فى مجانبة الهوى ومخالفته ونهى نفسه عنه: تنسم روح الأنس بالله، والرَّوح للرُّوح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الروَّح لما أعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم روح الأنس بالله، ويجد رائحته إذ النفس لابد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها، وجدت روح الأنس بالله، وهبت عليها نسماته، فريَّحتها وأحيتها، وجعلت صاحبها حبساً على مراد الله الدينى الأمرى النبوى منه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغى، فينغمس فيهم، يمزقون أديمه، ويرمونه بالعظائم، ويخيفونه بأنواع المخاوف، ويتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم. يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد في مدحهم وثنائهم، يصيح فيهم بالنصائح جهاراً. ويعلن لهم بها، ويسر لهم إسراراً.

(١٩) منزلة الرجاء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرجاء»

قال الله تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف، والرجاء. قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفى صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث - «**لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» وفى الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بى ما شاء**».

«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمنى» أن «التمنى» يكون مع الكسل. ولايسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لايصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها. فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا. يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره. ونظر يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل فى حد «الرجاء»: هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء فى العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجيا لتمام النعمة من الله عليه فى الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا، أى الرجاءين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسئ التائب مغفرة ربه وعفوه؟

فطائفة رجحت رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد من علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيي بن معاذ: يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدنى في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف؟

وقال أيضا: إلهى، أحلى العطايا فى قلبى رجاؤك. وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك . وأحب الساعات إلىّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

مبنى المحبة على الرجاء

والرجاء من أجلّ المنازل، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله. وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾** [الأحزاب: ٢١].

وفى الحديث الصحيح الإلهى عن النبى ﷺ - فيما يروى عن ربه عز وجل- **«يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى»** وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه. إذا ذكرنى في نفسه، ذكرته فى نفسى. وإن ذكرنى في ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم. وإن اقترب إليّ شبراً، اقتربت إليه ذراعاً. وإن اقترب إليّ ذراعاً، اقتربت إليه باعاً. وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»** رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه. فقال تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ**

رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دونى هم عبادى، يتقربون إليّ بطاعتى، ويرجون رحمتى، ويخافون عذابى، فلماذا تدعونهم من دونى؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البر» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدرى ومن حيث لايدرى. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه. ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح. وهدمت صوامع، وبيع وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات ولى من أبيات:

لولا التعلق بالرجـــاء تقطعت	نفس المحـب تحســـراً وتمزقاً
وكذلك لولا برده بحـــرارة الـ	ـأكباد ذابت بالحجاب تحـرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى	برجائه بحبيبه متعلقـــــا؟!
أم كلما قـــويت محبتــــه له	قوى الرجاء فزاد فيه تشـــوقا
لولا الرجا يحدو المطى لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتى للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله فى محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتامل هذا الموضع حق التامل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهى مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه. لكن خوف المحب لايصحبه وحشة. بخلاف خوف المسئ، ورجاء المحب لايصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما.

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد. فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها

ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها . ولاينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها .

ويكون الرجي دائماً راغباً راهباً، مؤملاً لفضل ربه، حسن الظن به، متعلق الأمل ببره وجوده . عابداً له بأسمائه « المحسن ، البر ، المعطى، الغفور، الجواد، الوهاب، الرزاق » والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه . ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به .

رب غفور يحب أن نرجوه

وليس فى « الرجاء » ولا فى « الدعاء » معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضاً بما هو أولى وأحب الأمرين إليه، فإن الفضل أحب إليه من العدل، والعفو أحب إليه من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء . والترك أحب إليه من الاستيفاء . ورحمته غلبت غضبه .

فالراجي علق رجاءه بتصرف المحبوب له المرضى له . فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه فى ملكه . بل اقتضي عبوديته، وحصول أحب التصرفين إليه . وهو سبحانه وتعالى لاينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده، حتي يكون رجاؤه مبطلاً لذلك، وإنما العبد استدعى العقوبة، وأخذ الحق منه لشركه بالله وكفره به . واجتهاده فى غضبه . ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات- والعبد مؤثر لها- ساع في تحصيلها، عامل عليها بإيثاره إياها وسعيه في أسبابها . فهو المهلك لنفسه، وربه يحذره ويبصره ويناديه : هلم إليّ أحمك وأصنك، وأنجك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف . وهو يابى إلا شروداً عليه ونفاراً عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه، ومتطلباً لمرضاة خلقه بمساخطه . رضا المخلوق آثر عنده من رضا خالقه . وحقه آكد عنده من حقه . وخوفه ورجاؤه وحبه فى قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه . فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقاً، بل سد دونه مجاريها بجهده . وأعطى بيده لعدوه، فصالحه وسمع له وأطاع . وانقاد إلى مرضاته . فجاء من الظلم بأقبحه وأشده .

فهو الذى عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته . واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع . ولم يأذن لها فى الدخول عليه . فأضاع حظه وبخس حقه، وظلم نفسه، وعادي حبيبه، ووالى عدوه . وأسخط مَنْ حياته في رضاه . وأرضى مَنْ حياته فى سخطه . وجاد بنفسه لعدوه . وبخل بها عن حبيبه ووليه .

والرب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته . ولا يتشفى بعقابه . ولايزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة . ولا ينقص مغفرته . ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه . كيف، والرحمة أوسع من العقوبة وأسبق من الغضب وأغلب له؟ وهو قد كتب على نفسه

الرحمة. فرجاء العبد لاينقص شيئا من حكمته. ولا ينقص ذرة من ملكه. ولا يخرجه عن كمال تصرفه. ولايوجب خلاف كماله. ولا تعطيل أوصافه وأسمائه. ولولا أن العبد هو الذى سد على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه، لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمله.

وأما استسلام العبد لربه، واستسلامه بانطراحه بين يديه، ورضاه بمواقع حكمه فيه: فيما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقيله عثرته ويعفو عنه، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته. فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد. والانطراح بالباب. ولايتصور هذا بدون الرجاء ألبتة. فالرجاء حياة الطلب. والإرادة روحها.

شبهات اليائسين

وظننت طائفة أن فى الرجاء وقوفاً مع الحظ، والسالكون قد خرجوا عن نفوسهم، فكيف حظوظهم؟

فيا لله العجب!... أى غلط فى رجاء العبد ربه، وطمعه فى بره وإحسانه وفضله، وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه؟ فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه. فإذا كان العبد دائماً مستشرفاً بقلبه، سائلاً بلسانه، طالباً لفضل ربه. فأى خطأ فى ذلك؟ أو لم يبلغهم دعاء النبى ﷺ: «**اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» وقوله لعمه العباس رضى الله عنه: «**يا عباس، ياعمّ رسول الله. سل الله العافية**» وقوله للصديق الأكبر- رضى الله عنه- وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به فى صلاته- «**قل: اللهم إنى ظلمت نفسي ظلماً كثيراً. ولايغفر الذنوب إلا أنت. فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم**». وقوله لصديقة النساء- وقد سألته دعاء تدعو به، إن وافقت ليلة القدر- فقال: «**قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى**» وقوله فى دعائه الذى كان لايدعه، وإن دعا بدعاء أردفه إياه: «**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار**».

وقد أثنى الله تعالى خاصته. وهم أولو الألباب، بأنهم سألوه: أن يقيهم عذاب النار، فقالوا: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال ﷺ لأم حبيبة: «**لو سألت الله أن يجيرك من عذاب النار لكان خيرا لك**» وكان يستعيذ كثيرا من عذاب النار، وعذاب القبر» وأمر المسلمين: أن يستعيذوا في تشهدهم من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيخ الدجال. حتى قيل: إن هذا الدعاء واجب في الصلاة، لاتصح إلا به. قاله ابن حزم وغيره. وهذا أعظم من أن نستقصيه.

وفي المسند عنه ﷺ قال: «**ماسئل الله شيئا أحبّ إليه من سؤال العفو والعافية**» وقال لبعض

أصحابه: «**ماتقول إذا صليت؟ فقال: أسأل الله الجنة. وأعوذ به من النار، أما إنى لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ. فقال رسول الله ﷺ: إنا حولها ندندن**».

الرجاء الولود

وكما أن الرجاء يُبرد حرارة الخوف، فإن له فوائد كثيرة أُخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لايستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله. لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد، أن يرجي، ويؤمل ويسأل. وفى الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة من فوائد الرجاء. وهى التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به فى سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لايحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها. فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجو ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضا به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذى هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجى متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داع بها. قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ينبغى أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التى هى أعظم ما يدعو بها الداعى، فالقدح فى مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء- كما تقدم- فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء. والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف. وكل خائف راج. ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿**مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ [نوح: ١٣] قال كثير من المفسرين: المعنى مالكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لايخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه مارجاه، كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول مالم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قدّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التى هى من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن فى الرجاء- من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله- ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة- كما تقدم بيانه- فإذا فنى عن ذلك وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

ومنها: أن المحب الصادق فى رجائه لابد أن يقارنه أحياناً فرح بمحبوبه. ويشتد فرحه به. ويرى مواقع لطفه به، وبره به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف فى إيصاله المنافع والمسار والمبارّ إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لايقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفى عنه منها أعظم، فيداخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط.

ولا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، والشوق إلى لقائه إلا كثيف الحجاب، حجرى الطباع.

ومنها: سرعة السير، وهذا كمن هو سائر إلى مدينة، فإذا شارفها ورآها، رأى الطريق حينئذ واضحة إليها، واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم- أو ظن- يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة. وأما الآن: فقد أمن من أن يضيع عن الباب. وكذلك الراجى: إذا انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق. طمع بالوصول، وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه. وكحال معاين الشفق الأحمر قرب الشمس، حيث تيقن أن الشمس بعده.

فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ما هو سائر إليه. وهكذا عادة المسافر: أنه إذا عاين القرية التى يريد دخولها أسرع السير، وبذل الجهد. وكذلك المسابق إذا عاين الغاية، استفرغ قوى جريه وسوقه. وكذلك الصادق فى آخر عمره، أقوى عزما وقصداً من أوله، لقربه من الغاية التى يجرى إليها. وكذلك الراجى يتخلص من تخذيل اليأس، فيعاين نعيم الآخرة فيسرع السير إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها. وبالله التوفيق.

قبل الاقتحام.. شوق

واعلم أن أول الرجاء: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد. ويولد التلذذ بالخدمة. ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهى، فينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه. فإنه من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأما توليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها. وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة فى سفره، ويقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها. وكذلك المحب الصادق الساعى فى مراضي محبوبه الشاقة عليه، كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه، وقربه منه، تلذذ بتلك المساعى. وكلما قوى علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلى المسبب المطلوب، وقوى علمه بقدر المسبب وقرب السبب منه، ازداد التذاذا بتعاطيه.

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهى: فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد. ولاتسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها، وأجل عندها منه وأنفع لها. فإذا قوى تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف، سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم. فإن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه. أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب. وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها. فما تركت محبوباً إلا لما هو أحب إليها منه. فإن من قُدم إليه طعام لذيذ يضره ويوجب له السقم. فإنما يتركه محبة للعافية التى هى أحب إليه من ذلك الطعام.

وأعلى من هذا الرجاء: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق المبغض المنغص للعيش، المزهد فى الخلق.

هذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه. وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها.

و« الاشتياق » هو سفر القلب فى طلب محبوبه.

ولا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه. فهناك تقر عينه، ويزول عن عيشه تنغيصه. وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد. لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو أزهد شئ فى الخلق ، إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه. ولا يأنس من الخلق بغيره. ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك. فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحبا. ودع الناس كلهم جانباً.

لا تخف وحشة الطريق إذا جئـ	ـت. وكن في خفارة الحب سائر
واصبر النفس ساعة عن سواهم	فإذا لم تجب لصبر. فصابر
وافطم النفس عن سواه. فكل الـ	ـعيش بعد الفطام نحوك صائر
يا أخا اللب، إنما السير عزم	ثم صبر مؤيد بالبصائر
يا لها من ثلاثة من ينلها	يَرْقَ يوم المزيد فوق المنابر

(٢٠) منزلة الرغبة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الرغبة »

قال الله عز وجل : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] والفرق بين « الرغبة » و« الرجاء » أن الرجاء طمع . والرغبة طلب . فهي ثمرة الرجاء . فإنه إذا رجا الشئ طلبه . والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف . فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه . ومن خاف شيئا هرب منه .

والمقصود : أن الراجى طالب ، والخائف هارب ، وأن الرغبة : هى الرجاء بالحقيقية ، لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق ، أى : طمع في مغيب عن الراجى مشكوك في حصوله ، وإن كان متحققا في نفسه ، كرجاء العبد دخوله الجنة ، فإن الجنة متحققة لا شك فيها ، وإنما الشك في دخوله إليها ، بخلاف الرغبة ، فإنها طلب ، فإذا قوى الطمع صار طلبا .

وأوائلها : رغبة تتولد من العلم ، فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود ، وتصون السالك عن وهن الفترة والكسل .

فهذا الإيمان متصل بمنزلة « الإحسان » ، منه يشرف عليه ويصل إليه . ولهذا كان مقترنا بالشهود ، وذلك الشهود هو مشهد مقام الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، ولا مشهد للعبد فى الدنيا أعلى من هذا .

ولو كان فوق مقام « الإحسان » مقام آخر لذكره النبى ﷺ لجبريل . ولسأله جبريل عنه . فإنه جمع مقامات الدين كلها فى الإسلام والإيمان والإحسان .

وتحقيق مقام الإحسان : أن يفنى بحبه وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه وعبادته ، والتبتل إليه عن غيره . وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق .

وتتصاعد الرغبة حتى تكون رغبة لا تبقى من المجهود مبذولا ، ولا تدع للهمة ذبولا ، ولا تترك غير القصد مأمولا .

فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بذله ، ولا تدع لهمته وعزيمته فتوراً ولا خموداً ، وعزميته في مزيد ، ولا تترك فى قلبه نصيباً لغير مقصوده .

فإذا اكتملت رغبته : اكتمل معها خلق « الرعاية » الإيمانية ، وهي : مراعاة العلم وحفظه بالعمل ، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المفسدات ، وصيانته .

ومراتب العلم والعمل ثلاثة : « رواية » وهي مجرد النقل وحمل المروى . و« دراية » وهى فهمه

وتعقل معناه. و« رعاية » وهى العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنقلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]، أى لم يفعلوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله « ابتدعوها » ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع فى طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقد ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى بن مريم وهداه عليه السلام، وكذبهم الله. وبيَّن أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام برئ منها. فإنها على خلاف الفطرة التى فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يضاد الفطرة، ولايحبه. ولذلك، فإنهم لم يستطيعوا – ولن يستطيعوا – أن يرعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لايقدر أحد على تبديلها.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذمّ من لم يرع قُربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحث عليها؟

ومن أهم أركان الرعاية: رعاية الأعمال وفق النمط الأوسط، مع استصغارها والقيام بها من غير نظر إليها.

فأول رعاية الأعمال: العدول بها عن طرفى التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة، على الوجه المشروع فى حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها. ثم استصغارها في عينه، واستقلالها، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر. وأنه لم يوفه حقه، وأنه لا يرضى لربه بعمله، ولا بشئ منه.

وقد قيل: علامة رضا الله عنك: إعراضك عن نفسك. وعلامة قبول عملك احتقاره واستقلاله، وصغره فى قلبك. حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته، وقد كان رسول الله ﷺ. إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج. ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل. وشرع النبى ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار.

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله، وعيب نفسه، لم يجد بداً من استغفار ربه منه، واحتقاره إياه واستصغاره.

ثم القيام بها بتوفيتها حقها، وجعلها قائمة كالشهادة القائمة، والصلاة القائمة، والشجرة القائمة على ساقها التى ليست بساقطة، من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها، مخافة العجب والمنة بها، فيسقط من عين الله، ويحبط علمه، بل اللائق أن يتهم يقينه، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذى ينبغى، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر، ويزداد اتهاما لنفسه وتطهيراً لها من رعونة الادعاء، وتخليصاً للقلب من نصيب الشيطان، بأن يقف مع كل خطوة بمقدار تصحيحها، نية وقصداً وإخلاصاً ومتابعة، فلا يخطو هجماً وهمجا، بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة، فى سمت من الاستعداد ولطف الإدراك، ثم ينقل قدم عزمه، فإذا صحت له ونقل قدمه، انفصل عن نفسه. ولما كانت النفس محل الاكدار، كان انفصاله عنها محض الصفاء ونهاية الرعاية.

(٢١) منزلة المراقبة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « المراقبة »

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] إلى غير ذلك من الآيات .

وفى حديث جبريل عليه السلام : أنه « **سأل النبى ﷺ عن الإحسان ؟ فقال له : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » . ومن هذا الحديث يتضح أن « المراقبة » هى دوام علم العبد ، ويتقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه . فاستدامته لهذا العلم واليقين ، هى « المراقبة » وهى ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ، ناظر إليه ، سامع لقوله ، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة ، وكل نَفَس وكل طرفة عين .

وقد قيل : من راقب الله فى خواطره ، عصمه فى حركات جوارحه .

وقال الجنيد : من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لاغير .

وقال ذو النون : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغر الله .

وقال إبراهيم الخواص : المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل .

وقيل : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريق المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابورى : إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ونفسك ، ولايغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى فى الخواطر ، سبب لحفظها فى حركات الظواهر . فمن راقب الله فى سره ، حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته .

و« المراقبة » هى التعبد بأسمائه « الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير » فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها ، حصلت له المراقبة .

ومن ألطف ما وصفت به المراقبة إنها :

مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مذهل ومداناة حاملة، وسرور باعث.

فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عز وجل، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً. فإن الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبة، إن لم يقارنهما تعظيم، أو رثاه خروجا عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لايقارنه تعظيم المحبوب فهو سبب للبعد عنه ، والسقوط من عينه.

وبذلك تضمّن الوصف خمسة أمور: سيرا إلى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه، وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأما المداناة الحاملة فهى: الدنو الحامل له على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذى يذهله عن نفسه، وعن غيره، فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذة التى يجدها فى تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لايشبهه شئ من نعيم الدنيا ألبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفى عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل، وبذل الجهد فى طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتهم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبى ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وتعلقه بالإيمان. فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**» وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود فى الكفر- بعد إذ أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى فى النار**».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً، فاتهمه. فإن الرب تعالى شكور. يعنى أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها فى قلبه. وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

ذلك أن «الثواب» هو الراجع للعامل على عمله. فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شئونه. فالصلاة تنهاه عن الفحشاء والنكر. وتهذب الأخلاق وتربى أعلى تربية يحبها الرب سبحانه. وهكذا الصيام يقوى العزيمة، ويمكن للنفس اللوامة، وللبصيرة أن تشرق

فيري الصراط السوى فيكون من المتقين. وهكذا كل الأعمال الصالحة فإن لها ثوابا يصلح الشئون كلها هنا، فتسعد به الحياة فى الأسرة والمجتمع، كما أن أعمال السوء لها كذلك ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس: ٢٦] و﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ ﴾ [الروم: ١٠].

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه، والانتقال إلى مراقبة أخرى تحملك على الإعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التى منها رفض معارضة أمره وخبره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرداة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذى لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم.

و« الاعتراض » ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبه الباطلة، التى نفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ. وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه. وعادوا بها أولياءه. وحرفوا بها الكلم عن مواضعه. ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحى. فإذا سلم القلب له، رأى صحة ماجاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة. وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحرب قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض أنواع:

منهم: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هى الآراء والأقيسة التى اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منه، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض. وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

ومنهم المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذى شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان.

وهؤلاء فى حظوظ اتخذوها ديناً ، وقدموها علي شرع الله ودينه . واغتالوا بها القلوب . واقتطعوها عن طريق الله . فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء: خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد. لولا أن الله ضمن أنه لايزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه ، ويحميه من كيد من يكيد .

ومنهم: أهل الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التى لأرباب الولايات التى قدموها على حكم الله ورسوله . وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده .

فقال الأولون : إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل .

وقال الآخرون إذا تعارض الأثر والقياس، قدمنا القياس .

وقال أصحاب الذوق والكشف : إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع، قدمنا الذوق والكشف .

وقال أصحاب السياسية : إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة . فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه .

فهؤلاء يقولون : لكم النقل، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار . وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق . والآخرون يقولون: لكم الشرع، ولنا السياسة . فيالها من بلية، عَمَّت فأعْمت ، ورزية رمت فأصمت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت . فَصُمت منها الآذان، وعميت منها العيون . عطلت لها- والله- معالم الأحكام . كما نفيت لها صفات ذى الجلال والإكرام . واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم . وصار لأجلها الوحى عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل .

النوع الثالث : الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره . وهذا اعتراض الجهال . وهو ما بين جلى وخفى، وهو أنواع لا تحصى .

وهو سار فى النفوس سريان الحمى فى بدن المحموم . ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك فى قلبه عيانا . فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله، إلا نفسا قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التى يمكن وصول البشر إليها . فتلك حظها التسليم والانقياد والرضا كل الرضاء .

(٢٢) منزلة تعظيم الحرمات

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « تعظيم حرمات الله عز وجل »

قال الله عز وجل : ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [الحج : ٣٠] قال جماعة من المفسرين : « حرمات الله » ههنا مغاضبه، وما نهى عنه، و« تعظيمها » ترك ملابستها. قال الليث : حرمات الله : مالايحل انتهاكها . وقال قوم : الحرمات : هى الأمر والنهى. وقال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم : الحرمات ههنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب : أن « الحرمات » تعم هذا كله. وهى جمع « حرمة » وهى ما يجب احترامه، وحفظه، من الحقوق ، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها : توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، والخروج من حرج المخالفة، وجسارة الإقدام عليها، بتعظيم الأمر والنهى، خوفاً من العقوبة، وطلباً للمثوبة.

ونحتج فى ذلك بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين، ودعائهم وسؤالهم، والثناء عليهم بخوفهم من النار، ورجائهم للجنة . كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون : إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه– كما تقدم– وقال عن أنبيائه ورسله : ﴿ **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ** – إلى أن قال– **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** (٩٠) ﴾ [الأنبياء: ٨٩,٩٠] أى رغباً فيما عندنا، ورهباً من عذابنا. والضمير في قوله « إنهم » عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

وكذلك ما فى أول قصة إبراهيم : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ** – الآيات ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٩٠] فإنها في ذكر بلاء الأنبياء وما أحاط بهم من شدائد نجاهم الله بها بدعائهم ولجوئهم إليه وحده رغباً ورهباً.

و« الرغب والرهب » رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين.

وذكر سبحانه عباده، الذين هم خواص خلقه. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم. وجعل منها : استعاذتهم به من النار، فقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** (٦٥) **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (٦٦) ﴾ [الفرقان : ٦٥ ، ٦٦] وأخبر عنهم : أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار . فقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران : ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه : وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار .

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته، ويتعوذون به من ناره. فقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ - الآيات إلى آخرها**﴾[آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله هو الجنة التى سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)**﴾[الشعراء: ٨٢ - ٨٩] فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزى يوم البعث.

وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدا عليه مسئولاً ﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦)**﴾[الفرقان: ١٦] أى يسأله إياها عباده وأولياؤه.

وأمر النبى ﷺ أمته أن يسألوا له في وقت الإجابة- عقيب الأذان- أعلى منزلة فى الجنة. وأخبر أن من سألها له «**حلت عليه شفاعته**».

وقال له سليم الأنصارى: «**أما إنى أسأل الله الجنة، وأستعيذ به من النار، لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: أنا ومعاذ حولها ندندن**».

وفى الصحيح – فى حديث الملائكة السيارة الفُضّل عن كتاب الناس- «**إن الله تعالى يسألهم عن عباد- وهو أعلم تبارك وتعالى- فيقولون: أتيناك من عند عباد لك يهللونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. فيقول عز وجل: وهل رأونى؟ فيقولون: لا. يارب ما رأوك. فيقول عز وجل: كيف لو رأونى؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيداً. قالوا: يارب.و يسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا. وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً. قالوا: ويستعيذون بك من النار، فيقول عز وجل: وهل رأوها؟ فيقولون: لا وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً. فيقول: إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا**».

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها، والاستعاذة من النار، والخوف منها.

وقد قال النبى ﷺ لأصحابه: «**استعيذوا بالله من النار**» وقال لمن سأله مرافقته في الجنة «**أعني على نفسك بكثرة السجود**».

والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونا دائماً على ذكر منهم فلا ينسونهما. ولأن الإيمان بهما شرط فى النجاة. والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار هو محض الإيمان.

وقد حض النبى ﷺ عليها أصحابه وأمته. فوصفها وجلاها لهم ليخطبوها، وقال: «**ألا مشمر للجنة؟ فإنها- ورب الكعبة- نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر مطرد- الحديث- فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشمرون لها. فقال: قولوا: إن شاء الله**».

ولو ذهبنا نذكر ما فى السنة من قوله: «**من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة**» تحريضاً على عمله لها، وأن تكون هى الباعثة على العمل، لطال ذلك جداً. وذلك فى جميع الأعمال.

ورسول الله ﷺ يحرض، ويقول: «**من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية**» و«**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**» و«**من كسا مسلماً على عرى كساه الله من حُلل الجنة**» و«**عائد المريض في خَرَفة الجنة**» والحديث مملوء من ذلك.

وأيضاً فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته. ويستعيذوا به من ناره. فإنه يحب أن يسأل. ومن لم يسأله يغضب عليه. وأعظم ما سئل «الجنة» وأعظم ما استعيذ به «من النار».

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب، مرضى له، وطلبها عبودية للرب. والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها.

وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه: فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعثه، وكلما كان أشد طلبا للجنة، وعملاً لها، كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعى أتم. وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع لما وصف الجنة للعباد، وزينها لهم، وعرضها عليهم. وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملا. كل هذا تشويقاً لهم إليها. وحثا لهم على السعى لها سعيها.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] وهذا حث على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

ثم لايخفى أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون فى مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين

بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا. فأيسر يسير من رضوانه، أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وأتى به مُنكَّراً فى سياق الإثبات. أى: أى شئ كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة

قليل منك يقنعنى. ولكن   قليلك لايقال له قليل

وفى الحديث الصحيح- حديث الرؤية- «**فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى وجهه**».

ولا ريب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور فى الخيال. ولاسيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولا تخصيص فى هذا الحكم. بل هو ثابت شاهداً وغائباً.

فأى نعيم، وأى لذة، وأى قرة عين، وأى فوز يدانى نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟.

وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذى لا شئ أجل منه، ولا أكمل ولا أجمل: قرة عين ألبتة؟

وهذا- والله- هو العلم الذى شمَّر إليه المحبون، واللواء الذى أمّه العافون، وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها، وبه طابت الجنة. وعليه قامت.

وكذلك «النار» أعاذنا الله منها. فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته، وغضبه وسخطه، والبعد عنه: أعظم من التهاب النار فى أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النار فى قلوبهم هو الذي أوجب التهابا فى أبدانهم. ومنها سرت إليها.

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين، والشهداء والصالحين: هو الجنة .ومهربهم: من النار.

وخير العباد من يريد الله ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩] فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه ﷺ . وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] فأخبر أن الشعى المشكور سعى من أراد الآخرة. وأصرح منها: قوله لخواص أوليائه- وهم أصحاب نبيه ﷺ فى يوم أحد: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

وقد غلط من قال: فأين من يريد الله؟ فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله.

على معالم السنة.. بلا تأويل

وذروة تعظيمنا لحرمات الله تعالي: إجراء الخبر على ظاهره. وهو أن تبقى أعلام التوحيد الخبرية على ظواهرها، لا نتكلف لها تأويلا، ولا نتجاوز ظواهرها تمثيلا.

فحفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات: بإجراء أخبارها على ظواهرها، كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك. حتى علاه الرحضاء. ثم قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ففقر بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة. وبين «الكيف» الذى لايعقله البشر. وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف، عام فى جميع مسائل الصفات.

فمن سأل عن قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] كيف يسمع ويرى؟ أجيب بهذا الجواب بعينه. فقيل له: السمع والبصر معلوم. والكيف غير معقول.

وكذلك من سأل عن العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والنزول، والغضب، والرضا، والرحمة، والضحك، وغير ذلك. فمعانيها كلها مفهومة. وأما كيفيتها فغير معقولة، إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معقول للبشر، فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟

والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه. وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. بل تثبت له الأسماء والصفات. وتُنفى عنه مشابهة المخلوقات. فيكون إثباتك منزها عن التشبيه. ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطل. ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل. ومن قال: استواء ليس كمثله شئ. فهو الموحد المنزه.

وهكذا الكلام في السمع، والبصر، والحياة، والإرادة، والقدرة، واليد، والوجه، والرضا، والغضب، والنزول والضحك، وسائر ما وصف الله به نفسه.

والمراد بالتأويل المنهى عنه ها هنا: التأويل الاصطلاحى، وهو صرف اللفظ عن ظاهره وعن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح.

وقد حكى غير واحد من العلماء إجماع السلف على تركه. وممن حكاه البغوى، وأبو المعالى الجوينى فى رسالته النظامية، بخلاف ما سلكه فى «شامله» و«إرشاده» وممن حكاه سعد بن على الزنجانى.

وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لايحصيهم إلا الله.

وفى ذكر عدم تجاوز ظاهرها تمثيلا إشارة لطيفة. وهى أن ظواهرها لا تقتضى التمثيل. كما تظنه المعطلة النفاة. وأن التمثيل تجاوز لظواهرها إلى مالاتقتضيه. كما أن تأويلها تكلف وحمل لها على مالا تقتضيه. فهى لا تقتضى ظواهرها تمثيلا. ولا تحتمل تأويلاً. بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل. فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل.

(٢٣) منزلة الإخلاص

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص»

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وقال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯② لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ⑯③ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] وقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً. لم يقبل. وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] وهى الأعمال التى كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله. قال النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «**إنك لن تُخلَّف ، فتعمل عملاً تبتغى به وجه الله تعالى، إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة**» وفى الصحيح من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ثلاث لايغلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أى لايبقى فيه غل، ولايحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غلَّه، وتنقيه منه، وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودَغَلا. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

و«**سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**».

وأخبر عن أول ثلاثة تُسَعَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفى الحديث الصحيح الإلهى يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك به. وأنا منه برئ**».

وفى الصحيح عنه ﷺ : «**إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وقال تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ [الحج: ٣٧].

وقد تنوعت عبارتهم فى «الإخلاص» و«الصدق» والقصد واحد.

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد فى الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل: التوقى من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و«الصدق» التنقى من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولايتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولايتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد فى الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق فى الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لايعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل: أى شئ أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص. لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني. إذ أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

مغزى الإخلاص: تنقية العمل من الشوائب

أما الهروى فجعل الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب.

أى لايمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين فى قلوب الخلق، وإما

طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التى عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنا ما كان.

وأولى درجاته عنده: إخراج رؤية العلم عن العمل. والخلاص من طلب العوض على العمل. والنزول عن الرضا بالعمل. يعرض للعامل فى عمله ثلاث آفات: رؤيته، وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به، وسكونه إليه.

ففى هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية. فالذى يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [التكوير: ٢٩].

فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت- والميت لايفعل شيئا- وأنه لو خلى ونفسه لم يكن من فعله الصالح شئ ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات ، والبطالة. وهى منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولاهو من شانه.

فالخير الذى يصدر منها.. إنما هو من الله، وبه، لا من العبد، ولا به. كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ [النور: ٢١] وقال أهل الجنة: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا** ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات: ٧].

فكل خير فى العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه.

والذى يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب ، وإن قل. وللنفس فيه حظ. سئل النبى ﷺ عن التفات الرجل فى صلاته؟ فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**».

فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة. فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود: «لايجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه أن

لاينصرف إلا عن يمينه» فجعل هذا القدر اليسير النزر حظاً ونصيباً للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟

وأما حظ النفس من العمل: فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضي بها لربه. فالعارف لا يرضى بشئ من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيى من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله، يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

عمل لاينفى الخجل

وقيل: لابد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود

فمن إخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. قال النبى ﷺ: **«هو الرجل يصوم، ويصلى، ويتصدق، ويخاف أن لايقبل منه»**.

فالمؤمن: جمع إحساناً فى مخافة، وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

وخلال كل ذلك: تجعل عملك تابعاً للعلم، موافقاً له مؤتماً به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلا منازله، مرتوياً من موارده. ناظراً إلى الحكم الدينى الأمرى متقيداً به، فعلا وتركا وطلبا وهرباً. وناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سبباً وكسباً. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهداً للحكم الكونى القضائى، الذى تنطوى فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات ولايبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائماً بالأمر والنهي: فعلا وتركا، سائراً بسيره، وبالقضاء والقدر: إيماناً وشهوداً وحقيقة. فهو ناظر إلي الحقيقة، قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)** ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠)** ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد «لمن شاء منكم أن يستقيم» وسير صاحبه مشاهداً للحكم: مشهد « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين».

وهذا هو تهذيب العمل، بأن يجنح العامل فيه إلى العلم، وهو التفاته إليه، وإصغاؤه إلى ما يأمر به، وتحكيمه عليه، فمتى لم يجنح إليه هذا الجنوح كان سيره مذموماً، ناقصاً، مبعداً عن الله، فإن كل سير لا يصحبه علم يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان، وهذا القدر هو الذى أفسد على أهل الثغور ثغورهم، وشردهم عن الله كل مشرد، وطردهم عنه كل مطرد. حيث لم يحكموا العلم، وأعرضوا عنه صفحا، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام.

وهم الذين قال فيهم سيد الطائفة الجنيد بن محمد– لما قيل له: أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله– فقال الجنيد: إن هذا كلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال من الجوارح. وهو عندى عظيمة. والذى يزنى ويسرق أحسن حالا من الذى يقول هذا. فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بى دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لايقتدى به فى طريقنا هذا . لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

واعلم أن المعرفة الصحيحة هى روح العلم، وأن العلم الصحيح والعمل المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة.

فهذه الأركان: هى أركان السير، وأصول الطريق التى من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع. وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح. كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلي خلف. وإن لم يبذل جهده ويوحّد طلبه سار سير المقيد.

وإن اجتمعت له، فذلك الذى لايجارى فى مضمار سيره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٢٤) منزلة التهذيب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة « التهذيب والتصفية »

وهو سبك العبودية في كِيْر الامتحان، طلبا لإخراج ما فيها من الخبث والغش.

وأولها: تهذيب الخدمة، أن لايخالجها جهالة، ولا يشوبها عادة، ولايقف عندها همة.

أى: تخليص العبودية ، وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة. وهى: مخالجة الجهالة، وشوب العادة، ووقوف همة الطالب عندها.

النوع الأول: مخالطة الجهال. فإن الجهالة متى خالطت العبودية، أوردها العبد غير موردها ووضعها فى غير موضعها، وفعلها في غير مُستحقها، وفعل أفعالا يعتقد أنها صلاح. وهى إفساد لخدمته وعبوديته، بأن يتحرك في موضع السكون، أو يسكن فى موضع التحرك، أو يقدم فى موضع إحجام، أو يحجم في موضع إقدام، أو يتقدم فى موضع وقوف، أو يقف فى موضع تقدم. ونحو ذلك من الحركات، التى هى فى حق الخدمة كحركات الثقيل البغيض فى حقوق الناس.

فالخدمة مالم يصحبها علم ثان بآدابها وحقوقها، غير العلم بها نفسها، كانت في مظنة أن تبعد صاحبها، وإن كان مراده بها التقرب. ولايلزم حبوط ثوابها وأجرها فهى إن لم تبعده عن الأجر والثواب أبعدته عن المنزلة والقربة. ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلا بمعرفة خاصة بالله وأمره، ومحبة تامة له. ومعرفة بالنفس وما منها.

النوع الثاني: شوب العادة. وهو أن يماذج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها، معينة عليها. وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم- مثلا- وتمرن عليه. فألِفَتْه النفس، وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضى العادة.

وعلامة هذا: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك، وأيسر منه، وأتم مصلحة، لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألفته.

فاعبد الله على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك. ولايكون الباعث لك داعى العادة كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه. ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله: أنه لايكون باعثه على العبودية مجرد رأى ، وموافقة هوى ومحبة وعادة. بل الباعث مجرد الأمر. والرأى والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة. لا أنها مطاعة باعثة. وهذه نكتة

لا ينتبه لها إلا أهل البصائر.

النوع الثالث: وقوف همته عند الخدمة. وذلك علامة ضعفها وقصورها. فإن العبد المحض لا تقف همته عند خدمة. بل همته أعلي من ذلك. إذ هى طالبة لرضا مخدومه. فهو دائماً مستصغر خدمته له. ليس واقفاً عندها. والقناعة تحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع. فإنها عين الحرمان. فالمحب لايقنع بشئ دون محبوبه. فوقوف همة العبد مع خدمته وأجرتها سقوط فيها وحرمان.

تهذيب القصد

ويكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد، وهو تصفيته من ذل الإكراه، وحفظه من مرض الفتور، ونصرته على فضول العلم.

وهذه ثلاثة أشياء تهذب قصد العامل وتصفيه:

أحدها: تصفيته من ذل الإكراه. أى لايسوق نفسه إلي الله كرها. كالأجير المسخر المكلف. بل تكون دواعى قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً. كجريان الماء في منحدره. وهذه حال المحبين الصادقين. فإن عبادتهم طوعاً ومحبة ورضا. ففيها قرة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم. كما قال النبى ﷺ «**وجعلت قرة عينى في الصلاة**» وكان يقول: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**».

فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه: فى طاعة محبوبه. بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذى يرى أنه لولا قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذى أذله مكرهه وقاهره. بخلاف المحب الذى يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيما، ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل له ذل الإكراه.

والثاني تحفظه من مرض الفتور، أى توقيه من مرض فتور قصده، وخمود نار طلبه. فإن العزم هو روح القصد، ونشاطه كالصحة له. وفتوره مرض من أمراضه. فتهذيب قصده وتصفيته بحميته من أسباب هذا المرض الذى هو فتوره. وإنما يتحفظ منه بالحمية من أسبابه. وهو أن يلهو عن الفضول من كل شئ. ويحرص على ترك مالايعنيه. ولايتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ولايصحب إلا من يعينه على ذلك. فإن بلى بمن لايعينه فليدرأه عنه ما استطاع، ويدفعه دفع الصائل.

الثالث: نصرة قصده على منازعات فضول العلم. ومعنى ذلك: نصرة خاطر العبودية المحضة، والإقبال على الله بكلية القلب، وإبعاد القلب من مجاذبات تفاريع مسائل العلم الخلافية وفضلاته التى تشوش عليه وتضعف انتباهه إلى قواعد العلم الشرعى الجامعة التى بها حياة القلب واستقامة السير.

(٢٥) منزلة الاستقامة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاستقامة»

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] وقال لرسوله ﷺ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود فى كل شئ.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة- أبو بكر الصديق رضى الله عنه- عن الاستقامة؟ فقال: «أن لاتشرك بالله شيئا» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذى يدين به الصديق. واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها في الأنفس والآفاق، استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى. ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضى الله عنهما: «استقاموا: أدوا الفرائض».

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله رحمه- يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: «**يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم**».

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**استقيموا. ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولايحافظ على الوضوء إلا مؤمن**».

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهى السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها، فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل**».

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة، وهى السداد، والإصابة فى النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر فى حديث ثوبان: أنهم لايطيقونها . فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذى يرمى إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله، ولايعجب به، ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق والوفاء.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله تعالى روحه- يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

اجتهاد على درب السنة. .فى اقتصاد

وهى عند شيخ الإسلام الهروى: الاستقامة على الاجتهاد فى الاقتصاد، لا عادياً رسم العلم، ولا متجاوزاً حد الإخلاص، ولا مخالفاً نهج السنة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملا واجتهاداً فيه، وهو بذل المجهود. واقتصاداً. وهو السلوك بين طرفى الإفراط، وهو الجور على النفوس. والتفريط بالإضاعة. ووقوفاً مع ما يرسمه العلم. وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص. ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة.

فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كلياً، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً، وهما الاقتصاد فى الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة، أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السنة، وشدة طلب لها ولم يظفر به منقطعاً عنها، أمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها. قائلا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل. فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها. كما أن الأول خارج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والإضاعة، والآخر إلي بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلي تفريط، وإما إلي مجاوزة، وهى الإفراط، ولايبالى بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: «**ياعبد الله بن عمرو، إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة. فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر**» قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم.

وكذلك الرياء فى الأعمال يخرجه عن الاستقامة. والفتور والتوانى يخرجه عنها أيضاً.

والذى يعين العابد على هذا التمييز أن يقف فى مقام الفرق، فيشهد الفرق بين الأمر والنهى، والثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، فهو في مقام الفرق الذى لايحصل للعبد درجة الإسلام- فضلاً عن مقام الإحسان- إلا به.

ولايحصل هذا إلا بالبقاء مع نور اليقظة، فهو الدوام فى اليقظة. لايطفئ نورها بظلمة الغفلة، بل يستديم يقظته، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه، حفظاً من الله له، لا أن هذه المواهب تحصل بتحفظه واحترازه، وليشهد أن الله هو المقيم له والمقوم، وإن استقامته وقيامه بالله، لا بنفسه ولا بطلبه.

وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسم «**القيوم**» وهو الذى قام بنفسه، فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شئ به، فكل ما سواه محتاج إليه.

(٢٦) منزلة التوكل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التوكل»

قال الله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] وقال عن أوليائه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال لرسوله ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وقال له: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ٨١] وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال له: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال عن أصحاب نبيه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

والقرآن مملوء من ذلك.

ومن أسمائه ﷺ «المتوكل» وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] وفى ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق فى قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلا على الله واثقاً به. فالدين كله فى هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

وفى الصحيحين- فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب- **«هم الذين لايسرفون ، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»**.

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ، حين ألقى في النار. وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»**.

وفى الصحيحين: أن رسول ﷺ كان يقول: **«اللهم لك أسلمت وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إنى أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلنى، أنت الحى الذى لايموت. والجن والإنس يموتون»**.

وفى الترمذى عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله يرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطانا»**.

وفى السنن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال- يعنى إذا خرج من بيته- بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت ووقيت وكفيت. فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى»**.

«التوكل» نصف الدين. والنصف الثانى «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هى العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله در سيد القوم، وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري. إذ يقول: العلم كله باب من التعبد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولاتزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السموات والأرض- المكلفون وغيرهم- في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

فأفضل التوكل: التوكل فى الواجب- أعنى واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس- وأوسعه وأنفعه: التوكل فى التأثير في الخارج فى مصلحة دينية. أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء فى إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين فى الأرض، وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد فى التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله فى حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف.

ومن صدق توكله على الله في حصول شئ ناله. فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه. إن لم يستعن به على طاعته. والله أعلم.

معاني التوكل ودرجاته

فلنذكر معنى «التوكل» ودرجاته وما قيل فيه

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبى. ليس بقول اللسان، ولا

عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم: من يفسره بالسكون. وخمود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدى الرب، وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التوكل: الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

وحقيقة الأمر: أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها. وكل أشار إلي واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته؛ من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلي علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

قال شيخنا رضى الله عنه: ولذا لايصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون فى ملكه مالايشاء. ولايستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله. ولايستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأى توكل لمن يعتقد أن الله لايعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشيئة. ولايقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف، كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

لا ننفى الأسباب

الدرجة الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأى: إن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لايستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذى جعله الله سبباً فى حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شئ، فقد وقع في الوهم الباطل، فإن اللــه سبحانه وتعالي قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء، والرى إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس فى بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبداً.

وقضى بطلوع الحبوب التى تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها. فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوزان ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. ويقول: إن كان قضى لى وسبق فى الأزل حصول الشبع، والرى. والحج ونحوها. فلابد أن يصل إليّ، تحركت أو سكنت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لى لم يحصل لى أيضا، فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى فى السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمه الله وأمره ودينه . والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولايقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

بل التجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً، وما أخل رسول الله ﷺ بشئ من الأسباب، وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانا، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة. واستأجر دليلا مشركا على دين قومه، يدله على طريق الهجرة.

وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين. وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين. وكان إذا سافر فى جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد. وجميع أصحابه. وهم أولو التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثراً من غبارهم.

التجريد أساس التوكل

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل

فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما

دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لايصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللجوء إلى الله يمنحنا السكينة

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لايبالي بإقبالها وإدبارها. ولا يضطرب قلبه، ويخفق عن إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها. فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به. فرأى حصناً مفتوحاً، فأدخله ربه إليه. وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه فى هذه الحال لا معنى له.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع فى اعتماده وسكونه. وطمأنيته بثدى أمه لايعرف غيره. وليس فى قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل. لايعرف شيئا يأوى إليه إلا ثدى أمه، كذلك المتوكل لا يأوى إلا إلى ربه سبحانه.

سبحانه أهل المنّ والتفضّل

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم

استسلام

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير، يعنى الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا في

غير باب الأمر والنهى. بل فيما يفعله بك. لافيما أمرك بفعله.

فإن توكل العبد هذا التوكل أورثه علماً بأنه لايملك قبل عمله استطاعة، ويعود لايأمن مكر الله.

فاستطاعته بيد الله، لابيده. فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لايتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر. وهو محرَّك لا محرِّك؟ يحركه مَنْ حركته بيده، فإن شاء ثبطه وأقعده مع القاعدين. كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه. ويخلي بينه وبين نفسه. ولايبعث دواعيه ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه. وليس هذا حقاً على الله، فيكون ظالماً بمنعه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا. بل هو مجرد فضله الذى يحمده على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم باباً عظيماً من سر القدر، وانجلت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لايريد من نفسه فعلا يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توفيقه. لأنه يكرهه. ويقهره على فعل مساخطه. بل يكله إلى نفسه وحوله وقوته، ويتخلى عنه. فهذا هو المكر.

نفوّض أمرنا إلى الله

الدرجة السابعة: التفويض

وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره، كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته.

وقد جاء التفويض فى القرآن، فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون وقوله: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٤].

والمفوض لايفوض أمره إلى الله إلا لإرداته أن يقضى له ما هو خير له فى معاشه ومعاده. وإن كان المقضى له خلاف ما يظنه خيراً. فهو راض به، لأنه يعلم أنه خير له. وإن خفيت عليه جهة

المصلحة فيه. وهكذا حال المتوكل سواء. بل هو أرفع من المفوض. لأن معه من عمل القلب ماليس مع المفوض. فإن المتوكل مفوض وزيادة. فلا يستقيم مقام «التوكل» إلا بالتفويض. فإنه إذا فوض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه.

ونظير هذا: أن من فوض أمره إلى رجل، وجعله إليه، فإنه يجد من نفسه- بعد تفويضه- اعتماداً خاصاً، وسكوناً وطمأنينة إلى المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض. وهذا هو حقيقة التوكل.

الرضا ثمرة التوكل

فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة «الرضا»

وهى ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل بها. فإنما فسره بأجلِّ ثمراته. وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا- رضي الله عنه- يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضى بالمقضى له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة «**اللهم إنى استخيرك بعلمك. واستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم**» فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «**فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب**» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلا، أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلا، فهذا هو حاجته التى سألها. فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: «**واقدر لى الخير حيث كان. ثم رضّنى به**».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التى من جملتها التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور. والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمانى يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافى: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به.

أوهام بعض المتوكلين

وكثيراً ما يشتبه فى هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه، ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع فى حق الله. والتفويض فى حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلّ. فيظن صاحبه أنه متوكل.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة، فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله فى طلوع ثمرته، وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض، والمغتر لعاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلي الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه،لا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يذكر عن أبى سليمان الداراني: أنه رأى رجلا بمكة لايتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال أبو سليمان يوماً: أرأيت لو غارت زمزم، أى شئ كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتنى. فإنى كنت أعبد زمزم منذ أيام، ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم، وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة ذلك: : أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره همه وبثه وخوفه، فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل. فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله،فيظن أنه متوكل، وليس من أهل التوكل.فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها، وحال المحب العاشق وراء ذلك. وكمعرفة علم الخوف، وحال الخائف وراء ذلك. وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

أسماء حسنى يتعبد بها المتوكلون

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطى، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل،الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه فى إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف ، كان توكله عليه أقوى.

الهمة الواطئة توقع المتوكل فى الخلابة

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله. وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون. كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شئ. وتفريغ قلبه للتوكل فى زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير فى العالم خيراً. فهذا توكل العاجز القاصر الهمة . كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شئ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين.

وحال النبى ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها. بها يعلم صحيحها من سقيمها. فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم. فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب. وأن يعبد الله فى جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً. وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان. وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً. فكانت همم الصحابة- رضي الله عنهم- أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شئ يحصل بأدنى حيلة وسعى. فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله.

لا إيمان لمن لا توكل له

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ [الطلاق: ٢] ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ** ﴾ [الطلاق: ٥] ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا** ﴾ [الطلاق: ٤] ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال فى التوكل: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذى حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا

تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة صارت حالة التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لايملك شيئاً منها. فهو لايجد بدا من اعتماده عليه. وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئا ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

ولما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شئ ألبتة، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به،و إلى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل، فإذا عزل العبد نفسه عن مقام التوكل عزلها عن حقيقة العبودية. وقد خاطب الله بالتوكل فى كتابه خواص خلقه، وأقربهم إليه ، وأكرمهم عليه، وشرط فى إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة.

وأخبر تعالى عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله فى أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[يونس: ٨٤، ٨٥].

(٢٧) منزلة الثقة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الثقة بالله تعالى »

وهى التى لقنها الله تعالى لأم موسي بقوله لها: ﴿ **فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي**﴾[القصص: ٧] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالي، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها فى تيار الماء. تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهى أو يقف.

ومدار التفويض عليها، وهى في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فإن النقطة هى المركز الذى عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك « الثقة » هى النقطة التى يدور عليها التفويض.

كما إنها سويداء قلب التسليم. فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه، وهى المهجة التى تكون بها الحياة، وهى في وسطه. فلو كان « التفويض » قلباً لكانت « الثقة » سويداءه. ولو كان عيناً لكانت سوادها. ولو كان دائرة لكانت نقطتها. وقد تقدم أن كثيراً من الناس يفسر « التوكل » بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم.

فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله.

فكأن « الثقة » هي روح. و« التوكل » كالبدن الحامل لها. ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان.

وعنوانها: أمن العبد من فوت المقدور. وانتقاض المسطور. فيظفر بروح الرضا، وإلا فبعين اليقين. وإلا فبلطف الصبر.

وذلك: أن من تحقق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبتة: أمن من فوت نصيبه الذى قسمه الله له. وأمن أيضاً من نقصان ما كتبه الله له، وسطّره فى الكتاب المسطور. فيظفر بروح الرضا أى براحته ولذته ونعيمه، لأن صاحب الرضا في راحة ولذة وسرور. كما فى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن الله- بعدله وقسطه- جعل الروح والفرح في اليقين والرضا. وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط**».

فإن لم يقدر العبد على « روح الرضا » ظفر « بعين اليقين » وهو قوة الإيمان، ومباشرته للقلب، فيكون التسليم.

وهو نوعان: تسليم لحكمه الدينى الأمرى. وتسليم لحكمه الكونى القدرى.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج. والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام. ومضلة أفهام. حيَّر الأنام، وأوقع الخصام، وهي مسألة الرضا بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. وبينا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أُمر بدفعها فلا يجوز له التسليم إليها، بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخر، أحب إلى الله منها.

فطرة تلهمنا.. تغنينا عن طلب الأدلة

وأول التسليم: أن لا تطلب على التوحيد دليلا.

فكيف تحوج وليك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة بحيث لا تسير إليه حتى يقيم لك دليلا على وجوده ووحدانيته، وقدرته ومشيئته؟

ولو أن رجلا دعاك إلى داره. فقلت للرسول: لا آتي معك حتي تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشى بابه. لكنت في دعوى الفتوة زنيما. فكيف بمن وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته وإلهيته: أظهر من كل دليل تطلبه؟ فما من دليل يستدل به، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه. فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم لم يوقفها عليه موقف. ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال، ولهذا لم تدع الرسل قط الأمم إلى الإقرار بالصانع سبحانه وتعالي، وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى. ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه. ولهذا ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وكيف يصح الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله؟ حتى قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شئ؟ فتقيد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيد بالدليل الموصل له إلى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج – بعد معرفته– إلى دليل يوصله إليه، ويدله على طريق الوصول إليه. وهذا الدليل: هو الرسول ﷺ. فهو موقوف عليه يتقيد به. لايخطو خطوة إلا وراءه، فيكون علمه ويقينه ونور بصيرته مغنيا له عن كثير من الأدلة التي يتكلفها المتكلفون وأرباب القال. فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها. وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أن المتكلم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم، وإثبات وجود الصانع، وذلك أمر مفروغ

منه عند السالك الصادق صاحب اليقين. فالذى يطلبه هذا بالاستدلال- الذى هو عرضة الشبه، والأسئلة ، والإيرادات التى لا نهاية لها- هو كشف ويقين للسالك. فتقيده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاع، وخروج عن الفتوة.

وهذا حق لاينازع فيه عارف، فترى المتكلم يبحث فى الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان. وهمته مقصورة عليها لايعدوها ليصل منها إلى المكون وعبوديته. والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته. لايلتفت إلى غيره ولايشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان. والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعا فى غير السير إلى رب الزمان والمكان.

فصاحب التسليم لايتعلق فى سيره بدليل.

الشبهات والشهوات سبب الانقطاع

وتمام «التسليم» بالخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص ، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة.

والمنازعة: إما بشبهة فاسدة، تعارض الإيمان بالخبر عما وصف الله به نفسه من صفاته وأفعاله، وما أخبر به عن اليوم الآخر، وغير ذلك. فالتسليم له: ترك منازعته بشبهات المتكلمين الباطلة.

وإما بشهوة تعارض أمر الله عز وجل. فالتسليم للأمر بالتخلص منها.

أو إرداة تعارض مزاد الله من عبده، فتعارضه إرادة تتعلق بمراد العبد من الرب، فالتسليم: بالتخلص منها.

أو اعتراض يعارض حكمته فى خلقه وأمره، بأن يظن أن مقتضى الحكمة خلاف ما شرع، وخلاف ما قضى وقدر. فالتسليم: التخلص من هذه المنازعات كلها.

وبهذا يتبين أنه من أجل مقامات الإيمان، وأعلى طرق الخاصة: وأن «التسليم» هو محض الصديقية، التى هى بعد درجة النبوة، وأن أكمل الناس تسليما: أكملهم صديقية.

(٢٨) منزلة الصبر

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الصبر »

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور فى القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول : الأمر به. نحو قوله تعالي :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة : ١٥٣] وقوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] وقوله : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧].

الثاني : النهى عن ضده كقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] وقوله : ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] فإن تولية الأدبار : ترك للصبر والمصابرة. وقوله : ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران : ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث : الثناء على أهله، كقوله تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] وهو كثير فى القرآن.

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦]

الخامس : إيجاب معيته لهم. وهى معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] وقوله :﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩].

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] وقوله :﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥].

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦].

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالي : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥]

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالي: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ومنه قول النبى ﷺ «**واعلم أن النصر مع الصبر**».

الحادى عشر: الأخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالي: ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الأخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿ **وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** ﴾ [القصص: ٨٠] وقوله: ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿ **أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [إبراهيم: ٥] وقوله فى أهل سبأ ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [سبأ: ١٩] وقوله فى سورة الشورى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)** ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالي: ﴿ **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمربن الخطاب رضي الله عنه «خير عيش أدركناه بالصبر» وأخبر النبى ﷺ فى الحديث الصحيح «**أنه ضياء**» **وقال**: «**من يتصبر يُصَبِّرْهُ الله**».

وفى الحديث الصحيح: «**عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.**

إن أصابته سراء شكر . فكان خيرا له . وإن أصابته ضرّاء صبر . فكان خيرا له».

وأمر الأنصار- رضى الله تعالى عنهم- بأن يصبروا على الأثرة التى يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر : «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى».

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره. والجزع والتسخط والتشكى يزيد فى المصيبة، ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ عليه وسلم أن الصبر خير كله، فقال: «**ما أعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر**».

أرفع الصبر ما كان اختيارا

و«الصبر» فى اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبرا. إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الكهف: ٢٨]

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على مالا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة. فإنه كان شابا، وداعية الشباب إليها قوية. وعزبا ليس له ما يعوضه ويبرد شهوته. وغريباً، والغريب لايستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكا، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة، وذات منصب وهى سيدته. وقد غاب الرقيب. وهى الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد حرص. ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعى كلها، صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره فى الجب علي ماليس من كسبه؟

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فإن مصلحة فعل الطاعة: أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله- رحمه الله- في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجها. وليس هذا موضع ذكرها.

والمقصود: الكلام على «الصبر» وحقيقته ودرجاته ومرتبته. والله الموفق.

مراتب الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه. لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، ساءراً بسيرها. مقيماً بإقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها.

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقى بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبّار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذى صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا فى القدر والكم والذى قبله فى الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. فـ«الصبر» دون المصابرة. و«المصابرة» دون «المرابطة». و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمى المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبى ﷺ: «**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط**» وقال: «**رباط يوم فى سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها**».

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله.

وقيل: اصبروا فى الله. وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا فى دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون فى دار البقاء.

«فالصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوك. و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه أو يُخربه أو يشعثه.

وقيل: تجرّع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيداً. وإن أحياك أحياك عزيزاً.

وقيل: الصبر لله غناء وبالله تعالى بقاء. وفى الله بلاء. ومع الله وفاء. وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر وفى المحن عنوان الفرج.

وقيل: حال العبد مع الله رباطه، ومادون الله أعداؤه.

وفى كتاب الأدب للبخارى «**سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: الصبر، والسماحة**» ذكره عن موسى بن إسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده- فذكره.

وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهانا وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به وإعطاؤه. فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبعد منه. فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: «الصبر الجميل» هو الذى لاشكوى

فيه ولا معه. و« الصفح الجميل » هو الذى لا عتاب معه. و« الهجر الجميل » هو الذى لا أذى معه.

وقال ابن عيينة فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] قال: « أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء ».

والشكوى إلى الله عز وجل لاتنافى الصبر. فإن يعقوب- عليه السلام- وعد بالصبر الجميل. والنبى إذا وعد لايخلف، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإنما ينافى الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لايرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم. فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذى لايرحم

الصعب.. اللذيذ

ولكن مهما تنوعت العبارات فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معانى الصبر: حبس النفس على المكروه، وإنه من أصعب المنازل على العامة، وأوحشها طريق المحبة.

وإنما كان صعباً على العامة: لأن العامى مبتدئ فى الطريق وليس له دربة فى السلوك، ولا تهذيب المرتاض بقطع المنازل. فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء. وعز عليه وجدان الصبر. لأنه ليس من أهل الرياضة. فيكون مستوطنا للصبر. ولا من أهل المحبة، فيلتذ بالبلاء في رضا محبوبه.

وأما كونه وحشة فى طريق المحبة: فلأنها تقتضى التذاذ المحب بامتحان محبوبه له. والصبر يقتضي كراهيته لذلك. وحبس نفسه عليه كرهاً. فهو وحشة في طريق المحبة.

وفي الوحشة نكتة لطيفة: لأن الالتذاذ بالمحنة فى المحبة هو من موجبات أنس القلب بالمحبوب. فإذا أحس بالألم- بحيث يحتاج إلى الصبر- انتقل من الأنس إلي الوحشة. ولولا الوحشة لما أحس. بالألم المستدعى للصبر.

والصبر من آكد المنازل فى طريق المحبة، وألزمها للمحبين. وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة. وهو من أعرف المنازل فى طريق التوحيد وأبينها.

وحاجة المحب إليه ضرورية.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة. فإنه لايكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه هي النكتة التى لأجلها كان من آكد المنازل فى طريق المحبة وأعلقها بها. وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها. فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته.

ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة. لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى. فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة. ولم يثبت معه إلا الصابرون. فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكاره بالصبر: لما ثبتت صحة محبتهم. وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً.

ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه. فقال عن حبيبه أيوب﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ ثم أثنى عليه فقال:﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء. وضمن لهم أعظم الجزاء. وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان- كما تقدم- فجعله قرين اليقين، والتوكل ، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك.

وليس فى استكراه النفوس لألم ما تصبر عليه، وإحساسها به، ما يقدح فى محبتها ولا توحيدها. فإن إحساسها بالألم، ونفرتها منه: أمر طبعى لها، كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب. وتألمها بفقده. فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية. وإلا لم تكن نفساً إنسانية. ولارتفعت المحنة. وكانت عالما آخر.

و« الصبر » و« المحبة » لايتناقضان. بل يتواخيان ويتصاحبان... بلي علة الصبر في الحقيقة: المناقضة للمحبة، المزاحمة للتوحيد- أن يكون الباعث عليه غير إرادة رضا المحبوب. بل إرادة غيره. أو مزاحمته غيره، أو المراد منه. لا مراده. هذه هى وحشة الصبر ونكارته.

وأما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصبره مع الله، مشاهداً أن صبره به تعالى لا بنفسه، فهذا لا تلحق محبته وحشة. ولا توحيده نكارة.

الورع حياء.. أنبل من الورع خشية

والخوف من الوعيد جد مفيد فى حمل المرء على الصبر عن المعاصى والبعد عنها، والبعد عنها جد مفيد بدوره في حفظ الإيمان والابقاء عليه، فإن المعصية تنقصه، أو تذهب به، أو تذهب

رونقه وبهجته، أو تطفئ نوره، أو تضعف قوته، أو تنقص ثمرته، هذا أمر ضرورى بين المعصية وبين الإيمان. يعلم بالوجود والخبر والعقل، كما صح عنه ﷺ : **«لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. ولايسرق حين يسرق وهو مؤمن. ولاينتهب نهبة ذات شرف- يرفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها- وهو مؤمن. فإياكم إياكم. والتوبة معروضة بعد»**.

ولكن لما كان «الحياء» من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالا من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن فى الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ماليس فى وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراع جانب نفسه وحمايتها. والمستحى مراع جانب ربه وملاحظ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها.

وأيضاً: فإن فعل الطاعة أكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية فى الدرجة، إذ ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة، وأما المنهى عنه فإنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه: نهى عنه حماية، وصيانة لجانب الأمر. فجانب الأمر أقوى واكد. وهو بمنزلة الصحة والحياة والنهى بمنزلة الحمية التى تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة.

والصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة. والإخلاص فيها. ووقوعها على مقتضى العلم. وهو تحسينها علماً.

أما ترك الإخلاص فيها، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله، وإراداته والتقرب إليه. فحفظاً من هذه الآفة: برعاية الإخلاص.

وأما أن لا تكون مطابقة للعلم. بحيث لا تكون على إتباع السنة. فحفظها من هذه الآفة: بتجريد المتابعة. كما أن حفظها من تلك الآفة بتجريد القصد والإرادة.

حلاوة أجر المحنة.. تنسينا شدتها

أما الصبر في المحن على أذى الظالمين، وعند النوازل والبلاء، فإن العبد يستجلبه ويستعين عليه بثلاثة أشياء:

إحداها: «ملاحظة حسن الجزاء» وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض. وهذا كما يخف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها، لما يلاحظه من لذة عاقبتها وظفره بها. ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل. وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب، ومطالعة الغايات.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لايدرك بالنعيم. وأن من رافق الراحة: حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن على قدر التعب تكون الراحة.

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكريم الكرائم

ويكبر في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد: أن ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك.

والثاني «انتظار الفرج»

أى راحته ونسيمه ولذته. فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة. ولاسيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج. فإنه يجد فى حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ماهو من خفى الألطاف، وما هو فرج معجل. وبه- وبغيره- يفهم معنى اسمه «اللطيف».

والثالث: «تهوين البلية» بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ماهو فيه من البلاء وراه- بالنسبة إلى أيادى الله ونعمه- كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التى أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضى. وتعداد أيادى المنن: يتعلق بالحال. وملاحظة حسن الجزاء، وانتظار الجزاء، وانتظار روح الفرج: يتعلق بالمستقبل. وأحدهما في الدنيا. والثانى يوم الجزاء.

ويحكى عن امرأة من العابدات أنها عثرت، فانقطعت إصبعها، فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين، وقد انقطعت إصبعك؟ فقال: أخاطبك على قدر عقلك. حلاوة أجرها أنستنى مرارة ذكرها. إشارة إلى أن عقله لايحتمل ما فوق هذا المقام. من ملاحظة المبتلى. ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء، وتلذذها بالشكر له، والرضا عنه، ومقابلة ما جاء من قبله بالحمد والشكر.

والصبر ثلاثة أنواع :

صبر لله . أى رجاء ثوابه، وخوف عقابه . وصبر المريدين : إنما هو بالله . فهم لايرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم عليه . بل حالهم التحقق بـ «لا حول ولاقوة إلا بالله» علما ومعرفة وحالا :

فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلي درجة منه وأجل . فإن الصبر لله متعلق بإلهيته . والصبر به : متعلق بربوبيته . وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له : عبادة والصبر به استعانة . والعبادة غاية . والاستعانة وسيلة . والغاية مرادة لنفسها . والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به .

وأما الصبر له : فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد : «إياك نعبد وإياك نستعين» .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضى له . والصبر به : قد يكون فى ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له . وقد يكون فى مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟

والثالث : «الصبر علي أحكامه» .

فهذا هو الصبر على أقداره، وقد عرفت بما تقدم : أن الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته : أكمل من الصبر على أقداره- كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام- فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة . والصبر على أحكامه الكونيه : صبر ضرورة، وبينهما من البون ما قد عرفت .

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسي وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على مانالهم فى الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم : أكمل من صبر أيوب علي ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله .

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح . وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف .

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره . والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢٩) منزلة الرضا

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نتسعين» منزلة «الرضا»

وقد أجمع العلماء على أنه مستحب، مؤكد استحبابه. واختلفوا في وجوبه. على قولين وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه– يذهب إلى القول باستحبابه.

قال: ولم يجئ الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال: وأما ما يروى من الأثر «من لم يصبر على بلائى، ولم يرض بقضائى، فليتخذ رباً سوائى» فهذا أثر إسرائيلى، ليس يصح عن النبى ﷺ.

قلت: ولاسيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التى ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضة، فكيف يؤمر به. وليس مقدوراً عليه؟

وقال الخراسانيون: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل. فعلى هذا: يمكن أن يتوصل العبد إليه باكتسابه. لأن الله مدح أهله، وأثنى عليهم، فدل ذلك على أنه مقدور لهم.

والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال، وليس كسبيا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال.

والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين. منهم القشيرى– صاحب الرسالة– وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما، بأن يقال: بداية «الرضا» مكتسبة للعبد، وهى من جملة المقامات، وأما نهايته: فهى حال من الأحوال. والله أعلم.

وقال النبى ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**».

وقال: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، غفرت له ذنوبه**».

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهى. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقاً. وهى سهلة بالدعوى واللسان. وهى من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان. ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها. من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقاً. فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعل الراضى بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثانى: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له. والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه. فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته. ولايحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة. لا فى شئ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله. ولا فى شئ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته. ولا فى شئ من أحكام ظاهرة وباطنة لا يرضى فى ذلك بحكم غيره. ولا يرضى إلا بحكمه.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهي: رضى كل الرضا. ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه. وسلم له تسليما. ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقلّدة هو وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم فإياك أن تستوحش من التفرد. فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به رباً، وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته،وتنسم روحه. قال: اللهم زدنى اغتراباً، ووحشة من العالم، وأنساً بك.. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العز بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق. ولم يبغ حظه من الله بموافقتهم فيما لايجدى عليه إلا الحرمان. وغايته: مودة بينهم فى الحياة الدنيا. فإذا انقطعت الأسباب.وحقت الحقائق، وبعثر ما في القبور. وحصل ما فى الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون موالاة الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران. وما الذى يخف أو يرجح به الميزان. والله المستعان، وعليه التكلان.

والتحقيق فى المسألة: أن «الرضا» كسبى باعتبار سببه، موهبى باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه. فإذا تمكن فى أسبابه وغرس شجرته: اجتنى منها ثمرة الرضا. فإن الرضا آخر التوكل. فمن رسخ قدمه فى التوكل والتسليم والتفويض: حصل له الرضا ولابد. ولكن لعزته

وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها- لم يوجبه الله على خلقه، رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم. لكن ندبهم إليه. وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضي عن ربه رضى الله عنه. بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضا قبله، أوجب له أن يرضى عنه. ورضا بعده. هو ثمرة رضاه عنه. ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين.

ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ماجعل الله رضاه فيه. فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتنى قبلت. وإن منعتنى رضيت. وإن تركتني عبدت. وإن دعوتنى أجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا.

وليس «الرضا والمحبة» كالرجاء والخوف.فإن الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة. لايفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا فى البرزخ، ولا فى الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء. فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً، لكنه ليس رجاء مشوباً بشك، بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم فى الدنيا لون.

الهمة العالية.. شيمتها الرضا

وليس من شرط «الرضا» ألا يحس بالألم والمكاره. بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة. وإنما هو الصبر. ألا فكيف يجتمع الرضا والكراهية؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقض ، وإن وجود التألم وكراهة النفس له لاينافى الرضا، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم فى اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له فى سبيل الله من ألم بالجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة إلى أجل غاية. ولكن فيها مشقة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما

عقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

ويسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشفقته عليه، وبره به. فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه. وتنجذب دواعى حبه ورضاه كلها إليه، فنفسه نفس مطرودة عن الله. بعيدة عنه. ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضا والمحبة: تسير العبد وهو مستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل.

وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- فى المنام. فذكرت فه شيئاً من أعمال القلب. وأخذت في تعظيمه ومنفعته- لا أذكره الآن- فقال: أما أنا فطريقتى: الفرح بالله والسرور به، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله فى الحياه يبدو ذلك على ظاهره. وينادى به عليه حاله.

وقيل للحسين بن على رضى الله عنهما: أن أبا ذر رضى الله عنه يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد فى الدنيا، لأن الراضى لايتمنى فوق منزلته.

وسئل أبو عثمان عن قول النبى ﷺ: «**أسألك الرضا بعد القضاء**» فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع فى أى حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: سكون القلب تحت مجارى الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن الخير كله فى الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر».

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ورضا الخواص بما قدره وقضاه. ورضا خواص الخواص به بدلا من كل ما سواه.

الرضا وليد الطمأنينة

والنفس إنما تنال الرضا بالطمأنينة والسكنية، فمن درب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضى الله عنه، وذلك قوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾[الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[النحل: ٣٢] فإنما أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد، وهو وفاتهم طيبين، فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلا إلى هذه البشارة.

وفى وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسف.

أحدها: إنه عند الموت، وهو الأشهر، قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها. ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث، هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى- وهى «**ارجعى إلى ربك راضية مرضية**»- تقال لها عند الموت. والكلمة الثانية- وهى «**فادخلى في عبادى وادخلى جنتي**»- تقال لها يوم القيامة. والصواب أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذ فهى فى الرفيق الأعلى، إن كانت مطمئنة إلى الله.

فاول ذلك عند الموت وتمامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف فى الحقيقة.

الرضا بالله رباً.. أساس الإيمان

وارفع الرضا: الرضا بالله رباً، وتسخط عباده مادونه. وهذا قطب رحى الإسلام.

الرضا بالله ربا: أن لايتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلي تدبيره وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيداً والها» يعنى فكيف أطلب ربا غيره، وهو رب كل شئ؟ وقال في أول السورة: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[الأنعام: ١٤] يعنى معبودا وناصراً ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التى تتضمن الحب والطاعة. وقال فى وسطها: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾[الأنعام: ١١٤] أى أفغير الله أبتغى من يحكم بينى وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام. فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ أنزله مفصلا، مبيناً كافياً شافيا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هى نفس الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقاً منها. فكثير من الناس يرضي بالله ربا، ولا يبغى رباً سواه، لكنه لا يرضي به وحده ولياً وناصراً بل يوالى من دونه أولياء. ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لايتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين به. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولى من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغى غيره حكما، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هى أركان التوحيد: أن لايتخذ سواه رباً، ولا إلها، ولا غيره حكما.

وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة ما دونه. هذا هو الرضا بالله إلها. وهو من تمام الرضا بالله ربا. فمن أعطى الرضا به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً. لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

فمدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده، وأن يسخط عبادة غيره، وقد تقدم أن العبادة هى الحب مع الذل. فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله، فأنت عابد له.

الرضا بالقضاء من مكملات الإيمان

ثم يتلوه: الرضا عن الله، وبه أيضاً نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضي وقدر.

وإنما كان هذا الرضا تاليا لأن الرضا بالله ربا أعلى شأنا وأرفع قدراً، ودرجته مختصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به رباً وإلها ومعبودا؟

وأيضا فالرضا به رباً فرض . بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة. فمن لم يرض به رباً، لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال.

وأما الرضا بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب. وليس بواجب. وقيل بل هو واجب، وهما قولان فى مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب. وفى الحديث الإلهى الصحيح «**يقول الله عز وجل: ما تقرب إليّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه**» فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء

فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضاً: فإن الرضا به رباً يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته: هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه. ويمنعه منه. فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به رباً من جميع الوجوه. وإن كان راضياً به رباً من بعضها. فالرضا به رباً من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضاً: فالرضا به رباً متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به خالقاً ومدبراً، وآمراً وناهياً، وملكا ومعطياً ومانعاً، وحكماً، ووكيلاً ووليّاً، وناصراً ومعيناً، وكافياً وحسيباً ورقيباً، ومبتلياً ومعافياً، وقابضاً وباسطاً، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه، ولهذا لم يجئ إلا فى الثواب والجزاء. كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة: ٨].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه.

وأيضاً: فإن النبى ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله رباً. ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولا**» فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التى لايقوم إلا بها وعليها.

وأيضاً: فالرضا به رباً يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه، والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحساناً، وإن ساء عبده. فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله» والرضا بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمداً رسول الله» والرضا بالإسلام ديناً: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته، وطاعة رسوله، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضاً: فالرضا به رباً يتضمن اتخاذه معبوداً دون ما سواه. واتخاذه ولياً ومعبوداً، وإبطال عبادة كل ما سواه. وقد قال تعالى لرسوله: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا**﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضا به رباً وأيضاً: فإنه جعل حقيقة الرضا به رباً: أن يسخط عبادة ما دونه. فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة، حباً وخوفاً، ورجاء وتعظيماً، وإجلالاً - فقد

تحقق بالرضا به رباً، الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تنبنى على توحيد الله عز وجل فى العبادة، وسخط عبادة ما سواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه. ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحى. ودارت على ذلك القطب. فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام. فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضاً: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفاً على كون المرضى به رباً- سبحانه- أحب إلى العبد من كل شئ، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة. ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، وينتظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب: كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولبه. فأى شئ يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة؟

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان. كما فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع إلي الكفر- بعد إذ أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى فى النار**».

فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله رباً. وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه. ولايتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله.

ولما كان هذا الحب التام، والإخلاص- الذى هو ثمرته - أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى. وهى وجد حلاوة الإيمان. وثمرة الرضا: ذوق طعم الإيمان. فهذا وجد حلاوة، وذلك طعم. والله المستعان.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً، والبراءة من عبودية ماسواه، وميل القلب بكليته إليه، وانجذاب قوى المحب كلها إليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضى بالله رباً رضيه الله له عبداً. ومن رضى عنه فى عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام ديناً. فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبوداً وإلها.. ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضى به رباً. كما قال النبى ﷺ: «**من قال كل يوم: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة**» وقد نطق التنزيل بهذا الرضا أيضاً كقوله عز وجل:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى فى آخر سورة المجادلة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال فى آخرسورة «لم يكن»﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

فتضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعده ولايتهم، بأن رضى الله عنهم. فأرضاهم. فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به رباً. وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً.

وجوب التفريق بين مشيئة الله ومحبته

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أنكر على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠] فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه. وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة. فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضياً محباً لذلك. والتزام رضاهم به.

والذى يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، ويوضح المعنى الصحيح للرضا بالقضاء: إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة. فإنهما ليسا واحداً. ولا هما متلازمين. بل قد يشاء مالايحبه، ويحب مالا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده. ومشيئته العامة لجميع ما فى الكون مع بغضه لبعضه.

والثاني: كمحبته إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه. فإنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضى، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه: زلت الشبهات، وانحلت الإشكالات، ولله الحمد. ولم يبق بين

شرع الرب وقدره تناقض. بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع. والشرع يصدق القدر. وكل منهما يحقق للآخر.

إذا عرف هذا، فالرضا بالقضاء الدينى الشرعى واجب. وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان. فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض. قال الله تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥]

فأقسم: أنهم لايؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما. وهذا حقيقة الرضا بحكمه.

فالتحكيم: فى مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: فى مقام الإيمان. والتسليم: فى مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيى بروح الوحى، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقي أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشر مسلم: فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء الدينى المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكونى القدرى، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه- من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة- أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد، محبوب له. فليس فى الرضا به عبودية. بل العبودية فى مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التى يحب الله أن توضع فيها، وأن لايعصى المنعم بها، وأن يرى التقصير فى جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكونى القدرى، الجارى على خلاف مراد العبد ومحبته- مما لايلائمه. ولايدخل تحت اختياره- مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفى وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجارى عليه باختياره- مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه- كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه. وهو مخالفة لربه تعالى. فإن الله لايرضى بذلك ولايحبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل فى مسألة الرضا بالقضاء.

فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولايحبه؟ وكيف يشاءه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله وبغضه وكراهيته؟

فاعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه. ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير. فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لايكون فى نفسه مقصودا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران بغضه، وإرادته، ولايتنافيان. لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء المتناهى في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جداً إذا علم أنها توصله إلي مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشئ ويبغضه فى ذاته. ولاينافى ذلك إرادته لغيره، وكونه سببا إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك: أنه سبحانه خلق إبليس، الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات. وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى. وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالي، مسخوط له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه. وجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات- التى هى أخبث الذوات وشرها. وهى سبب كل شر- فى مقابلة ذات جبريل، التى هى أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهى مادة كل خير. فتبارك الله خالق هذا وهذا. كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام. والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض. وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذى البطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال. فلابد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله. فيغفر لهم»**.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له فى محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين. ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التى يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته فى الله، وإغاظته فيه. وهى من أحب أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لايتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذى حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوا من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾[فاطر: ٦] فاتخاذه عدوا أنفع شئ للعبد. وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار فى الزناد، فخلق الشيطان مستخرجاً لما فى طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما فى طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هولاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته فى الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق.

وهذا هو السؤال الذى سألته ملائكته حين قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾**﴾[البقرة: ٣٠] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة فى خلق هذا النوع مالاتعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس

الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاما، والآيات التى أجراها الله تعالى على يد موسى ، وغير ذلك من آياته التى يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)** ﴾[الشعراء: ٨، ٩] فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التى يتحدث بها الناس جيلا بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التى يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل- وإن كان شأن الربوبية كاملا فى نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب- لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهى المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التى ترتبت على خلق مالا يحبه ولايرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل. إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه. كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: كيف يرضي لعبده شيئاً، ولايعينه عليه؟

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له. وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزما لمفسدة راجحة، ومفوتاً لمصلحة راجحة. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)** ﴾[التوبة: ٤٦، ٤٧] فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله ﷺ للغزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم ثبطهم عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التى كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ. فقال: «لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا» أى فساداً وشراً «ولأوضعوا خلالكم» أى سعوا فيما بينكم بالفساد والشر «يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم» أى قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولد من بين سعى هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت

الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج. وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلا لهذا الباب وقس عليه.

ثمرات الرضا اليانعة

وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضى إلى أعلي المنازل.

منها: أن تمام عبوديته فى جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شئ عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته- من الصبر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها- إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن فى الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن فى القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه. فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق: رضى ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضي عنه في جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شئ إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

ومنها: أن السخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن. وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلّصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة. وبرد القلب، وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

كما أن الرضا ينزل عليه السكينة التى لا أنفع له منها. ومتي نزلت عليه السكينة: استقام وصلحت أحواله، وصلح باله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه. ومن أعظم أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حكم الرب تعالى ماض فى عبده، وقضاءه عدل فيه، كما فى الحديث: «**ماضٍ فىَّ حُكْمُكَ، عَدْلُ فى قَضَاؤكَ**» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

وقوله «**عدل فى قضاؤك**» يعم قضاء الذنب، وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه عز وجل. وهو أعدل العادلين فى قضائه بالذنب، وفى قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة: فظاهر. وأما عدله في قضاءه بالذنب: فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه. وإعراض قلبه عنه. فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه: استحق أن يضرب بهذه العقوبة. لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب. والعقوبات واردة عليها من كل جهة وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره، يستحيل صدور الذنب. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]

فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه، ونسيانه إياه، وعدم إخلاصه: عقوبة على ماذا؟

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه. وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان، وعدم الإخلاص واتباع الهوى. وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام، وفوات الخيرات واللذات، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

فإن قلت: فهلا خلقه على غير تلك الصفة؟

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلا خلقه ملكا لا إنسانا؟

فإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذى يتخلص به من شر نفسه، وظلمة طبعه؟

قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات؟

وهذا من أفسد الأسئلة، وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

ومنهاأن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه. فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة فى سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليما نقيا من الغش والدغل والغل. ولاينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضا. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لايشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا مدخولا. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط

قرينان. وهذا معنى الحديث الذى فى الترمذي- أو غيره «**إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً**».

ومنها: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر: ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه،والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضا: امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها: أن الرضا يثمر الشكر، الذى هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده. وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المنعم.فإذا رضى العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين وإذا فاته الرضا: كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

ومنها: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولاسيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول مالا يرضي الرب، ويفعل مالايرضيه، وينوى مالا يرضيه. ولهذا قال النبى ﷺ عند موت ابنه إبراهيم «يحزن القلب، وتدمع العين، ولا نقول إلا ما يرضى الرب» فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبى ﷺ: أنه لايقول فى مثل هذا المقام- الذى يسخطه أكثر الناس، فيتكلمون بمالايرضى الله. ويفعلون مالا يرضيه - إلا ما يرضى ربه تبارك وتعالى.

ومنها: أن الرضا يخرج الهوى من القلب، فالراضى هواه تبع لمراد ربه منه. أعنى المراد الذي يحبه ربه ويرضاه. فلايجتمع الرضا واتباع الهوى فى القلب أبداً، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

ندوة لطيفة فى الرضا

ومنها: أن الراضى واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوة معرفته بربه تعالى، ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثورى، ويوسف بن أسباط. فقال الثورى: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأما اليوم: فوددت أنى ميت.

فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لما أتخوف من الفتنة.

فقال يوسف: لكنى لا أكره طول البقاء.

فقال الثورى: ولم تكره الموت؟

قال: لعلى أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.

فقيل لوهيب: أي شئ تقول أنت؟

فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله.

فقبل الثورى بين عينيه. وقال: روحانية ورب الكعبة.

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت. وقف مع اختيار الله له منهما. وقد كان وهيب- رحمه الله- له المقام العالى من الرضا وغيره.

رضا الله عن العبد.. أكبر الثواب

ومنها: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ بعد قوله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة: ٧٢] وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه فى الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يعطى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «**من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذى سألوه. والرضوان رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحون فى سؤاله ذلك.

ومنها: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شئ، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته. ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه فى ملكه، وحذف فضول الكلام التى تقدح فى حسن خلقه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

ومنها: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ماهو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم فى الأول- وهو رضاهم وذمهم- مشركا بهم فى الثانى- وهو حمدهم- فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم فخلصه الرضا من ذلك كله.

قلب الراضى بارد

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبى الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعى- وكان من العلماء- قال: قلت لعابد: أوصنى. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يفرغ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيحل بك السخط وأنت عنه فى غفلة لا تشعر به فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله «لقد تركتنى هؤلاء الدعوات، ومالى فى شئ من الأمور كلها أرب، إلا فى مواقع قدر الله، وكان كثيراً ما يدعو: اللهم ارضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شئ أخرته. ولا تأخير شئ عجلته».

وقال: ما أصبح لى هوى فى شئ سوى ما قضى الله عز وجل.

ومنها: أن الله تعالى عن التقدم بين يديه ويدى رسوله فى حكمه الدينى الشرعي. وذلك عبودية هذا الأمر. فعبودية أمره الكونى القدرى: أن لايتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة فى ذلك. فيكون التقدم أيضاً بأمره الكونى والدينى، فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه،. أو فرضه الرضا حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره.

ليس لأعمال القلوب نهاية

ومنها: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب. وأما أعمال القلوب: فلا ينتهى تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حد تنتهي إليه. وتقف عنده. فيكون جزاؤها بحسب حدها. وأما أعمال القلوب: فهى: دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضى، لاتفارقه أصلا. وإن تواري حكمها فصاحبها فى مزيد متصل. فمزيد المحب الراضى: متصل بدوام هذه الحال له. فهو في مزيد، ولو فترت جوارحه. بل قد يكون مزيده فى حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبه بينهما.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله. وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلي القلوب، والهمم والعزائم لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد: همته وإرادته. فمن لايرضيه غير الله- ولو أعطى الدنيا بحذافيرها- له شأن. ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن. وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة. وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

الإلحاح فى الدعاء عين العبودية

والدعاء لاينافى الرضا. بل إذا ألح العبد على الله فى سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لايقدح فى مقام الرضا. وفى الأثر« إن الله يحب الملحين فى الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه- يوم بدر- للنبى ﷺ « يا رسول الله قد ألححت على ربك كفاك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية.

وفى سنن ابن ماجة من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**.

فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافياً لرضاه.

وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه فى رضاه، بل الذى ينافى الرضا: أن يلح عليه متحكما عليه متخيراً عليه مالم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلح على ربه فى ولاية شخص. أو إغنائه. أو قضاء حاجته. فهذا ينافى الرضا، لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب فى ذلك.

وربما يفتح على قلبه- حال السؤال- من معرفة الله ومحبته. والذل له، والخضوع والتملق: ما ينسيه حاجته. ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك.

وقال بعض العارفين: إنه لتكون لى حاجة إلى الله. فأسأله إياها. فيفتح عليّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عنى قضاءها. وتدوم لى تلك الحال.

(٣٠) منزلة الشكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الشكر»

وهى من أعلي المنازل. وهى فوق منزلة «الرضا» وزيادة. فالرضا مندرج في الشكر. إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان- كما تقدم- والإيمان نصفان :نصف شكر. ونصف صبر.

وقد أمر الله به. ونهي عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعده أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله. وحارساً وحافظاً لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه. فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده. قال الله تعالى: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾[البقرة: ١٧٢] وقال: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** ﴾[البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ** ﴾[النحل: ١٢٠، ١٢١] وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾[الإسراء: ٣] وقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿ **وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[العنكبوت: ١٧] وقال تعالي: ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾[إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾[لقمان: ٣١].

وسمى نفسه «شاكراً» و«شكورا» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وإعادته للشاكر مشكوراً. كقوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾[الإنسان:٢٢] ورضا الرب عن عبده به. كقوله: ﴿ **وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾[الزمر: ٧] وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾[سبأ: ١٣].

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ: «**أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟**». وقال لمعاذ: «**والله يا معاذ، إنى لأحبك. فلا تنس أن تقول فى دبر كل صلاة: اللهم أعنى علي ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وفى المسند والترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «**كان يدعو**

بهؤلاء الكلمات: اللهم أعني ولا تعن عليّ. وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكر لي ولا تمكر بي. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى عليَّ. رب اجعلني لك، شكَّاراً لك. ذكَّاراً لَكَ رهاباً لك. مطاوعاً لك. مخبتا إليك. أوَّاها منيباً. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسْلُل سخيمة صدري».

قواعد الشكر

وأصل «الشكر» في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شَكِرَت الدابة تَشْكَر شكَراً علي وزن سمنت تسمن سمناً: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: وإذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل. وتعطى من العلف.

وفي صحيح مسلم **«حتى إن الدواب لَتَشْكَر من لحومهم»** أي لتسمن من كثرة ما تأكل منها.

وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً. وعلى قلبه: شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. و«الشكر» مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لايستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر. وبناؤه عليها. فمتى عدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم. والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة.

وما ألطف ما قال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

هذا معنى قول حمدون «أن يرى نفسه فيها طفيليا».

وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة.

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس. وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال الجنيد– وقد سأله سرى عن الشكر: وهو صبى؟– الشكر: أن لايستعان بشئ من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.

وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.

والشكر معه المزيد أبداً. لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] فمتى لم تر حالك فى مزيد. فاستقبل الشكر.

وفى أثر إلهى: يقول الله عز وجل: **«أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيادتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب»**.

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: **«إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**.

وفى هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكرى صامت   عما فعلت، وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها   إنى إذاً لندى الكريم لسارق

نعرف نعمة الرب، ونقبلها، نتحدث بها

أما معرفتها: فهو إحضارها فى الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها: تحصيلها ذهنا، كما حصلت له خارجاً. إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لايدرى. فلا يصح من هذا الشكر.

وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن. بل يرى نفسه فيها كالطفيلى. فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

أما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فنوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء. ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

وفى هذا التحديث المأمور به قولان.

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا. قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذا السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً: **«من صُنِع إليه معروف فليجز به. فإن لم يجد ما يجزى به فَلْيُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زورا»**.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثنى بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحل بما لم يعطه.

وفى أثر آخر مرفوع: **«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»**.

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به فى هذه الآية: هو الدعوة إلي الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هى النبوة. قال الزجاج: أى بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التى آتاك الله. وقال الكلبى: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها. وإظهارها من شكرها.

و«الشكر» سبيل رسل الله وأنبيائه- ﷺ أجمعين- أخص خلقه، وأقربهم إليه.

وليس من مقام أرفع من «الشكر» الذى يندرج فيه جميع مقامات الإيمان، حتى المحبة والرضا، والتوكل وغيرها فإن «الشكر» لايصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص أولياء الله، وأهل القرب منه سبيل أرفع من «الشكر» ولا أعلى.

وإنعام الرب تعالى على عبده: إحسان إليه، وتفضل عليه، ومجرد امتنان. لا لحاجة منه إليه، ولا لمعاوضة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضا: إنعام آخر عليه. وإحسان منه إليه. إذ منفعة الشكر ترجع إلي العبد دنيا وآخرة. لا إلى الله. والعبد هو الذى ينتفع بشكره. كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾ [لقمان: ١٢] فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى. فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر. لا أنه مكافئ به لنعم الرب. فالرب تعالى لايستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبداً، ولا أقلها، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالي هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصى ثناء عليه. فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه. تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرا.

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه جوده ومحبته له على هذا الشكر ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذى لا كرم فوقه. ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك

ويجعله سبباً لتوالى نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها .

وهذا الوجه وحده يكفى اللبيب ليتنبه به على ما بعده .

شكرا على من شكر

والشكر على المكاره : أشد وأصعب من الشكر على المحاب . ولهذا فهو فوقه فى الدرجة . ولا يكون إلا من أحد رجلين :

إما رجل لايميز بين الحالات . بل يستوى عنده المكروه والمحبوب . فشكر هذا : إظهار منه للرضا بما نزل به . وهذا مقام الرضا .

الرجل الثاني : من يميز بين الأحوال . فهو لايحب المكروه . ولا يرضي بنزوله به، فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه، فكان شكره كظما للغيظ الذى أصابه، وستراً للشكوى، ورعاية للأدب . وسلوكا لمسلك العلم . فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم لأنه شاكر لله شكر من رضى بقضائه، كحال الذى قبله . فالذى قبله : أرفع منه .

(٣١) منزلة الحياء

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الحياء »

قال الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴾ [العلق : ١٤] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء : ١] وقال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر : ١٩] .

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : «**مر برجل- وهو يعظ أخاه فى الحياء- فقال : دعه ،فإن الحياء من الإيمان**» .

وفيهما عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**الحياء لا يأتى إلا بخير**» .

وفيهما عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ . أنه قال : «**الإيمان بضع وسبعون شعبة- أو بضع وستون شعبة- فأفضلها : قول لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان**» .

وفيهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : «**كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها . فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه**» .

وفى الصحيح عنه ﷺ : «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وفى هذا قولان .

أحدهما : أنه أمر تهديد . ومعناه الخبر، أى من لم يستح صنع ما شاء .

والثانى : أنه أمر إباحة . أى انظر إلى الفعل الذى تريد أن تفعله . فإن كان مما لايستحى منه فافعله . والأول أصح . وهو قول الأكثرين .

وفى الترمذى مرفوعاً : «**استحيوا من الله حق الحياء . قالوا : إنا نستحى يا رسول الله . قال : ليس ذلكم ، ولكن من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى . وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا . فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء**» .

حياة القلب فى الحياء

و« الحياء » من الحياة . ومنه « الحيا » للمطر، لكن هو مقصور . وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء . وقلة الحياء من موت القلب والروح . فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

قال الجنيد – رحمه الله– الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط فى حق صاحب الحق.

وقال السرى: إن الحياء والأنس يطرقان القلب. فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة فى القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة فى الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحى من الله مطيعاً استحى الله منه وهو مذنب.

ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه فى تلك الحال لكرامته عليه. فيستحى أن يرى من وليه من يكرم عليه: ما يشينه عنده.

كما إنه حياء كرم وبر وجود وجلال. فإنه تبارك وتعالي حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. ويستحى أن يعذب ذا شيبة شابت فى الإسلام.

أنواع الحياء

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحى من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فر هارباً فى الجنة. قال الله تعالى: أفراراً منى يا آدم؟ قال : لا يارب. بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبى ﷺ من القوم الذين دعاهم إلي وليمة زينب، وطوَّلوا الجلوس عنده. فقام واستحى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذى لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل يسأله حوائجه، احتقارا لشأن نفسه، واستصغارا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان.

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثاني: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه فى غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه. ولايدرى ما سببه. كذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة. ومنه قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لايعرفه أكثر الناس.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان. فإنه يستحى مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان.

أحدهما: هذا. والثانى: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل. حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل فى حياء حياء التلوم. لأنه يستحى من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء فى نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحى بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحى من غيره أجدر.

حياء الرقابة

وأول الحياء: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلي تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية. ويسكته عن الشكوى.

فإن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة. فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكى لغير الله. فيكون قد شكا الله إلي خلقه. ولايمنع

الشكوى إليه سبحانه. فإن الشكوى إليه سبحانه فقر، وذلة، وفاقة، وعبودية، فالحياء منه فى مثل ذلك لاينافيها.

الحياء من الإبطاء فى التشمير

ثم أرفع منه: حياء يتولد من النظر فى علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة. ويربطه بروح الأنس. ويكره إليه ملابسة الخلق.

والنظر فى علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان:

عامة. وهى: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة: وهى معية القرب، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ«مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئاً من هذا فمن سوء فهمه أتى.

وأما القرب: فلا يقع فى القرآن إلا خاصا. وهو نوعان: قربه من داعية بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جواباً للصحابة رضي الله عنهم. وقد سألوا رسول الله ﷺ: ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فانزل الله تعالى هذه الآية.

والثاني: قوله ﷺ «**أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد. وأقرب ما يكون الرب من عبده: فى جوف الليل**» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفى الصحيح: عن أبى موسي رضى الله عنه. قال: «**كنا مع النبى ﷺ فى سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: يا أيها الناس، اربعوا علي أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إن الذى تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

فهذا قرب خاص بالداعى دعاء العبادة والثناء والحمد. وهذا القرب لاينافى كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه. بل يجامعه ويلازمه. فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض. تعالي الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكنه نوع آخر. والعبد فى الشاهد يجد روحه قريبة جداً من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطى. ويجده أقرب إليه من جليسه.

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم. وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه. وهم فى الأقطار النائية عنه من جيران حجرته فى المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتى القرب منها. فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء، وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لايلتفتون فى ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله، خلى من محبته ومعرفته.

والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة. وكلما ازداد حباً ازداد قرباً فالمحبة بين قربين: قرب قبلها، وقرب بعدها. وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها، ودعت إليها، ودلت عليها، ومعرفة بعدها. هى من نتائجها وآثارها.

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله، تعلقاً لازماً لايفارقه. بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة. ولا ريب أن هذا يكرِّه إليه ملابسة الخلق. بل يجد الوحشة فى ملابستهم بقدر أنسه بربه، وقرة عينه بحبه وقربه منه. فإنه ليس مع الله غيره. فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه وروحه وقلبه. فقلبه وروحه فى ملأ، وبدنه ورسمه فى ملأ.

(٣٢) منزلة الصدق

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الصدق »

وهو منزل القوم الأعظم. الذى منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذى من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله فى أرضه الذى ما وضع على شئ إلا قطعه. ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذى دخل منه الواصلون إلى حضرة ذى الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة « النبوة » التى هى أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم فى الجنات: تجرى العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم فى هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالي: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ [النساء: ٦٩] فهم الرفيق الأعلى: « **وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً** » ولايزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثانى درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له. فقال: ﴿ **فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ٢١].

وأخبر تعالى عن أهل اببر. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان والإسلام، والصدقة، والصبر. بانهم أهل الصدق فقال: ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا صريح فى أن « الصدق » بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن « الصدق » هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٤]

والإيمان أساسه الصدق. والنفاق أساسه الكذب. فلايجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لاينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه. قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] فالذى جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق فى قوله وعمله وحاله. فالصدق: فى هذه الثلاثة.

فالصدق فى الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق فى الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته. ولذلك كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية، سمى «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهى كمال الانقياد للرسول ﷺ. مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق فى الآخرين. فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالي: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق فى هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك فى الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ، ومخرج الصدق : أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذى لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه فى تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه فى الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذى رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله. بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بنى قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إنى أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك.

يريد: أن لايكون المخرج مخرج صدق. ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هى لله وبالله وبامره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه- أو مدخلا آخر- إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لايعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٠] والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقا. وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لهم** ﴾ [إبراهيم: ٤] وقوله: ﴿ **وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** ﴾ [الروم: ٢٢] وقوله:

﴿لِسَانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إليْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣] ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة : ١٦].

وأما قدم الصدق : ففسر بالجنة . وفسر بمحمد ﷺ . وفسر بالأعمال الصالحة .

وحقيقة « القدم » ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة . وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ ، ويقدمون على الجنة التى هى جزاء ذلك .

فمن فسره بها أراد : ما يقدمون عليه . ومن فسره بالأعمال وبالنبى ﷺ : فلأنهم قدموها . وقدموا الإيمان به بين أيديهم . فالثلاثة قدم صدق .

وأما مقعد الصدق : فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى .

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله . فهو صدق غير كذب . وحق غير باطل . ودائم غير زائل . ونافع غير ضار . وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل .

ومن علامات الصدق : طمأنينة القلب إليه . ومن علامات الكذب : حصول الريبة، كما في الترمذى- مرفوعاً- من حديث الحسن بن على رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «**الصدق طمأنينة . والكذب ريبة**».

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صديقا . وإن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار . وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها . وهى غايته . فلا ينال درجتها كاذب ألبتة . لا فى قوله، ولا في عمله، ولا فى حاله . ولاسيما كاذب على الله فى أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه . فليس فى هؤلاء صديق أبداً .

وكذلك الكذب عليه فى دينه وشرعه . بتحليل ما حرمه . وتحريم مالم يحرمه . وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب مالم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب مالم يحبه . كل ذلك مناف للصديقية .

وكذلك الكذب معه فى الأعمال : بالتحلى بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين وليس فى الحقيقة منهم .

فلذلك كانت الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهراً وباطناً، حتى إن صدق المتبايعين يحل البركة فى بيعهما . وكذبهما يمحق بركة بيعهما كما فى الصحيحين

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«البيعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما»**.

كلمات فى حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل..

وقيل: موافقة السر النطق.

وقيل: استواء السر والعلانية. يعنى أن الكاذب علانيته خير من سريرته. كالمنافق الذى ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد: الصادق يتقلب فى اليوم أربعين مرة. والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح. وقد يسبق إلى الذهن خلافه، وأن الكاذب متلون. لأن الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه، والصادق مستمر على حالة واحدة. فإن الصدق واحد فى نفسه، وصاحبه لايتلون ولا يتغير.

لكن مراد الشيخ أبى القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التى ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائى. بل هو فارغ منها. فإنه يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرائين. ولا يعارضهم الشيطان. كما يعارض الصادقين. فإنه لا أرب له فى خربة لا شئ فيها. وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها. فلا تراه إلا هارباً من مكان إلى مكان ومن عمل إلي عمل. ومن حال إلى حال. ومن سبب إلى سبب. لأنه يخاف فى كل حال يطمئن إليها. ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه. فهو لا يساكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه. فهو كالجوَّال فى الآفاق فى طلب الغنى الذى يفوق به الأغنياء. والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقيمه وتقعده، وتحركه وتسكنه، حتى يجد فيها ما يعينه على مطلوبه، وهذا عزيز فيها. فقلبه فى تقلب، وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه. وعظمته وهمته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حال، أو يساكن شيئاً غيره. فهو كالمحب الصادق، الذى همته التفتيش على محبوبه. وكذا حال الصادق فى طلب العلم، وحال الصادق فى طلب الدنيا. فكل صادق فى طلب شئ لايستقر له قرار. ولايدوم على حالة واحدة.

وأيضاً: فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه. فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها. ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينا هو فى صلاة إذ رأيته في

ذكر، ثم في غزو، ثم في أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم- إن أمكن- إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرق دائم لله، وجمعية على الله. لايملكه رسم ولا عادة ولا وضع. ولايتقيد بقيد ولا إشارة. ولا بمكان معين يصلى فيه لا يصلى في غيره. وزى معين لايلبس سواه. وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها، مع فضل غيرها عليها، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة. وبعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإيثار مرادها، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم. فضلاً عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى. فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزيه وقيده وإشارته- ولو إلى أفضل منه- استهجن ذلك. ورآه نقصاً، وسقوطاً من أعين الناس، وانحطاطاً لرتبته عندهم، وهو قد انحط وسقط من عين الله.

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله. ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده: أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه. وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدى للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته. وهذا هو النفاق بعينه. ولو كان عاملا على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله: لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه. ولما بالى أى ثوب لبس، ولا أى عمل عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.

فكلام أبي القاسم الجنيد حق، كلام راسخ في الصدق، عالم بتفاصيله وآفاته، ومواضع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسى. لايطيقه إلا أصحاب العزائم. فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل. والرياء والكذب خفيف كالريشة لايجد له صاحبه ثقلا ألبتة. فهو حامل له في أى موضع اتفق، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة. فهو لايتقلب تحت حمله ولايجد ثقله.

وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق.. أن تصدق في موطن لاينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

صدق الاستدراك

وأول الصدق: صدق القصد وبه يتلافى كل تفريط، ويتدارك كل فائت، ويعمر كل خراب، وعلامة هذا الصادق: إن لايتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد، ولا يصبر على صحبة ضد، ولايقعد عن الجد بحال.

وذلك: كمال العزم، وقوة الإرادة، بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك، وميل شديد يقهر السر على صحة التوجه، فهو طلب لايمازجه رياء ولا فتور. ولايكون فيه قسمة بحال،. ولا يصح الدخول فى شأن السفر إلى الله، والاستعداد للقائه إلا به.

وهو حامل على كل سبب ينال به الوصول، وقطع كل سبب يحول بينه وبينه. فلا يترك فرصة تفوته. وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان. فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة والشهوة. ويعمر منه ما خربته يد البطالة. ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس. ويلم منه ما شعثته يد التفريط والإضاعة. ويسترد منه ما نهبته أكف اللصوص والسراق. ويزرع منه ما وجده بوراً من أراضيه. ويقلع ما وجده شوكاً وشبرقاً في نواحيه. ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلي الهلاك والعطب. ويداوى منه الجراحات التى أصابته من عبرات الرياء. ويغسل منه الأوساخ والحوبات التى تراكمت عليه على تقادم الأوقات، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذى صار دباغاً له، فيطهره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكدورات، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم. فإنه لايجاور الرحمن قلب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبداً. ولابد من طهور. فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما. والله المستعان.

والصادق حقيقة: هو الذى قد انجذبت قوى روحه كلها إلي إرادة الله وطلبه، والسير إليه، والاستعداد للقائه. ومن تكون هذه حاله :لايحتمل سببا يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجه.

وكذلك لايصبر على صحبة الضد، وهم أهل الغفلة، وقطاع طريق القلب إلى الله. وأضر شئ على الصادق. صحبتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبدا، إلا جمع ضرورة. وتكون صحبتهم، له فى تلك الحال بقالبه وشبحه، دون قلبه وروحه. فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق فى الصادق: أحست روحه بالأجنبية التى بينه وبينهم بالمضادة. فاشتدت النفرة. وقوى الهرب. وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها: تكون نفرته وهربه عن الأضداد. فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة، والرياء والكبر، وطلب الجاه، ولو كان ذاكراً أو قارئاً، أو مصلياً أو حاجاً، أو غير ذلك. فنفر قلبه منه. وإن صمت

أحس قلبه: أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله، وإقبال بالقلب عليه، وعكوف السر عليه، فينفر منه أيضاً. فإن قلب الصادق قوى الإحساس.

فيجد الغيرية والأجنبية من الضد. ويشم القلب القلب كما يشم الرائحة الخبيثة، فيزوى وجهه لذلك. ويعتريه عبوس. فلا يأنس به إلا تكلفا. ولا يصاحبه إلا ضرورة. فيأخذ من صحبته قدر الحاجة. كصحبة من يشترى منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالزوجة والخادم ونحوه.

كثيرك قليل

وهذه المنزلة تقوده إلى أن لايتمنى الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، فهو لايحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه. ويقوم بعبوديته. ويستكثر من الأسباب التى تقربه إليه، وتدنيه منه. لا لعلة من علل الدنيا. ولا لشهوة من شهواتها، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقى أطايب التمر».

يريد رضى الله عنه: الجهاد والصلاة، والعلم النافع. وهذه درجات الفضائل. وأهلها هم أهل الزلفى، والدرجات العليا.

وقال معاذ رضى الله عنه عند موته: «اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وهو فى ذلك لا يرى نفسه إلا مقصراً. والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه. واستصغار نفسه، ومعرفته بعيوبها، وقلة زاده في عينه، فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأيضاً: فإن الصادق مضطر- أشد ضرورة- إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول ﷺ فى ظاهره وباطنه، والاقتداء به، والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله عز وجل، فإن الله تعالى لايرضيه من عبده إلا ذلك. وما عدا هذا فقوت النفس، ومجرد حظها، واتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضي به، حتي يكون على متابعة رسوله ﷺ ، خالصاً لوجهه سبحانه.

ومن ههنا يفارق الصادق أكثر السالكين: بل يستوحش فى طريقه. وذلك لقلة سالكها. فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم. وتجريد أنفاسهم لنفوسهم، والصادق فى وادٍ. وهؤلاء فى وادٍ.

(٣٣) منزلة الإيثار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإيثار»

قال الله تعالى: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شئ شح عليه.، وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبى ﷺ: «**إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**».

فالبخيل: من أجاب داعى الشح. والمؤثر: من أجاب داعى الجود. كذلك السخاء عما فى أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما فى أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمى بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاثة.

إحداها: أن لاينقصه البذل، ولايصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقى له شيئاً، أو يبقى مثل ما أعطي. فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشئ مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهى استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهى المرتبة التى قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضى الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدى أثرة. فاصبروا حتى تلقونى على الحوض**» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار فى قوله: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه فى العيادة: فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين.

فقال: أخزى الله مالاًيمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديا ينادى: من كان لقيس عليه مالا فهو منه في حل. فما أمسي حتى كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير- سبحانه- استئثار الناس على الأنصار بالدنيا- وهم أهل الإيثار- ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم فى الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك- مع كونك من أهل الإيثار- فاعلم أنه لخير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مصاعد الجود

و«الجود» عشر مراتب

أحدها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ ضنّ البخيل بها		والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثانى مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار فى قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعبا وكَدًّا فى مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره، كما قيل:

متُيَّم بالندى، لو قال سـائله		هب لى جميع كرى عينيك، لم ينم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

والناس فى الجود به على مراتب متفاوته. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لاينفع به بخيلاً أبدا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن لم يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب فى جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- في ذلك أمراً عجيباً:

كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ

الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحه بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه- رحمه الله- بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لايقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبى ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**» فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم فى بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكان إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «**أينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن**» ولم يكن يخفي عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جداً فى أجوبته ﷺ. مثل قوله: «**إن بعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئا. بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟**» وفى لفظ «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟**» فصرح بالعلة التى يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهى منع الله الثمرة التى ليس للمشترى فيها صنع.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذى سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة، ويميط الأذى عن الطريق: صدقة**» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبى ضمضم من الصحابة رضى الله عنهم. كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لى، أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضى، فمن شتمنى، أو قذفنى: فهو فى حل. فقال النبى ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبى ضمضم؟**»».

وفى هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهى أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولايقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتنى ثمرة عواقبه الحميدة فى الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى: ﴿ **وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ** ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود. قال تعالي: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة فى هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذى بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع فى الميزان. قال النبى ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**» وفى هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لايمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما فى أيدى الناس عليهم، فلا يتلفت إليه. ولايستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه، وهذا الذى قال عبد الله بن المبارك: «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك فى أموالهم. وما فى أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم فى الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص فى القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان.

سعة الضيق

وبداية الارتقاء فى مدارج الإيثار: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لايخرم عليك ديناً، ولا يقطع عليك طريقاً، ولايفسد عليك وقتاً. وذلك بأن تقدمهم على نفسك فى مصالحهم. مثل أن تطعمهم وتجوع. وتكسوهم وتعرى. وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدى ذلك إلى ارتكاب إتلاف لايجوز فى الدين. ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كلا مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً.

وأما أن لايقطع عليك طريقاً: فذلك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك، وتوجهك وجمعيتك على الله. فتكون قد آثرته على الله. وأثرت بنصيبك من الله مالا يستحق الإيثار. فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق. وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالي. فإيثارهم عليه عين الغبن، إلا أن تكون مجالسة ضيف أو نحوه، فإن ذلك من تمام الجود والإيثار، كما ذكرنا.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته: قبيح أيضاً . أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله، فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا أيضا إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التى لا تتعين عليك، على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، مالم يكن نصر مظلوم وإغاثة لهفان أوشفاعة حسنة.

ومن هذا تكلم الفقهاء فى الإيثار بالقرب. وقالوا: إنه مكروه أو حرام. كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة.

لا تخف فى الله لومة لائم

ويظل السائر يرتقى حتى يؤثر رضا الله على رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطول والبدن.

فهو يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق. وهى درجة الأنبياء. وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه. وأعلاها لأولى العزم منهم. وأعلاها لنبينا ﷺ فإنه قاوم العالم كله. وتجرد للدعوة إلى الله. واحتمل عداوة البعيد والقريب فى الله تعالى. وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه. ولم يأخذ فى إيثار رضاه لومة لائم. بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه. حتى ظهر دين الله على كل دين. وقامت حجته على العالمين. وتمت نعمته على المؤمنين. فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتي أتاه اليقين من ربه. فلم ينل أحد من درجة هذا الإيثار ما نال . صلوات الله وسلامه عليه.

والمحنة تعظم على صاحب هذا الإيثار. ليتأخر من ليس من أهله. فإذا احتملها وتقدم: انقلبت تلك المحن منحاً. وصارت تلك المؤن عوناً وهذا معروفا بالتجربة الخاصة والعامة. فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته: إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته. فانقلبت مخاوفه أماناً. ومظان عطبه بحاة، وتعبه راحه، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضا، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين.

هذا، وقد جرت سنة الله- التى لا تبديل لها- أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه. ويخذله من جهته. ويجعل محنته على يديه. فيعود حامده ذاما. ومن آثر مرضاته ساخطاً. فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل. وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضا الخلق: لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور، فهو مستحيل. بل لابد من سخطهم عليك. فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض. فإذا كان سخطهم لابد منه- على التقديرين- فآثر سخطهم الذى ينال به رضا الله. فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شئ رضا من لاينفعك رضاه، ولايضرك سخطه فى دينك، ولا في إيمانك، ولا فى آخرتك، فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم. وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما. وتفويت أدني المصلحتين لتحصيل أعلاهما. فوازن بعقلك. ثم انظر أى الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعد عنه. فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضا الله على رضا الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال الشافعى رضي الله عنه: رضا الناس غاية لا تدرك. فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومن المعلوم: أن الموثر لرضا الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم فى إتلافه ولابد. هذه سنة الله فى خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن آثر رضا الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً...﴾** [الفجر: ٢٧ - ٣٠] ومن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال. ولا تقلقله الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

وملاك ذلك أمران: الزهد فى الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ فى العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين، وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجإ والطلب، والتصدى للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده: **﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾** [الإنسان: ٣٠، ٣١].

(٣٤) منزلة الخُلق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخُلق»

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضي عندى منه. وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهى عنه من نهي الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذى آثرك الله به فى القرآن.

وفى الصحيحين: أن هشام بن حكيم: «سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئا».

وقد جمع الله من مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما هذا؟ قال: لا أدرى حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**».

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال.

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثانى: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه فى أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذى به صلاحهم وصلاح شانهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعّت له به أنفسهم، سماحة واختياراً، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم

لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٩٩] قال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعنى خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء فى البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ماعفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** ﴾ وهو كل معروف. وأعرفه: التوحيد. ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ يعنى إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣] وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولاينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ. قال أنس رضي الله عنه: «**كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً**» وقال: «**مامست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ. ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ. ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. فما قال لى قط: أف. ولا قال لشئ فعلته: لم فعلته؟ ولا لشئ لم أفعله: ألا فعلت كذا؟**» متفق عليهما.

وأخبر رسول الله ﷺ: «**أن البر: هو حسن الخلق**».

وفى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: «**سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك فى صدرك. وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

فقابل البر بالإثم. وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حواز الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر: «**البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر**» وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والإثم حواز الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به. وهذا غير حسن الخلق وسوئه فى عرف كثير من الناس. كما سيأتى فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ «**خياركم أحاسنكم أخلاقا**».

وفي الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «**ما من شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذئ**» قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضاً – وصححه– عن أبى هريرة رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج**».

وفيه أيضاً عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ– وصححه– «**إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم: خياركم لنسائهم**».

وفى الصحيح عن عائشة عنه ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عنه ﷺ: «**أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محقاً. وببيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت فى أعلي الجنة لمن حسن خلقه**» رواه الطبرانى وإسناده صحيح.

فجعل البيت العلوى جزءا لأعلى المقامات الثلاثة: وهى حسن الخلق، والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها. وهو ترك المماراة. وإن كان معه حق. ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفى الترمذى عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن من أحبكم إليّ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمشتدقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون**» الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية. والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله: من الفهق. وهو الامتلاء.

الأخلاق الأساسية

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لايتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والإناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالى الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة

نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبى ﷺ **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذى يملك نفسه عند الغضب»** وهو حقيقة الشجاعة، وهى ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفى الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذى هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن فى صورة القبيح، والقبيح فى صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالا.

والظلم: يحمله على وضع الشئ فى غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضي في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل فى موضع البذل، ويبذل فى موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين فى موضع الشدة، ويشتد فى موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس فى الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها فى الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمر والأخلاق.

ويتولد من إفراطها فى القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذى يكتنفه خلقاً الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحفرت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما إلي كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يطمع في نفسه عدوه. ويفوته كثير من مصالحه. ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما إلي جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة، والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف. كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلي عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلى كبر، وإما إلى ذل. والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق« الشجاعة» انحرفت: إما إلي تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت: إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضى بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلى حرص وكَلَبٍ، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لايقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة. وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق. وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقه الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع

فى الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة، والنفرة فى قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيزجانبه، حبيب لقاؤه. وفى صفة نبينا ﷺ **«من رآه بديهة هابه. ومن خالطه عشرة أحبه»** والله أعلم

فضيلة المغالبة

اعلم أن أصعب ما علي الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها. لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها. فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها. واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق. ولايحتاج إلى علاجها وإزالتها. ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدم قبل هذا مثلا نضربه. مطابقاً لما نريده. وهو: نهر جار فى صببه ومنحدره، ومُنته إلى تغريق أرض وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه لاينتهى حتى يخرب دورهم. ويتلف أراضيهم وأموالهم. فانقسموا ثلاث فرق.

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه. فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر. فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة. وعلمت أنه لايغنى عنها شيئاً. فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع. فرامت قطعة من أصله. فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائماً فى قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة، خالفت رأى الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم. فأخذوا فى صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهى إلى العمران، فصرفوه إلي موضع ينتفعون بوصوله إليه. ولا يتضررون به. فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات. وسقوها به. فأنبتت أنواع العشب والكلإ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق فى شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان– بل وسائر الحيوان– على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية. وشهوانية. وهى الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها. وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان. فبقوة الشهور والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه. وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل

الشهوة فى طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب فى دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد. وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبداً به: أورثه الحسد. فإن ظفر به. أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشئ، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعلمها فيه: أورثه ذلك العدوان، والبغى والظلم، ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتى الشهوة والغضب.

فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين. وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواصله، يخربها ويتلفها ولابد. فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرب ديار الإيمان. وقلع آثاره. وهدم عمرانه. وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل وضريع وشوك وزقوم. وهو الذى يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤول إليه أمر هذا النهر. فافترقوا ثلاث فرق.

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه. فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلة البشرية. ولم تنقد له الطبيعة. فاشتد القتال. ودام الحرب وحمى الوطيس. وصارت الحرب دولاً وسجالا. وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها. وشغلوا نفوسهم بالأعمال. ولم يجيبوا دواعى تلك الصفات مع تخيلتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكنوا نهرها من إفساد عمرانهم. بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه. فإذا وصل وصل إلي بناء محكم فلم يهدمه. بل أخذ عنه يميناً وشمالا. فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم فى العمارة، وإحكام البناء. وأولئك صرفوها فى قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفا من هدم البناء.

وقد سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؟ فقال لى: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التى فى طريق المسافر. فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع. ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكن همتك المسير. والإعراض عنها. وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله. ثم امض على سيرك.

إذا تبين هذا. فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثاً. وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد. والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها. وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر. فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر، والبطر والظلم والعدوان. ويسقى به علو الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم

والعلو عليهم. وهذه درة فى صدفته. فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس. واستخرجوا هذه الدرة من صدفته. وأبقوه على حاله في نفوسهم. لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع. وقد رأى النبى ﷺ أبا دجانة يتبختر بين الصفين. فقال: «**إنها لمشية يبغضها الله، إلا فى مثل هذا الموضع**».

فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجرى فى أحسن مواضعه.

وفى الحديث الآخر- وأظنه فى المسند- «**إن من الخيلاء ما يحبها الله. ومنها ما يبغضها الله. فالخيلاء التى يحبها الله: اختيال الرجل فى الحرب، وعند الصدقة**».

فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية؟ وكيف استحال القاطع موصولا؟

فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلوات: هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك فى الآفات، والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مُسلَّم إلى الرسل. وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها. وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشاداً، لا خلقا ولا إلهاما. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢] وقال تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)**﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكي نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التى لم يجئ بها الرسل: فهو كالمريض الذى يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم. وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد. والتسليم لهم. والله المستعان.

من كلٍّ حسب قدرته

وأساس الأخلاق: أن تعرف مقام الخلق. وأنهم بأقدارهم مربوطون. وفي طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقوفون: فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك، ومحبة الخلق إياك، ونجاة الخلق بك.

فبهذه الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق فى معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم. فإنك إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مقيدون بالقدر، لا خروج لهم عنه ألبتة، ومحبوسون فى قدرتهم وطاقتهم، ولايمكنهم تجاوزها إلى غيرها. وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدرى لايتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك. وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة. لم يطالبهم بمالايقدرون عليه. وامتثل

فيهم أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم. فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس فى قواهم وقدرهم.

وأيضاً فإنهم يؤمنون لائمته. فإنه فى هذه الحال عاذر لهم فيما يجرى عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم. لأنهم إذا كانوا محبوسين فى طاقتهم فينبغى مطالبتهم بما يطالب به المحبوس. وعذرهم بما يعذر به المحبوس. وإذا بدا منهم في حقك تقصير أو إساءة، أو تفريط. فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم. بل اغفر لهم ذلك واعذرهم. نظراً إلى جريان الأحكام عليهم، وأنهم آلة. وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالما فالذى سلطك عليّ ليس بظالم.

وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

محن الدعاة.. سنة كونية قضاها الله

أحدها: هذا، وهو مشهد «القدر» وأن ما جرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذى بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبته مشيئة الله. فما شاء الله كان. ووجب وجوده. ومالم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لا محالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

للصبر في المحن لذة

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا- وهو محمود- صبر اضطراراً على أكبر منه. وهو مذموم.

عز العفو

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشى فى بصيرته. فإنه «مازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» كما صح ذلك عن النبى ﷺ. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ.

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شئ منه فى المقابلة والانتقام.

نرضى ليرضى

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا لايكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به فى الله، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها فى الله. وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله فى رضا محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلا على كذبه في محبته.

نحسن لمن أساء

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة المسئ إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته. وأثبتها فى صحيفة من أساء إليه. فينبغى لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب. وهذا المسكين قد وهبك حسناته. فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت الهبة. وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفى هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل العزائم.

ويهونه عليك أيضاً: علمك بأن الجزاء من جنس العمل. فإن كان هذا عملك فى إساءة المخلوق إليك عفوت عنه. وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلّك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغنى بك فى إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك. فهذا لابد منه.

خواطر الثأر تستهلك القلب

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لايشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشئ فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك مغبوناً. والرشيد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه. فأين سلامة القلب من امتلاكه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر فى إدراك الانتقام؟

العفو يقطع إلحاح الجاهل فى الظلم

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقعه الخوف ولابد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لايأمن عدوه، ولا كان حقيراً. فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها.

ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. ويكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضا.

صفقة رابحة ثمنها.. عرض ودماء

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده فى سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولا شئ له قبله، إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا منع النبى ﷺ المهاجرين من سكنى مكة- أعزها الله- ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذى أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه فى سبيل الله.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بمشهد من الصحابة رضى الله عنهم «**تلك دماء وأموال ذهبت في الله. وأجورها على الله. ولا دية لشهيد**» فأصفق الصحابة على قول عمر. ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذى فى الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

تكفير الخطايا بالمحن.. نعمة

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه.

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه فى أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالما يترقب المقت والأخذ. فلو خير العاقل بين الحالتين- ولابد من إحداهما- لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله فى التكفير بذلك من خطاياه. فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه فذلك فى الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضى أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه فى الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. واظنر إلى شفقة الطبيب الذى ركبه لك، وبعثه إليك على يدى من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإن ما من محنة إلا وفوقها ماهو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. وأنها فى الحقيقة نعمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين.

هذا. وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قبل الناس من الحقوق فى المال والنفس والعرض. فالعاقل يعد هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذى لايجدى عليه شيئا.

على الدرب .. نجدد المثال

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضي أن يكون له أسوة برسل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه، فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل فى الحدور. ويكفى تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله. وقد قال له ورقة بن نوفل «لتكذبن، ولتخرجن، ولتؤذين» وقال له: «ماجاء أحد بمثل ماجئت به إلا عودى» وهذا مستمر فى ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضي العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء، وأذى الجهال لهم. وقد صنف فى ذلك ابن عبد البر كتاباً سماه «محن العلماء».

السائر إلى الله.. لا توقفه الأشواك

المشهد الحادى عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والإنس به، واطمأن إليه. وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فوّض إليه أموره كلها ورضى به وبأقضيته. وفنى بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه، عن كل ما سواه فإنه فلا يبقى فى قلبه مستع لشهود أذى الناس له ألبتة. فضلا عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بطلب الانتقام والمقابلة. فهذا لايكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أى طعام رأه هفت إليه نوازعه. وانبعثت إليه دواعيه. وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها. فإنه لايلتفت إلى ما دونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءه. والله ذو الفضل العظيم.

اطلب العذر.. واشكر

ولاتتم هذه المشاهد إلا بتحسين خلقك مع الحق تعالى، بأن تعلم أن كل ما يأتى منك يوجب عذراً، وأن كل مايأتى من الحق سبحانه يوجب شكراً.

وهذه الدرجة مبنية على قاعدتين:

إحداهما: أن تعلم أنك ناقص. وكل ما يأتى من الناقص ناقص. فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة. فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتى به من خير وشر. أما الشر: فظاهر، وأما الخير: فيعتذر من نقصانه، ولايراه صالحاً لربه.

فهو- مع إحسانه- معتذر فى إحسانه. ولذلك مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقال النبى ﷺ: **«هو الرجل يصوم، ويتصدق. ويخاف أن لايقبل منه»** فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذار أمران.

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

والثاني: صدق محبته. فإن المحب الصادق يتقرب إلي محبوبه بغاية إمكانه.

وهو معتذر إليه، مستحى منه: أن يواجهه بما واجهه به. وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه. وهذا مشاهد فى محبة المخلوقين.

القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك، وأنك عاجز عن شكره. ولايتبين هذا إلا فى المحبة الصادقة. فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله. فإذا ذكره بشئ وأعطاه إياه: كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطية.

التجريدان المتكاملان

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبد القادر الكيلانى فقال: كن مع الحق بلا خلق. ومع الخلق بلا نفس.

فتأمل. ما أجمل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك. ولكل خلق جميل؟ وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين خلقه. فمتى عزلت الخلق- حال كونك مع الله تعالى- وعزلت النفس- حال كونك مع الخلق- فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم. وشمروا إليه. وحاموا حوله. والله المستعان.

(٣٥) منزلة التواضع

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « التواضع »

قال الله تعالى :﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] أى سكينة ووقارا متوضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لايسفهون . وإن سفه عليهم حلموا.

و« الهون » بالفتح فى اللغة: الرفق واللين. و« الهون » بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٤]

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة واخبات عداه بأداة « على » تضميناً لمعانى هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذى صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول. كما في الحديث «**المؤمن كالجمل الذلول. والمنافق والفاسق ذليل**» وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب. والنمام. والبخيل، والجبار.

وقوله: « أعزة على الكافرين» هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء رضي الله عنه: للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]

وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا، حتى لايفخر أحد من أحد. ولا يبغى أحد على أحد**».

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**».

وفى الصحيحين مرفوعاً : «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر**».

وفى حديث احتجاج الجنة والنار: «**أن النار قالت: مالى لايدخلنى إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم**» وهو فى الصحيح.

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله عز وجل: العزة إزارى، والكبرياء ردائى. فمن نازعنى عذبته**».

وفى جامع الترمذى مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه: «**لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى ديوان الجبارين. فيصيبه ما أصابهم**».

وكان النبى ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ. فتنطلق به حيث شاءت.

وكان النبى ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون فى بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم. ويجالس المساكين، ويمشى مع الأرملة واليتيم فى حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلى أيسر شئ.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جوادا من غير سرف، رقيق القلب رحيما بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟- أو تحرم عليه النار- تحرم على كل قريب هين لين سهل**» رواه الترمذى. وقال: حديث حسن.

وقال: «**لودعيت إلى ذراع- أو كراع- لأجبت، ولو أهدى إلىّ ذراع- أو كراع- لقبلت**» رواه البخارى.

وكان ﷺ يعود المريض. ويشهد الجنازة. ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف.

دوائر التواضع

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لاترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب، وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والعز فى التواضع. فمن طلبه فى الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف فى التواضع . والعز فى التقوى . والحرية فى القناعة .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت : « يا أمير المؤمنين، لاينبغى لك هذا . فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين . دخلت نفسى نخوة، فأردت أن أكسرها » .

وولى أبو هريرة رضى الله عنه إمارة مرة . فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره . ويقول : طرِّقَوا للأمير .

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز : فاستضافوه . فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله . فأطعمهم وكساهم، وقال : اليد لهم . لأنهم لايجدون شيئاً غير ما أطعمونى، ونحن نجد أكثر منه .

ويذكر أن أبا ذر رضى الله عنه عيّر بلالا رضى الله عنه بسواده، ثم ندم . فألقى بنفسه فحلف : لا رفعت رأسى حتى يطأ بلال خدى بقدمه . فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال .

وقال رجاء بن حيوة . قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه- وهو يخطب- باثنى عشر درهما . وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسروالا ورداء وخفين وقلنسوة .

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أن ابناً له اشترى له خاتماً بألف درهم . فكتب إليه عمر : بلغنى أنك اشتريت فصاً بألف درهم . فإذا أتاك كتابى فبع الخاتم . وأشبع به ألف بطن . واتخذ خاتماً بدرهمين . واجعل فصه حديداً صينياً . واكتب عليه : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، والله اعلم .

الانقياد للحق روح التواضع

وروح التواضع : أن يتواضع لعبد لصولة الحق .

بأن يتلقي سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقه . بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك فى مملوكه . فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع . ولهذا فسر النبى ﷺ الكبر بضده . فقال : **«الكبر بطر الحق، وغمص الناس»** فبطر الحق : رده وجحده، والدفع فى صدره . كدفع الصائل . و« غمص الناس » احتقارهم، وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم : دفع حقوقهم . وجحدها، واستهان بها .

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة : كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التى فيها، ولاسيما النفوس المبطلة . فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها . فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها . فلا يقابلها بصولته عليها .

لا نعارض الدليل والمنقول برأى أو قياس

وركنه الأهم: التواضع للدين. وهو أن لايعارض بمعقول منقولاً ولايتهم للدين دليلا. ولا يرى إلى الخلاف سبيلا.

و« التواضع للدين » هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء.

الأول: أن لايعارض شيئاً مما جاء به بشئ من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول ، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحى بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل. وعزلنا النقل.

والثانية: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأى والنصوص: قدمنا القياس على النص. ولم نلتفت إليه.

والثالثة: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد. فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر. قدموا الذوق والحال. ولم يعبأوا بالأمر.

والرابعة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة. قدموا السياسة. ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثاني: أن لايتهم دليلا من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، . أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شئ من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتــه من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهــان منــه على قدر القرائح والفهــوم

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن. المأفون فى عقله، وذهنه، فالآفة من الذهن العليل. لا فى نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزاً من كنور العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا فى حق نفسك.

لأنك لم تأخذ له السبيل السوى من صدق الإخلاص والضراعة إلى الله مقلب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصفية لذهنك المنظفة لقلبك، من صدق التوجه إلى هدى رسول الله ﷺ، لتستأهل هذا الكنز.

وأما بالنسبة إلي غيرك: فاتهم آراء الرجال علي نصوص الوحى، وليكن ردها أيسر شئ عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شئ.

قال الشافعى، قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ: لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

الثالث: أن لايجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة. لا بباطنه، ولا بلسانه ولابفعله. ولا بحاله. بل إذا أحس بشئ من الخلاف: فهو كخلاف المقدم على الزنا. وشرب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك. وهو داع إلى النفاق. وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص- لقول متبوعه وشيخه ومقلده، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته إن كان عند الله معذوراً، ولا والله ما هو بمعذور- فالمخالف لقوله لنصوص الوحى أولى بالعذر عند الله ورسوله، وملائكته. والمؤمنين من عباده.

فواعجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً، أو تأويلاً، أو لغير ذلك. فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم. لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل. وبغوه الغوائل. ورموه بالعظائم. وجعلوه أسوأ حالا من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذاً. وقذفوه بمصابهم. وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذاً. والله أعلم.

ثقة.. على بصيرة

ولايصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة فى البصيرة، والاستقامة بعد الثقة. وأن البينة وراء الحجة.

فيعلم أولاً أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هى فى البصيرة. فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال فى الدنيا. والشقاء في الآخرة.

والبصيرة نور يجعله الله فى عين القلب، يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلي العين.

وهذه «البصيرة» وهبية وكسبية. فمن أدار النظر فى أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه: استنارت بصيرته. ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل.

ثم أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة، أى لا يتصور حصول الاستقامة فى القول والعمل والحال، إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم. وأنه مقتبس من مشكاة النبوة، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

ومبنى هذا على أن يعلم أن البينة وراء الحجة. و« البينة » هى: استبانة الحق وظهوره. وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح.

وفيه معنى آخر. وهو: أن العبد إذا قبل حجة الله بمحض الإيمان والتسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها، وانكشافها لقلبه.

وفيه معنى آخر أيضاً: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذى هو حجة الله على العبد. فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشكلا عليه عن علومه، وما كان معيبا من أعماله.

نؤاخي كل مسلم ونقبل عذره

وجمال التواضع إنما يكون بأن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبداً من المسلمين أخاً، وإن لا ترد على عدوك حقاً، وإن تقبل من المعتذر معاذيره.

فإذا كان الله قد رضى أخاك المسلم لنفسه عبداً، أفلا ترضى أنت به أخاً؟ فعدم رضاك به أخاً: عين الكبر. وأى قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله، لايرضي بإخوته، والله راض بعبوديته؟

ولا تصح لك درجة « التواضع » حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة « التواضع » أنه إذا جاءك قبلته منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمنعك عدواته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

وكذلك من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن « التواضع » يوجب عليك قبول معذرته. حقاً كانت أو باطلاً. وتكل سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله ﷺ فى المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول. ولو قضى شئ لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك.

وتمام التواضع: أن لايري العابد لنفسه حقاً على الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمتى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولاينافى هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم. فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه. لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان فى هذا الموضع الذى هو مفترق الطرق.

ولتكن إجابتك لداعى الحق خالصة، إجابة محبة ورغبة، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم.

فمن أعرض عن طلب ما سوى الله، ولم يشب طلبه له بعوض، بل كان حبا له، وإرادة خالصة لوجهه. فهو في الحقيقة الذى يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها. فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه فى حصولها. وهو محمود مشكور مقرب.

واعلم أنه لايستوجب العبد على الله بسعيه نجاة ولا فلاحا. ولا يدخل أحداً عملُه الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار. والله تعالى- بفضله وكره، ومحض وجوده وإحسانه- أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقاً بمقتضى الوعد. فإن وعد الكريم إيجاب، ولو بـ «عسى، ولعل».

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما «عسى: من الله واجب».

ووعد اللئيم خلف. ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله لاينافى ما أوجبه الله على نفسه. وجعله حقاً لعبده. قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: **«يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه لايشركوا به شيئاً. يا معاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه: أن لايعذبهم بالنار»**.

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق، ولايضيع لديه سعى. كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا. ولاسعى لديه ضائع

إن عُذِّبوا فبعدله، أو نُعِّموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسع

(٣٦) منزلة الفُتُوَّة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الفتوة »

وهذه المنزلة حقيقتها هى منزلة الإحسان إلى الناس . وكف الأذى عنهم . واحتمال أذاهم . فهى استعمال حسن الخلق معهم . فهى في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله . والفرق بينها وبين المروءة : أن المروءة أعم منها . فالفتوة نوع من أنواع المروءة . فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد ، أو متعد إلى غيره . وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به ، أو متعلق بغيره .

و« الفتوة » إنما هى استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق .

فهى ثلاثة منازل : منزلة التخلق وحسن الخلق . ومنزلة الفتوة . ومنزلة المروءة . وقد تقدمت منزلة الخلق .

وهذه منزلة شريفة ، لم تعبر عنها الشريعة باسم « الفتوة » بل عبرت عنها باسم « مكارم الأخلاق » كما في حديث يوسف بن محمد المنكدر عن أبيه عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال » .

وأصل « الفتوة » من « الفتى » وهو الشاب الحديث السن . قال الله تعالى عن أهل الكهف ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

قال الفضيل بن عياض : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه - فى رواية ابنه عبد الله - عنه ، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقال عمر بن عثمان المكى : الفتوة حسن الخلق .

وقال الجنيد : الفتوة كف الأذى وبذل الندى .

وقال سهل : هي اتباع السنة .

وقيل : فضيلة تأتيها ، ولا ترى نفسك فيها . وقيل : أن لا تحتجب ممن قصدك .

وقيل : أن لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف ، وقيل : إظهار النعمة وإسرار المحنة . وقيل : أن لا تدخر ولا تعتذر .

وأصلها : استرسال الناس فى فضلك، فإنك إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عنانك : نالوا من فضلك . فيكون استرسالك سبباً لنيلهم لفضلك، وقبض العنان سبباً للحرمان .

ثم تسعهم بخلقك، باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيه أن يأخذه من أخلاق الناس . وهو العفو .

وتدعهم يطؤونك، أى يدوسونك من لينك وتواضعك، وخفض جناحك، بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبة تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها .

ولكن مع قيام العلم : بأن يكون هذا الاسترسال موافقاً للشرع . غير مخرج عن حدوده وآدابه، بحيث لا تحملهم على تعدى حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عباده، حافظاً لقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه، فأنت معهم مسترسل بشبحك ورسمك وصورتك فقط، ومفارقهم بقلبك وسرك، منتبهاً لسيرك في مدارج « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن هذا الانتباه هو حياة القلب والروح . فإذا فات السائر وغفل عنه : علته الكآبة، وغمره الهم والغم والأحزان، وتاه قلبه فى الأودية والشعاب .

نقص .. وإيثار

قال صاحب المنازل شيخ الإسلام الهروى رحمه الله :

« نكتة الفتوة : أن لا تشهد لك فضلا . ولا ترى لك حقاً » .

يقول : قلب الفتوة، وإنسان عينها : أن تفنى بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم .

والناس فى هذا مراتب . فأشرفها : أهل هذه المرتبة . وأخسها : عكسهم . وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم . وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم .

وأوسطهم : من شهد هذا وهذا . فيشهد ما فى العيب والكمال . ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم .

ومن مظاهرها عنده « ترك الخصومة، والتغافل عن الزلة، ونسيان الأذية » .

فلا يخاصم بلسانه . ولا ينوى الخصومة بقلبه . ولا يخطرها على باله . هذا في حق نفسه .

وأما فى حق ربه : فالفتوة أن يخاصم بالله وفى الله . ويحاكم إلى الله، كما كان النبى ﷺ

يقول في دعاء الاستفتاح «**وبك خاصمت، وإليك حاكمت**» وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى.

وأما «التغافل عن الزلة» فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة يوجب عليه الشرع أخذه بها أظهر أنه لم يرها، لئلا يعرض صاحبها للوحشة.

وفتوة التغافل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية.

وأما «نسيان الأذية» فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له. ولا تستوحش منه.

وهنا نسيان آخر أيضاً. وهو من الفتوة. وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أكمل من الأول. وفيه قيل:

ينسى صنائعه والله يظهرها   إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

المعاكسة البنَّاءة

ثم من مظاهرها عنده: «أن تُقَرِّب من يقصيك. وتكرم من يؤذيك. وتعتذر إلى من يجنى عليك، سماحة لا كظماً، ومودة لا مصابرة»، بأن يكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطَّتين. فخطتك: الإحسان. وخطته: الإساءة.

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي. فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة. وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أنى لأصحابى مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له. فنهرنى وتنكر لى واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إنى لكم مكانه، ولايكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له. وعظموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضى عنه.

ومعنى الاعتذار إلى من يجنى عليك: إنك تنزل نفسك منزلة الجانى لا المجنى عليه، والجاني خليق بالعذر.

والذى يشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سلط عليك بذنب، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم الله منك على يده: كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار.

فالفتوة كل الفتوة: أن لا يظهر له منك عتب ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته، ولا تطوى عنه بشرك ولا برك. وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر: لم يكن لك في الفتوة نصيب.

والذى يهون عليك هذا كله: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة. فعليك بها. فإن فيها كنوز المعرفة والبر.

وقوله «سماحة لا كظما. ومودة، لا مصابرة».

يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة، وطيبة نفس، وانشراح صدر، لا عن كظم، وضيق مصابرة. فإن ذلك دليل على أن هذا ليس فى خلقك. وإنما هو تكلف يوشك أن يزول. ويظهر حكم الخلق صريحاً فتفتضح. وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب.

وهذا الذى قاله الشيخ لايمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم. فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله. والله أعلم.

وفضيلة «المروءة» تتلازم مع فضائل الفتوة هذه.

سمو المروءة

و«المروءة» فعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التى فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

فإن فى النفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الإتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغى، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان. وهى داعى الشهوة.

وداع يدعوها إلى أخلاق الملك: إلى الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعى الثالث، وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة والفتوة: كلها فى عصيان الداعيين، وإجابة الداعى الثالث. كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوة. وخلق البهائم شهوة بلا عقول. وخلق ابن آدم، وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم.

ولهذا قيل في حد المروءة إنها غلبة العقل للشهوة.

وقال الفقهاء في حدها: هى استعمال ما يجمل العبد ويزينه. وترك ما يدنسه ويشينه.

وقيل: المروءة استعمال كل خلق حسن. واجتناب كل خلق قبيح.

وحقيقة «المروءة» تجنب للدنايا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلاً وعرفاً وشرعاً.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة الترك فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والاغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك. وترك الاستقصاء فى طلبه، والتغافل عن عثرات الناس، وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير. وهى على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه. وهى أن يحملها قسرا على ما يُجمل ويزين. وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة فى العلانية. فمن أراد شيئاً فى سره وخلوته: ملكه في جهره وعلانيته. فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوت مزعج ما وجد إلى خلافه سبيلا، ولا يجشع وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة: فلا يفعل خالياً ما يستحى من فعله في الملأ، إلا مالايحظره الشرع والعقل. ولا يكون إلا فى الخلوة، كالجماع والتخلى ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه. وليتخذ الناس مرآة لنفسه. فكل ما كرهه ونفر عنه، من قول أو فعل أو خلق، فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل وناقص، وسئ الخلق وحسنه. وعديم المروءة وغزيرها.

وكثير من الناس: يتعلم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روى عن بعض

الأكابر: أنه كان له مملوك سئ الخلق، فظ غليظ. لا يناسبه فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق فى ضد أخلاقه. ويكون بتمرين النفس على مصاحبته ومعاشرته، والصبر عليه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، واطلاعه عليك في كل لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك. وأنت ساع فى تسليم المبيع. وتقاضى الثمن وليس من المروءة تسليمه على ما فيه من العيوب وتقاضى الثمن كاملاً. أو رؤية منَّته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولى له. لا أنت. فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة. والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك. وشهود الحقيقة عن رؤية فعالك وصلاحك.

وكل ما تقدم في منزله «الخلق» و«الفتوة» فإنه بعينه في هذه المسألة.

(٣٧) منزلة الإرادة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الإرادة »

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٩] .

وقد تنوعت عبارات القوم عنها . وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة .

ومعنى هذا : أن عادة الناس غالباً التعريج على أوطان الغفلة . وإجابة داعي الشهوة ، والإخلاد إلى أرض الطبيعة ، والمريد منسلخ عن ذلك . فصار خروجه عنه : أمارة ودلالة على صحة الإرادة . فسمى انسلاخه وتركه إرادة .

وقيل : نهوض القلب فى طلب الحق .

ويقال : لوعة تهون كل روعة .

قال الدقاقى : الإرادة لوعة في الفؤاد ، لذعة فى القلب ، غرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيران تأجج في القلوب .

وقيل : من صفات المريد : التحبب إلى الله بالنوافل ، والإخلاص فى نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والإيثار لأمر الله تعالى ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود ، والتعرض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة ، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده .

وقيل : من حكم المريد أن يكون نومه غلبة ، وأكله فاقه ، وكلامه ضرورة .

وقال أبو عثمان الحيرى : من لم تصح إرادته ابتداء ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً .

وقال : المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به : صار حكمة فى قلبه إلى آخر عمره ينتفع به . وإذا تكلم انتفع به من سمعه . ومن سمع شيئاً من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها .

وقال يحيى بن معاذ : أشد شئ على المريد : معاشرة الأضداد .

وعلم السلوك مبنى علي الإرادة ، فهى أساسه ومجمع بنائه ، وهو مشتمل علي تفاصيل أحكام الإرادة ، وهى حركة القلب ، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح .

فالفقيه: ينظر فى تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع، ونهيه وإذنه، وكراهته، ومتعلقات ذلك.

والمريد: ينظر فى تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده. أو قاطعة عنه، ومفسدة لقلبه، أو مصححة له.

ولابد فى ذلك من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة. لا تعوز إلا الداعى. ودعوة مستمعة، وتخلية الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

ومن مقدماتها: الذهاب عن العادات بصحة العلم، مع صدق القصد، وخلع كل شاغل.

وهذا يوافق من حد «الإرادة» بأنها: مخالفة العادة، وهى ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعوناتها وبطالاتها. ولايمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهى: صحبة العلم ومعانقته. فإنه النور الذى يُعرِّف العبد مواقع ما ينبغى إيثار طلبه. وما ينبغى إيثار تركه. فمن لم يصحبه العلم: لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين. ولا عبرة بقطاع الطريق.

ومما يعين السالك على ترك العادة: ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك، من صحبة الأغيار أهل البطالة. فليس على المريد أضر من عُشَرائه القاطعين له عن سيره إلى الله تعالي، فليغترب عنهم بجهده.

فإذا صحت له هذه المقدمات: أسلمته إلى ترويح الأنس، والسير بين القبض والبسط، فينتقل من مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها وأحوالها، فيترقى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان، فإن السالك فى أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل لعدم أنس قلبه بمعبوده فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق فصارت قرة عين له. وقوة ولذة. فتصير الصلاة قرة عينه، بعد أن كانت عملاً عليه. ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراث من قوله ﷺ: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**» ، «**وجعلت قرة عينى فى الصلاة**» بحسب إرادته، ومحبته، وأنسه بالله سبحانه وتعالى ، ووحشته مما سواه.

وأما «السير بين القبض والبسط»

فـ«القبض» و«البسط» حالتان تعرضان لكل سالك. يتولدان من الخوف تارة، والرجاء تارة. فيقبضه الخوف. ويبسطه الرجاء.

ويتولدان من الوفاء تارة، والجفاء تارة. فوفاؤه يورثه البسط. وجفاؤه يورثه القبض.

وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدرى ما سببه. وحكم صاحب هذا القبض: أمران.

الأول: التوبة والاستغفار، لأن ذلك القبض نتيجة جناية. أو جفوة . ولا يشعر بها.

والثاني: الاستسلام حتى يمضى عنه ذلك الوقت، ولايتكلف دفعه. ولا يستقبل وقته مغالبة وقهراً. ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل. وليرقد حتى يمضى عامة الليل. ويحين طلوع الفجر. وانقشاع ظلمة الليل. بل يصبر حتى يهجم عليه الملك. فالله يقبض ويبسط.

وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز. وليحرزه بالسكون والانكماش. فالعاقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار، حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما. وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

فلا يخرجه البسط عن استقامته، ولا عن الوقوف بأدب بين يدى ربه.

(٣٨) منزلة الأدب

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الأدب»

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم.

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذى يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

مسالك الأدب

و«الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه. وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال يحيي بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.

وقال ابن المبارك: نحن إلي قليل من الأدب أحوج منا إلي كثير من العلم.

وسئل الحسن البصرى رحمه الله عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والزهد فى الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهل: القوم استعانوا بالله علي مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون.

وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

وقال أبو حفص– لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين– فقال: حسن الأدب فى الظاهر عنوان حسن الأدب فى الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضي التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

وقال سهل من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.

وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

قال المسيح عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره. فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ثم أثنى على ربه. ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به- وهو محض التوحيد- فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامة فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام. أى شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا عذبتهم- مع كونهم عبيدك- فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له: لم تعذبهم. لأن قربة العبودية تستدعى إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أى هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

فهو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله فى وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب فى

غضبه على من غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه. ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم. وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين فى هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفى بعض الآثار: «**حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك**» ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخري، كقوله «**والله عليم حليم**» وقوله: «**وكان الله عفواً قديراً**».

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾** ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] ولم يقل «وإذا أمرضنى» حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام فى السفينة: ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل «فأراد ربك أن أعيبها» وقال فى الغلامين: ﴿ **فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا** ﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمنى الجن: ﴿ **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ** ﴾ [الجن: ١٠] ولم يقولوا «**أراده ربهم**» ثم قالوا: «**أم أراد بهم ربهم رشدا**».

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل أطعمنى.

وقول آدم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقل «**رب قدرت عليَّ وقضيت عليَّ**».

وقول أيوب عليه السلام ﴿ **مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ولم يقل «فعافنى واشفنى».

وقول يوسف لأبيه وإخوته ﴿ **هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ** ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل «أخرجنى من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته، أن لايخجلهم بما جرى فى الجب. وقال: ﴿ **وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ** ﴾ ولم يقل «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه. فقال: ﴿ **مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** ﴾ فاعطى الفتوة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

ومن هذا أمر النبى ﷺ الرجل: أن يستر عورته، وإن كان خالياً لايراه أحد. أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: إلزم الأدب ظاهراً وباطناً. فما أساء أحد الأدب فى الظاهر إلا عوقب ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب: استخراج ما فى الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة كالنار فى الزناد، فألهمه ومكنه، وعرفه وأرشده، وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التى أهّله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ⑩﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً. ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها. ورفعها بآدابه التى أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهى التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها: فاخفاها وحقرها. وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الأخلاق النبوية السامية

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيرى صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكانهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ فى ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور. طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لايصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولايتجاوزه.

هذا معني ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه.

وفى هذه الآية أسرار عجيبة. وهى من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته. وتوافقاً وتصادقاً فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهدته بصيرته فهو

أيضاً حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)﴾ [النجم: ١١، ١٢] أى ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر «ماكذّب الفؤاد» ما رأى- بتشديد الذال- أى لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر. أو استقامة البصيرة والبصر. وكون المرئى المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور «ما كذّب الفؤاد» بالتخفيف. وهو متعدّ. و«مارأى» مفعوله: أى ما كذّب قلبه ما رأته عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر. ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يمل عن المرئى فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئى ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلب فى الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذى أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذى لايلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت فى مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم فى ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبته؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه، وبكى «قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكى أن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى» ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه فى مسراه يسبق خطوة الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكبه، وبعد شأوه، الذى سبق العالم أجمع فى سدرة، فكان قدم البراق لايختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ فى خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات. وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصباباً. وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجابا. وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان فى المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً، يغبطه به الأولون والآخرون. واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم

بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾ [يس: ١ – ٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

الأدب يجمل العبادة

و«الأدب» هو الدين كله. فإن ستر العورة من الأدب. والوضوء وغسل الجنابة من الأدب. والتطهر من الخبث من الأدب. حتى يقف بين يدى الله طاهراً.

ومن الأدب: نهى النبى ﷺ المصلى: «**أن يرفع بصره إلى السماء**».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية– قدس الله روحه– يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدى ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

ومن الأدب مع الله: أن لايستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبى ﷺ في حديث أبى أيوب وسلمان وأبى هريرة، وغيرهم. رضى الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومنها: السكون فى الصلاة. وهو الدوام الذى قال الله تعالى فيه: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثنى يزيد بن أبى حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ هم الذى يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران. الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه فى استماع القراءة: أن يلقى السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوى. ويعظم الله تعالى، حتى لايكون في قلبه شئ أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالي: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولايستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب ومايكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملا وحالاً. والله المستعان.

وأما الأدب مع الرسول ﷺ : فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره. وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولا. أو يحمله شبهة أو شكا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد، والإذعان. كما وحد المرسل سبحانه وتعالي بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان: لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما. توحيد المرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضي بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره. وتصديق خبره، على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوى مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلاً ، وحملا. فقال : نؤوله ونحمله.

فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق- ما خلا الشرك بالله- خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قدر أن الرسول ﷺ حى بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأى غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه.

فقلت: فما الذى نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شئ نسخ؟

فوضع إصبعه على فيه وبقى باهتاً متحيراً. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه. لا مخالفة أمره والشرك به. ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم. وعزل كلامه عن اليقين وعن أن يستفاد منه معرفة الله، أو تلقى أحكامه منه وجعل المعول فى باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة. وفى الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا فى قطع دابره، واستئصال شأفته. **﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ**

(٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) ﴾ [المؤمنون: ٦٣ – ٧٤]

والناصح لنفسه. العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع: فيرى العجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعى يا جارة» والله المستعان.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ. فالتقدم بين يدى سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه فى حياته، ولا فرق بينهما عند ذى عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدى الإمام وبين يدى الأب. أى لا تعجلوا بالأمر والنهى دونه.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهو حتى ينهى.

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته. فإنه سبب حبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لايجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أى دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلي هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أى دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع- من خطبة، أو جهاد، أو رباط- لم يذهب أحد منهم مذهباً في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهباً

مقيداً بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق فى تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقة، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله. ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه. ولا يحرف كلامه على حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به صلى الله عليه وسلم على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ. وهوعين الجرأة.

كل الحياة ينظمها الأدب

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم – على اختلاف مراتبهم- بما يليق بهم. فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: آداب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: وللبول آخر، ومع السلطان: أدب يليق به، وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوى أنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب ،وللبول آداب. وللكلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره.

فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب. ولااستجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم- تأويلا وإقبالا على الصلاة- كيف امتحن به جريج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟

وتأمل أحوال كل شقى ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هى التى ساقته إلي الحرمان؟

وانظر أدب الصديق رضى الله عنه مع النبى ﷺ فى الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال: « ماكان ينبغى لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله ﷺ » كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه- وقد أومأ إليه أن: أثبت مكانك- جمزا، وسعياً إلى قدام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام. تنقطع فيها أعناق المطى. والله أعلم.

آداب النمط الأوسط

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالى فيه والجافى عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التى سنها

رسول الله ﷺ وفعلها. وهى قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة فى عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأذكار والدعوات التى شرعت سراً. وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه. كالتشهد الأول والسلام الذى حذفه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله ﷺ. ولا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه. فإن النبى ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه. وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات. ويأمرهم بالتخفيف. وتقام صلاة الظهر، فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضى حاجته. ويأتى أهله ويتوضأ. ويدرك رسول الله ﷺ فى الركعة الأولى. فهذا هو التخفيف الذى أمر به. لا نقر الصلاة وسرقها. فإن ذلك اختصار، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم. ويسمى به مصليا، وهو كآكل المضطر فى المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر، وهو كجائع قدم إليه طعام لذيد جداً فأكل منه لقمة أو لقمتين. فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك. لكن القلب شبعان من شئ آخر.

نعم. والله. فإن الصلاة هى غذاء الروح والقلب. فإنه بحاجة إلى غذائه مما يتنزل من رحمات الله. كما أن الجسم بحاجة إلى الغذاء مما تخرج الأرض. ولما كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحتاج إلى غذاء جديد. تفضل الله ربنا سبحانه. فجعل الصلوات خمساً مقسمة على أجزاء اليوم هذا التقسيم الحكيم ليأخذ الروح والقلب- الإنسانى المعنوى الكريم- وجبة الغذاء بعد اضطرابه فى شؤون الحياة وفتنها التى هضمت غداءه، كالجسم سواء بسواء. وهكذا العلم وبقية ما تفضل به علينا ربنا الكريم من العبادات. والأعمال الصالحات.

ومثال ذلك فى حقوق الخلق: أن لايفرط فى القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لايجفو عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هى العدل. والله أعلم.

وزن الأحوال والمقامات بالأدب

ومن الأدب: منع الخوف: أن يتعدى إلى اليأس، وحبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور: أن يضاهئ الجراة.

فالأديب لا يدع الخوف يفضى به إلى حد يوقعه فى القنوط. واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصى الله. فما زاد على ذلك: فهوغير محتاج إليه.

وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى، التى سبقت غضبه، وجهل

بها وأما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، فهو أن لايبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة. فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وهذا إغراق فى الطرف الآخر.

بل حد الرجاء: ما طَيَّب لك العبادة وحملك على السير. فهو بمنزلة الرياح التى تسير السفينة. فإذا انقطعت وقفت السفينة. وإذا زادت ألقتها إلى المهالك. وإذا كانت بقدر: أوصلتها إلى البغية.

وأما ضبط السرور فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم. الذين لاتستفزهم السراء، فتغلب شكرهم. ولا تضعفهم الضراء. فتغلب صبرهم. كما قيل:

لا تغلب السراء منهم شكرهم كلا. ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته، وتشبهه فى صفاته. ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح. فالنفس تسترق السمع. فإذا نزلت على القلب تلك المواهب: وثبت لتأخذ قسطها منها، وتصيره من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها: يدعها تستوفى ذلك. فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها، وعددها. فصالت به وطغت. لأنها رأت غناها به. والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال. فكيف بما هو أعظم خطراً، وأجل قدراً من المال، بمالا نسبة بينهما: من علم، أو حال، أو معرفة؟ فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العبد به– ولابد– إلى طرف مذموم من جرأة، أو شطح، أو ادلال. ونحو ذلك.

فوالله كم ههنا من قتيل. وسليب، وجريح يقول: من أين أتيت؟ ومن أين دهيت؟ ومن أين أصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد. و لهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار، ومطالعة عيوب النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس. ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح. وذقنه تمس قربوس سرجه: انخفاضاً وانكساراً، وتواضعاً لربه تعالى فى مثل تلك الحال، التى عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء.

فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله. وواراه عن استراق نفسه. وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به. فياله من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان.

(٣٩) منزلة اليقين

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « اليقين »

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد . وبه تفاضل العارفون . وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون . وعمل القوم إنما كان عليه . وإشاراتهم كلها إليه .

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين . فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠]

وخص أهل اليقين بالهدي والفلاح من بين العالمين، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤ ﴾ [البقرة: ٤، ٥]

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢]

فـ « اليقين » روح أعمال القلوب التى هى أرواح أعمال الجوارح. وهى حقيقة الصديقية وهو قطب هذا الشأن الذى عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمى عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«لا ترضين أحداً بسخط الله. ولا تحمدن أحداً على فضل الله ولا تذمن أحداً على مالم يؤتك الله. فإن رزق الله لايسوقه إليك حرص حريص. ولا يرده عنك كراهية كاره. وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط»**.

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته. ولهذا حسن اقتران الهدى به. قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]

ومتى وصل « اليقين » إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً. وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم. فامتلأ محبة الله، وخوفاً منه ورضى به، وشكرا له، وتوكلا عليه، وإنابة إليه. فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولايحول، ولايتغير فى القلب.

وقال أبو بكر الوراق : اليقين ملاك القلب . وبه كمال الإيمان . وباليقين عرف الله . وبالعقل عقل عن الله .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر . ويقين دلالة . ويقين مشاهدة .

يريد بيقين الخبر : سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به . وبيقين الدلالة : ما هو فوقه . وهو أن يقيم له- مع وثوقه بصدقه- الأدلة الدالة على ما أخبر به .

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن . فإنه سبحانه- مع كونه أصدق الصادقين- يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره . فيحصل لهم اليقين من الوجهين : من جهة الخبر، ومن جهة الدليل .

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة . وهي « يقين المكاشفة » بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئى لعيونهم . فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب : كنسبة المرئى إلى العين .

قال بعضهم : رأيت الجنة والنار حقيقة . قيل له : وكيف؟ قال : رأيتهما بعينى رسول الله ﷺ . ورؤيتى لهما بعينيه : آثر عندي من رؤيتى لهما بعينى . فإن بصرى قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ .

وأركان علم اليقين : قبول ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب، والوقوف على ما قام بالحق .

فالأول : قبول ما ظهر من الحق تعالى، والذى ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه، ودينه الذى ظهر لنا منه على السنة رسله، فنتلقاه بالقبول والانقياد، والإذعان والتسليم للربوبية . والدخول تحت رق العبودية .

الثاني : « قبول ما غاب » وهو الإيمان بالغيب الذى أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك : من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك : من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال ، وطى العالم . وما قبل ذلك : من أمور البرزخ . ونعيمه وعذابه .

فقبول هذا كله- إيماناً وتصديقاً وإيقانا- هو اليقين . بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة . ولاشك ولا تناس، ولا غفلة . فإنه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه .

الثالث : « الوقوف على ما قام بالحق » سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله .

وهو علم التوحيد، الذى أساسه : إثبات الأسماء والصفات .

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، وتوحيده . وهذه

الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهى، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد، وعلم المعاد واليوم الآخر. والله أعلم.

مقام الأنس بالقرآن

ومن قوى يقينه: حصل له من الأنس بالقرآن مالايحصل للضعيف.

كما أن الأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش.

فالسالك إذا كان محباً صادقاً طالباً لله، عاملا على مرضاته: كان غذاؤه بالسماع القرآنى، الذى كان غذاء سادات العارفين من هذه الأمة، وأبرها قلوباً وأصحها أحوالا، وهم الصحابة رضى الله عنهم.

وهذا السماع القرآنى سماع أهل المعرفة بالله، والاستقامة على صراطه المستقيم. ويحصل للأذهان الصافية منه معان وإشارات، ومعارف وعلوم. تتغذى بها القلوب المشرقة بنور الأنس. فيجد لها لذة روحانية. يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح. وربما فاض حتى وصل إلى الأجسام. فيجد من اللذة مالم يعهد مثله من اللذات الحسية.

فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة. وباشر القلب روح المعنى. وأقبل بكليته على المسموع. فالقى السمع وهو شهيد. وساعده طيب صوت القارئ: كاد القلب يفارق هذا العالم. ويلج عالماً آخر. ويجد له لذة وحالة لايعهدها فى شئ غيره ألبتة. وذلك رقيقة من حال أهل الجنة فى الجنة.

فياله من غذاء ما أصلحه وما أنفعه.

وحرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطانى: أن يجد شيئاً من ذلك فى سماع القرآن.

وليس فى نعيم أهل الجنة أعلي من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عياناً، وسماع كلامه منه.

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة. فإذا امتلأ من محبة الله وسمع كلام محبوبه- أى بمصاحبته وحضوره فى قلبه- فله من سماعه هذا شأن. ولغيره شأن آخر. والله أعلم.

القلب الحى آلة السمع

والناس في السماع على ثلاثة أقسام:

أحدها: من اتصف قلبه بصفات نفسه. بحيث صار قلبه نفساً محضة. فغلبت عليه آفات الشهوات، ودعوات الهوى. فهذا حظه من السماع: كحظ البهائم. لا يسمع إلا دعاء ونداء. والفرق الذى بينها وبينه: غير طائل.

القسم الثاني: من اتصفت نفسه بصفات قلبه. فصارت نفسه قلباً محضاً. فغلبت عليه المعرفة والمحبة. والعقل واللب. وعشق صفات الكمال. فاستنارت نفسه بنور القلب. واطمأنت إلى ربها. وقرت عينها بعبوديته. وصار نعيمها في حبه وقربه. فهذا حظه من السماع مثل- أو قريب- من حظ الملائكة. وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه ونعيمه من الدنيا، ورياضه التى يسرح فيها. وحياته التى بها قوامه.

القسم الثالث: من له منزلة بين منزلتين. وقلبه باق على فطرته الأولى. ولكن ما تصرف في نفسه تصرفاً أحالها إليه. وأزال به رسومها. وجلا عنه ظلمتها. ولا قويت النفس على القلب بإحالته إليها. وتصرفت فيه تصرفاً أزالت عنه نوره وصحته وفطرته.

فبين القلب والنفس منازلات ووقائع، والحرب بينهما دول وسجال، تدال النفس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

فهذا حظه من السماع: حظ بين الحظين، ونصيبه منه بين النصيبين. فإن صادفه وقت دولة القلب: كان حظه منه قوياً. وإن صادقه وقت دولة النفس: كان ضعيفاً.

ومن ههنا يقع التفاوت فى الفقه عن الله. والفهم عنه. والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذه الحال- فى حال سماعه- يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة. ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه، حتى تضع الحرب أوزارها. وربما صادفه فى حال السماع وارد حق، أو الظفر بمعني بديع لايقدر فكره على صيده كل وقت. فيغيب به ويستغرق فيه عما يأتى بعده. فيعجز عن صيد تلك المعاني. ويدهشه ازدحامها. فيبقى قلبه باهتاً. كما يحكى أن بعض العرب: أرسل صائداً له على صيد. فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه. وعن يمينه وعن شماله، فوقف باهتا ينظر يميناً وشمالاً. ولم يصطد شيئاً. فقال:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

فوظيفته فى مثل هذا الحال: أن يعلق قلبه بالمتكلم، وكأنه يسمع كلامه منه. ويجعل قلبه نهراً لجريانه معانيه ويفرغه من سوي فهم المراد. وينصب إليه انصبابا يتلقى فيه معانيه، كتلقى الحب للأحباب القادمين عليه. لايشغله حبيب منهم عن حبيب. بل يعطى كل قادم حقه. وكتلقي الضيوف والزوار. وهذا إنما يكون من سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق، واللطف والإحسان: لايفنى به عما يجئ بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل. بل يسمع الخطاب الثانى مستصحباً لحكم الخطاب الأول

ويمزج هذا بهذا. ويسير بهما ومعهما جميعاً، عاكفاً بقلبه علي المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سير فى الله. وهو نوع آخر أعلى وأرفع من مجرد المسير إليه. ولا ينقطع بذلك سيره إليه. من يدرج سيره. فإن سير القلب فى معانى أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.

ومتى بقيت للقلب فى ذلك ملكة، واشتد تعلقه به: لم تحجبه معانى المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن فى الابتداء يعسر عليه ذلك. وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا ألبتة.

وذلك: لأن هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التى يحصل عنها الأنس. ويتعلق بها. كاسم «الجميل،و البر واللطيف، والودود ، والحليم ، والرحيم» ونحوها.

ثم يقوى التعلق بها حتى يكون معه طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح، مع كمال العافية بلا محنة، والهداية بلا فتنة، فتخف أعباء المسير، ويزول كل فتور، ويظل القلب فى ازدياد من معانى الخير دائماً.

(٤٠) منزلة الذكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الذكر»

وهى منزلة القوم الكبرى، التى منها يتزودون . وفيها يتجرون، وإليها دائماً يترددون .

و«الذكر» منشور الولاية، الذى من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم، الذى متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التى إذا تعطلت عنه صارت بوراً وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذى يطفئون به إلتهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء. فإليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون. ورؤوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلي المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً، وعلى جنوبهم. فالقلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ قلبه للسانه فى ذكره: نسى في جنب ذكره كل شئ. وحفظ الله عليه كل شئ وكان له عوضاً من كل شئ.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، مالم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصرى رحمه الله: تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة، وفى الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذى لا روح فيه والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهى عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والاختبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شئ.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى خدمته كانت كالجسد بلا روح.

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ – ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وفيه قولان. أحدهما: فى سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهى عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ – إلى قوله – وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شئ فكقوله تعالى: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وفيها أربعة أقوال.

أحدها: ذكر الله أكبر من كل شئ. فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلي الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلي المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر. بل إذا تم الذكر: محق كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولعل فى الآية معنى آخر: أن الصلاة هى أكبر الذكر. فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه: ١٤] وهى أكبر وأقوى وأشد ناه عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختم الحج فى قوله: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ [النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠] ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤] وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج، ولبه ومقصوده. كما قال ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار: لإقامة ذكر الله».

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]

الذاكرون سابقون

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم فى صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: **«كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان فقال: سيروا. هذا جمدان سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»**.

«والمفردون» إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفي المسند - مرفوعاً- من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وماذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل»**.

وروى شعبة عن أبى إسحاق قال: سمعت الأغر قال أشهد على أبى هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: **«لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده»**. وهو فى صحيح مسلم.

ويكفى فى شرف الذكر: أن الله يباهى ملائكته بأهله. كما فى صحيح مسلم عن معاوية رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ: **«خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا:**

جلسنا نذكر الله. ونحمده علي ما هدانا للإسلام. ومن علينا، قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آالله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل، فأخبرني: أن الله يباهي بكم الملائكة».

وسأل أعرابى رسول الله ﷺ : **«أى الأعمال أفضل؟ فقال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».**

وقال له رجل: **«إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فمرني بأمر أتشبث به. فقال: لايزال لسانك رطباً من ذكر الله».**

وفى المسند وغيره من حديث جابر، قال: **«خرج علينا رسول الله ﷺ: فقال: أيها الناس. ارتعوا في رياض الجنة. قلنا: يا رسول الله؛ وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر».**

وقال: **«اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله: فلينظر كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه».**

وروى النبى ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ – ليلة الإسراء– أنه قال له: **«أقرئ أمتك منى السلام.، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء. وأنها قيعان، وأن غرسها: سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلا الله. والله أكبر»** رواه الترمذى وأحمد وغيرهما.

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ : **«مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره: مثل الحى والميت».**

ولفظ مسلم: **«مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لايذكر الله فيه: مثل الحى والميت».**

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحى. وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.

وفى اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحى فى بيوت الأحياء. والغافل كالميت فى بيوت الأموات. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم. وقلوبهم فيها كالأموات فى القبور. كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وفى الصحيح: فى الأثر الذى يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: **«من ذكرنى فى نفسه ذكرته في نفسى. ومن ذكرنى في ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».**

وقد ذكرنا فى الذكر نحو مائة فائدة في كتابنا (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وذكرنا

هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب ثمرته. وذكرنا فيه: أن الذكر ثلاثة أنواع.

ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهى، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادى وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان. وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية. وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده. به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[البقرة: ١٥٢] وقال- فيما يروى عنه نبيه ﷺ- «**من ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى، ومن ذكرنى في ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم**».

أنواع الذكر

وأنواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر».

وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣] و«يا حى قيوم برحمتك أستغيث» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معى. الله ناظر إلي. الله شاهدى ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة: فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث «**أفضل الدعاء الحمد لله**» قيل لسفيان بن عيينه: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية ابن الصلت لعبد الله بن جدعان يرجو نائلة:

أأذكر حاجتى، أم قد كفانى ... حباؤك؟ إن شيمتك الحباء

إذ أثني عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

فهذا مخلوق. واكتفي من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله. فكيف برب العالمين؟

والأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات، والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعليم القلب مناجاة الرب، تملقاً تارة، وتضرعاً تارة، وثناء تارة، واستعظاماً تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب.

(٤١) منزلة الفقر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الفقر»

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها. بل هى روح كل منزلة ؟ وغايتها.

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة «الفقر» والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الأصلى. أن لفظ «الفقر» وقع في القرآن فى مواضع.

أحدها: قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أى الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة. لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفا على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ. وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال فى إحصارهم فى سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم فى طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد فى سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم فى الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض. لطلب المعاش. فلا يستطيعون ضربا فى الأرض.

والصحيح أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لايستطيعون ضربا فى الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

ومنها: قوله تعالي: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ [التوبة: ٦٠]

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [فاطر: ١٥]

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثانى: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون فى الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجدة. ومن ليس محصرا فى سبيل الله. ومن لايكتم فقره تعففا . فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة. ويدخل فيهم المتعفف وغيره. والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم. بل الله وحده الغنى. وكل ما سواه فقير إليه.

ومراد القوم بالفقر: شئ أخص من هذا كله. وهو تحقيق العبودية. والافتقار إلى الله تعالى فى كل حالة.

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراً، بل هو حقيقة العبودية ولبها .وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وحقيقة «الفقر» وكماله كما قال بعضهم- وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم «الفقر»؟ - فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه. فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: إذا كان له فليس له. وإذا لم يكن له فهو له.

وهذه من أحسن العبارات عن معنى «الفقر» الذى يشير إليه القوم. وهو أن يصير كله لله عز وجل. لايبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقى عليه شئ من أحكام نفسه ففقره مدخول.

ثم فسر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له» أى إذا كان لنفسه فليس لله. وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة «الفقر» أن لا تكون لنفسك. ولا يكون لها منك شئ، بحيث تكون كلك لله. وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر.

وهذا «الفقر» الذى يشيرون إليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك. فقد كان رسل الله وأنبياؤه فى ذروته مع جدتهم، وملكهم، كإبراهيم الخليل ﷺ كان أبا الضيفان. وكانت له الأموال والمواشى. وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام. وكذلك كان نبينا ﷺ، كان كما قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾[الضحى: ٨] فكانوا أغنياء فى فقرهم. فقراء فى غناهم.

فالفقر الحقيقى: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد- في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة- فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتى للعبد. وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا، وإلا فهو حقيقة. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه:

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً   كما الغنى أبدا وصف له ذاتى

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها. كقول بعضهم: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، ورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

و«الفقر» له بداية ونهاية. وظاهر وباطن، فبدايته: الذل. ونهايته: العز. وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى. كما قال رجل لآخر: فقر وذل؟ فقال: لا. بل فقر وعز.

وإذا عرفت معنى «الفقر» علمت أنه عين الغنى بالله. فلا معنى لسؤال من سأل: أى الحالين أكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟

فهذه مسألة غير صحيحة. فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغانى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به. فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

وأما كلامهم فى مسألة «الفقير الصابر، والغنى الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه.

فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لايرجع إلي ذات الفقر والغني. وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان. لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده. كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧] أى ليس كل من وسعت عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقترت: أكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال- يعنى ابن تيمية- ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا فى التقوي استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيي بن معاذ. فقال: لايوزن غداً الفقر ولا الغني، وإنما يوزن الصبر والشكر.

مبدأ الفقر .. التفويض

وأول قدم الفقر: الخروج عن النفس. وتسليمها لمالكها ومولاها. فلا يخاصم لها. ولا يتوكل لها. ولا يحاجج عنها ولا ينتصر لها، بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.

قال بندار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك. فإنها ليست لك. دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

تحطيم الأصنام

ومن لوازم ذلك: قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً. وإسكات اللسان عنها مدحاً والسلامة منها طلباً أو تركاً.

و« الدنيا » عند القوم: ما سوى الله تعالى– من المال والجاه، والصور، والمراتب–

ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان، كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها. فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها. وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها. فلا يطلب معدومها. ولا يبخل بموجودها.

وأما « تعطيلها عن اللسان ».

فهو أن لايمدحها. فإن اشتغاله بمدحها دليل على محبتها ورغبته فيها. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وكما يطالب الفقير بالسلامة من آفات طلبها، فإنه يطالب بسلامة أخرى من آفات تركها، فإن لتركها آفات. ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك. بحيث لايحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة. لا فى طلبها وأخذها ولا فى تركها والرغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة فى أخذها وطلبها. فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟

قلت: من وجوه شتى

أحدها: أنه إذا تركها– وهو بشر لا ملك– تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه. وما هو محتاج إليه. فيبقى فى مجاهدة شديدة مع نفسه. لترك معلومها وحظها من الدنيا. وهذه قلة فقه فى الطريق، بل الفقيه العارف: يردها عنه بلقمة. كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة. ولايقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطها حظها، وطالبها بما عليها من الحق.

هذه طريقة الرسل صلى الله عليهم وسلم. وهى طريقة العارفين من أرباب السلوك. كما قال النبى ﷺ : «**إن لنفسك عليك حقاً. ولربك عليك حقاً. ولزوجك عليك حقاً. ولضيفك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه**».

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة : مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن، وقطاع الطريق على القلوب . كأهل البدع من بنى العلم، وبني الإرادة ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم . ويتقوى على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح ولايشتغل بها .

ومن آفات الترك : تطلعه إلى ما في أيدى الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك .

ومن آفات تركها، وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو . وهذا يقابل الزهد فيها وتركها .

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك . وهذا لايحصل إلا بفقه في الفقر .

أثَمَّ شئ غير الفضل ؟

وأيضاً، فإن من قواعد هذا الفقه في الفقر : الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل . وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال . ويقطع شهود الأحوال . ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

والرجوع إلى السبق هو الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده . وأن العبد - وكل ما فيه من خير - فهو محض جود الله وإحسانه . وليس للعبد من ذاته سوى العدم . وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه . فإذا شهد هذا وأحضره قلبه . وتحقق به : خلصه من رؤية أعماله، فإنه لايراها إلا من الله وبالله . وليست منه هو ولا به .

واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله . ويخلصه منها : شهود السبق ، ومطالعة الفضل .

فإذا طالع سبق فضل الله . علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره، فهو محض جوده . فلا يشهد له حالا مع الله ولا مقاماً، كما لم يشهد له عملا . فقد جعل عدته للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله . فهو لايقدم عليه إلا بالفقر المحض . فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذى يدخل منه عليه .

والفرق بين الحال والمقام : أن «الحال» معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له . ولا اكتساب . ولا تعمد، و«المقام» يتوصل إليه بنوع كسب وطلب .

فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود . وأما الحال : فمن عين الجود .

وسئل أصحاب أبي عثمان الحيرى: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها.

وتلك هى الحنيفية المحضة. فإنه إذا بذل الطاعة لله، وبالله: صانه ذلك عن الشرك، وإذا شهد تقصيره فيها: صانه من الإعجاب، فيكون قائماً بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن اسماعيل النيسابورى من جلة شيوخ القوم وعارفيهم، وكان يقال: فى الدنيا ثلاثة، لا رابع لهم: أبو عثمان النيسابورى بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلا بالشام. وله كلام رفيع عال، وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها. ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصا على نفسه. ففتح أبو عثمان عيينه، وهو فى السياق، فقال: يا بنى خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء فى الباطن.

الفقر أغنى الغنى

ومن افتقر إلى الله تعالى: اغتنى

والغنى نوعان: غنى بالله. وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر.

واستدل الهروى له بقول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]

وفى الآية ثلاثة أقوال.

أحدهما: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلا» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغني.

والثالث: وهو الصحيح- أنه يعم النوعين: نوعى الغنى، فأغنى قلبه به، وأغناه من المال.

ويكمل غنى القلب بغنى آخر، هو: غنى النفس، وآيته: سلامتها من الحظوظ، وبراءتها من المراءاة.

ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس. لكن فى هذا الترتيب نكتة لطيفة. وهى أن النفس من جند القلب ورعيته. وهى من أشد جنده خلافا عليه، وشقاقا له. ومن قبلها تتشوش عليه المملكة. ويدخل عليه الداخل. فإذا حصل له كمال الغني: لم يتم له إلا بغناها أيضاً. فإنها متي كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه. وتشوش عليه غناه. فكان غناها تماماً لغناه

وكمالا له. وغناه أصلاً بغناها. فمنه يصل الغنى إليها. ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه.

إذا عرفت هذا فاعلم أن غناها بشيئين:

الأول: «سلامتها من الحظوظ» وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله.

الثاني: «براءتها من المراءاة» وهي إرادة غير الله بشئ من أعمالها وأقوالها. فمراءاتها دليل علي شدة فقرها. وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضاً.

(٤٢) منزلة الاجتباء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاجتباء»

فإن المؤمن متى بلغ ذروة الإيمان: اجتباه الله واصطفاه وجذبه إليه.

وقد استبد الأنبياء عليهم السلام بهذه المنزلة، وكادوا أن يحتكروها، وشغلوا محلها وفناءها، إلا حيزاً أخلاه الله تعالى ووقفه وادخره، ليهبه ثلة من المؤمنين فى كل جيل يصدقونه الحب، فيحبهم، ويريدونه، فيريدهم.

فمن اجتباء الأنبياء: إن الله سبحانه ألقى إلى رسوله محمد ﷺ كتابه، وخصه بكرامته، وأهله لرسالته ونبوته، من غير أن يكون ذلك منه على رجاء، أو ناله بكسب، أو توسل إليه بعمل، بل هو أمر أريد به، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦].

ومنها إنه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه. وجعله خالصاً له من غير سبب كان من موسى، ولا وسيلة. فإنه خرج ليقتبس النار. فرجع وهو كليم الواحد القهار. وأكرم الخلق عليه، ابتداء منه سبحانه. من غير سابقة استحقاق، ولا تقدم وسيلة. وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد كن لما لست ترجو ... من صلاح أرجى لما أنت راج

إن موسى أتي ليقبس ناراً ... من ضياء رآه والليل داج

فانثني راجعاً، وقد كلمه اللـ ... ـه، وناجاه وهو خير مناج

فأخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين، وخصه بكلامه.

والأنبياء عليهم السلام يتفاوتون في ذلك تفاوت أتباعهم:

فمن ذلك قصة موسي ﷺ، حين ألقي الألواح – وفيها كلام الله – عن رأسه. وكسرها، وجر بلحية أخيه. وهو نبى مثله، ولم يعاتبه الله على ذلك؛ كما عتب على آدم عليه السلام فى أكل لقمة من الشجرة.

وأما غير الأنبياء، فمن أنواع الاجتباء لهم: أن يعصم الله عبده وهو مستشرف للجفاء، اضطراراً بتنغيص الشهوات، وتعويق الملاذ، وسد مسالك العطب عليه إكراهاً.

وذلك أن العبد الصادق إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين الله تعالى بموافقة شهواته، فى

لحظة غفلة: عصمه الله اضطراراً، بأن ينغص عليه الشهوات، فلا تصفو له البتة، بل لاينال منها إلا مشوباً بأنواع التنغيص، الذى ربما أربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذة في جنب التنغيص كالخلسة والغفوة، ليكرهها. وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتى لايركن إليها، ولا يطمئن إليها ويساكنها، فيحول بينه وبين أسبابها.

محمد الكامل ﷺ

وأكمل من اجتباه الله تعالى من الأنبياء عليهم السلام: محمد ﷺ.

فموسى عليه السلام: كان فى مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، وكان من أعظم خلق الله هيبة ووقارا، وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله.

وعيسى ﷺ: كان فى مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان. وكان لايقاتل، ولا يحارب. وليس فى شريعته قتال ألبتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك، فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً، فامش معه ميلين» ونحو هذا.

أما نبينا ﷺ: فكان من مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة فى الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبى الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتى شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضا وبالفضل ندباً إليه واستحباباً. وبالشدة فى موضع الشدة وباللين في موضع اللين. ووضع السيف موضعه ووضع الندى موضعه فيذكر الظلم ويحرمه والعدل ويوجبه والفضل ويندب إليه في بعض آيات. كقوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا فضل: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ فهذا تحريم للظلم ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم**﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ**﴾ عدل و﴿**وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ فضل

أمة محمد الكاملة.. خير الأمم

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع. فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم. ووهب لهم من علمه وحلمه،

وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وكمل لهم من المحاسن ما فرقه فى الأمم قبلهم. كما كمل لنبيهم ﷺ من المحاسن ما فرقه فى الأنبياء قبله. وكمل في كتابه من المحاسن ما فرقها فى الكتب قبله. وكذلك فى شريعته.

فهؤلاء هم المجتبون الأخيار. كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم فى ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٤٣) منزلة الإحسان

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإحسان»

وهي لب الإيمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان.

وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالي: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وبحديث **«أن تعبد الله كأنك تراه»**.

وقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قرأ: **«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»** ثم قال: **«هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»**

وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل. ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

قال شيخ الإسلام الهروى:

وأولى درجاته: «الإحسان فى القصد بتهذيبه علما، وإبرامه عزماً».

أى أن إحسان القصد يكون بشيئين:

أحدهما: تهذيبه علماً، بأن يجعله تابعاً للعلم على مقتضاه مهذباً به، مُنقًى من شوائب الحظوظ. فلا يقصد إلا ما يجوز فى العلم. و«العلم» هو اتباع الأمر والشرع.

والثاني: إبرامه عزماً. و«الإبرام» الإحكام والقوة. أى يقارنه عزم يمضيه، ولا يصحبه فتور وتوان يضعفه ويوهنه.

فقه العمل السرى

ومن درجاته: الإحسان فى الأحوال، وهو أن يستر ما يهبه الله من حفظ وصيانة واجتباء، فيسترها عن الناس ما أمكنه، لئلا يعلموا بها. ولا يظهرها إلا لحجة. أو حاجة، أو مصلحة راجحة. فإن فى إظهارها بدون ذلك آفات عديدة. مع تعريضها للُّصوص والسراق والمغيرين والحاسدين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمق وعجز، وهو من حظوظ النفس والشيطان. وأهل الصدق والعزم لها أستر، وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم.

مهاجرون أبدا

وأعلى الإحسان: الإحسان فى الوقت، وهو أن تجعل هجرتك إلي الحق سرمدا، إذ كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين إليه. فلا ينبغى أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغى أن يصحبها سرمدا. حتى يلحق بالله عز وجل.

فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى ويحمد غِبَّ السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة إلى رسوله ﷺ: بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته. فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر فى ظلم الليل، ومتاهات الطريق.

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد. وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور. والله المستعان.

(٤٤) منزلة العلم

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « العلم »

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه فى الطريق إلى آخر قدم ينتهى إليه: فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها. وهذا إجماع من شيوخ العارفين. ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشرطه.

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لايقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص رحمه الله: من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا يعد فى ديوان الرجال.

وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله: من عمل عملا بلا اتباع سنة، فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابورى رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة، ومع الأهل: بحسن الخلق. ومع الإخوان: بدوام البشر. مالم يكن إثما. ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة، ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال أبو عثمان أيضاً: من أمرَّ السنة على نفسه قولا وفعلا: نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً: نطق بالبدعة. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عمرو بن عثمان المكى: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حرون بين ذلك، جموح

خداعة رواغة. فاحذرها وراعها بسياسة العلم. وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

أخبرنا .. أول علومنا

وأما الكلمات التى تروى عن بعضهم: من التزهيد فى العلم، والاستغناء عنه. كقول من قال: «نحن نأخذ علمنا من الحى الذي لايموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت».

وقول الآخر- وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟- فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق، من يسمع من الخلاق؟

ونحو هذا من الكلمات: فجهل وكلام شيطانى، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله من رواة الحديث لما وصل إلى هذا وأمثاله شئ من الإسلام.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفى، أو قياس فلسفى. أو رأى نفسى، فليس بعد القرآن و «أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهى من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

و«العلم» خير من «الحال»، فنفع الحال لايتعدى صاحبه. ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق من غير صاحبه. وربما ضاقت عنه.

والعلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووارثهم. وهو حياة القلوب . ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذى به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغى والرشاد، والهدي والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويحمد ويمجد. وبه اهتدي إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغنى الذى لا فقر على من ظفر بكنزه والكنف الذى لا ضيعة على من آوى إلي حرزه.

مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضى الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعى رضي الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص على ذلك أبو حنيفة رضى الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدى مالك رضى الله عنه. فوضعت ألواحى وقمت أصلى. فقال: ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أَجَلِّ مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفى ضمن ذلك تعديلهم. فإنه سبحانه وتعالى لايستشهد بمجروح.

ومن ههنا- والله أعلم- يؤخذ الحديث المعروف: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المبطلين**».

وهو حجة الله فى أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته.

ويكفى فى شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران- عليه الصلاة والسلام- فى طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما فى طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

أنواع العلم

والعلم نوعان:

فمنه علم جليّ، يدرك بالعيان، أو باستفاضة صحيحة، أو صحة تجربة قديمة.

أى أن هذا العلم الجلى ثلاثة أنواع:

أحدها: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

والثاني : ما استند إلى السمع . وهو علم الاستفاضة .

والثالث : ما استند إلى العقل . وهو علم التجربة .

فهذه الطرق الثلاثة- وهى السمع، والبصر، والعقل- هى أهم طرق العلم وأبوابه، ولاتنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم، إذ يلحق بها ما يدرك بالباطن، وهى الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة .

ثم من العلم : علم خفى، ينبت فى القلوب الطاهرة، من الأبدان الزاكية، بماء الرياضة الخالصة . ويظهر لا هل الهمة العالية، في الأحايين الخالية، والأسماع الصاخبة .

وهذا العلم خفى على أهل النوع الأول، وهو المسمى بالمعرفة . فهو ينبت فى القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التى تعوق الأرواح عن ديار الأفراح . فإن هذه أكدار، وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح . فلا تنجلى فيها صور الحقائق كما ينبغى . والنفس تنفس فيها دائماً بالرغبة فى الدنيا والرهبة من فوتها . فإذا جليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت . وظهرت فيها الحقائق والمعارف .

ولا تحمل هذه القلوب إلا الأبدان الزاكية التى زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال . فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا : زكت أرض القلب . فقبلت بذر العلوم والمعارف . فإن سقيت- بعد ذلك- بمدد الرياضة الشرعية النبوية المحمدية- وهى التى لاتخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب . ولا تعطل سنة- أنبتت من كل زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة وتعرف . فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطرف والفوائد، والثمار مختلفة الألوان، والأذواق .

وأما « الهمم العالية » فهى التى لا تقف دون الله عز وجل . ولا تُعَرِّج فى سفرها على شئ سواه . وأعلى الهمم : ما تعلق بالعلى الأعلى . وأوسعها : ما تعلق بصلاح العباد . وهى همم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، . وورثتهم .

و« الأسماع الصاخبة » هى التى صحت من تعلقها بالباطل واللغو، وأصاخت لدعوة الحق ومنادى الإيمان .

وإن شئت فقل إن هذا العلم الخفى هو الإلهام والفهم الخاص الذى هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، وبذل الجهد فى تلقى العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه- وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ دون الناس؟ -

فقال: «لا والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه».

وإن شئت فقل فى هذا العلم إنه البصيرة، وهى التى تكون نسبة العلوم فيها إلي القلب كنسبة المرئى إلى البصر، وهذه هى الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهى أعلى درجات العلماء. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨] أى أنا وأتباعى على بصيرة.

وقيل «ومن اتبعنىَ» عطف على المرفوع «بأدعو» أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدل على أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة. فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

أو قل: هى «الحكمة».

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[آل عمران: ٤٨].

و«الحكمة» فى كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضى الله عنهما: «هى علم القرآن: ناسخة ومنسوخة، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: هى القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هى القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعى: هى معانى الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع فى دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهى السنة. كذلك قال الشافعى وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة فى القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه فى شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

و«الحكمة» حكمتان: علمية، وعملية، فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط

الأسباب بمسبباتها، خلقا وأمراً، قدراً وشرعاً، والعملية هى وضع الشئ فى موضعه.

وأساس الحكمة: أن تعطى كل شئ حقه ، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه، فإنه لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها. ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر- كانت «الحكمة» مراعاة هذه الجهات الثلاثة. بأن تعطى كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعديا مخالفاً للحكمة. ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها.

وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً. فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقى الأرض.

وتعدى الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغى، علي الوجه الذي ينبغى، في الوقت الذى ينبغى.

والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل- كالمرأة- له نصف ميراث. والتفاوت فى ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وأكملهم أولو العزم. وأكملهم محمد ﷺ. ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما أتاهم من الحكمة. كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ** ﴾ [النساء: ١١٣] وقال تعالى: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل فى الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها. فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً. وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثاً.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش ، ولا عجول ، والله أعلم.

وإنما تكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله فى وعده. وتعرف عدله في حكمه. وتلحظ بره في منعه.

أى تعرف «الحكمة» في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] فتشهد عدله فى وعيده، وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله فى أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق. فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور. وإن أجراها على أيدى الظلمة. فهو أعدل العادلين، ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك «تعرف بره في منعه».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق. ولا يغيض ما فى يمينه سعة عطائه. فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة فى ذلك. فإنه الجواد الحكيم. وحكمته لا تناقض جوده. فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا فى موضعه ووقته. بقدر ما تقتضيه حكمته. ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا. ولو علم فى الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها، ومحبة له واعترافاً بها، لهداهم إلي الإيمان. ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ أجابهم بقوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله روحه- يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

(٤٥) منزلة الفراسة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الفراسة »

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾[الحجر: ٧٥] قال مجاهد رحمه الله: للمتفرسين: وقال ابن عباس رضى الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: المتفكرين.

ولا تنافى بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر فى آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾[محمد: ٣٠] فالأول : فراسة النظر والعين. والثانى: فراسة الأذن والسمع.

و« اللحن » ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان. أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: « **ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض** ».

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألـــذه وهـــو مما ... يشتهى السامعون يوزنا وزنا

منطق صائب وتلحن أحيانا ... وخير الحديث ما كان لحنـــا

والثالث: فساد المنطق فى الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفى لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما فى ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما وفى وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع. وفي الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « **اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى:** ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر: ٧٥].

وفراسة المؤمنين صادقة دائماً.

وسببها : نور يقذفه الله فى قلب عبده. يفرق بين الحق والباطل، والصادق، والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفى ما يضاده. يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن « الفريسة » فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء « الفراسة » كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه « الفراسة » على حسب قوة الإيمان . فمن كان أقوى إيماناً فهو أحَدُّ فراسة .

وقال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرماني حاد الفراسة لايخطئ ويقول : من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره بإتباع السنة، وتعود أكل الحلال : لم تخطئ فراسته .

وقال أبو جعفر الحداد : الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه، فهو خاطر وحديث نفس .

وقال الهروى : لايصدق منها إلا فراسة تُجنى من غرس الإيمان .

فشبه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد وينمو، ويزكو على السقى، ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه . وأصله ثابت في الأرض . وفروعه في السماء . فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة : كان من بعض ثمره الفراسة .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته ﴿ **أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ [يوسف : ٢١] وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى﴿ **استأجره** ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما، حيث استخلفه، وفى رواية أخرى : وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ [القصص : ٩] .

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة . وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة . فإنه ما قال لشئ « أظنه كذا » إلا كان كما قال . ويكفي في فراسته : موافقته ربه فى المواضع المعروفة، مما كان فى شان أسرى بدر، ونحوها .

ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه . فقال : « لقد أخطأ ظنى، أو أن هذا كاهن؛ أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية » فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر . فقال : « سبحان الله، يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به . فقال له عمر رضي الله عنه : ما كنا عليه فى الجاهلية أعظم من ذلك . ولكن أخبرنى عما سألتك عنه . فقال : صدقت يا أمير المؤمنين . كنت كاهناً في الجاهلية . ثم ذكر القصة » .

وفراسة الصحابة رضى الله عنهم أصدق الفراسة .

وأصل هذا النوع من الفراسة : من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك، ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ . قال الله ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] كان ميتاً بالكفر

والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نوراً يستضئ به فى الناس على قصد السبيل. ويمشى به فى الظلم . والله أعلم.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء : بعينه. وأذنه. وقلبه. فعينه للسيماء والعلامات. وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه ومنطوقه ومفهومه وفحواه وإشارته ولحنه وإيمائه ونحو ذلك. وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه. فيعبر إلى ما وراء ظاهره، كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدلّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفى ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث. فإنه يمر إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب. فيخرجه ناقدهم. كما يخرج الصيرفى الزغل من تحت الظاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب فى أقواله وأفعاله وأحواله.

وللفراسة سببان: أحدهما: جودة ذهن المتفرس ، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة. وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة. وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة: وله الوقائع المشهورة. وكذلك الشافعى رحمه الله. وقيل: إن له فيها تآليف.

(٤٦) منزلة التعظيم

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « التعظيم »

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة. فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالا. وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته. ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. وأقوالهم تدور علي هذا. فقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء علي المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

وأول التعظيم: تعظيم الأمر والنهي، وهو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشدد غال.

فها هنا أمران ينافيان تعظيم الأمر والنهي.

أحدهما: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدي بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر: مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

و« الغلو » نوعان. نوع يخرجه عن كونه مطيعاً. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً، أو نحو ذلك عمداً.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار. كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم أيام النهى. والجور على النفوس فى العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبى ﷺ: **«إن هذا الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشئ من الدلجة»** يعنى استعينوا على طاعة الله بالأعمال فى هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: **«ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد»** رواهما البخارى.

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: **«هلك المتنطعون- قالها ثلاثا- وهم المتعمقون المتشددون»**.

وفى صحيح البخارى عنه ﷺ: **«عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لايمل الله حتى تملوا»**.

وفى السنن عنه ﷺ أنه قال: **«إن هذا الدين متين. فأوغل فيه برفق. ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله»** أو كمال قال.

واعظم التعظيم: تعظيم الحق سبحانه، وهو أن لايجعل دونه سبباً، ولا يرى عليه حقاً.

فهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والأولى تتضمن تعظيم أمره.

وإنما تكون بامرين:

أحدهما: أن لا تجعل للوصلة إليه سبباً غيره. بل هو الذى يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى الله إلا الله، ولايقرب إليه سواه. ولا يدنى إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به. فما دل على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه. ولا أدنى إليه غيره. فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سبباً فالسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله.

والثاني: أن لا ترى لأحد من الخلق- لا لك ولا لغيرك- حقاً على الله، بل الحق لله على خلقه.

وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من إثابته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإجابته لسائلهم: فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه. فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره، وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه.

(٤٧) منزلة السكينة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السكينة».

هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» التى معناها الطمأنينة في خمسة مواضع.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]

الخامس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وقد جربت أنا أيضاً قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه فرأيت لها تأثيراً عظيماً فى سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هى الطمأنينة والوقار، والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة. إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رأسيهما. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حنين، حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوى أحد منهم على أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التى لا تحملها النفوس. وحسبك بضعف عمر رضى الله عنه عن حملها- وهو عمر- حتى ثبته الله بالصديق رضى الله عنه.

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى واري التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصــدقنا ولا صـلينا

فأنزلـن سكينــة علينــا وثبت الأقـــدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينـــا وإن أرادوا فتنـــة أبينـا

وفى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: «إنى باعث نبياً أمياً، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل. وأهَبُ له كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه. والبر شعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقولته. والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدي إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

لسانه الحكمة تنطقه السكينة

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح. وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه».

وكثيراً ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، لا رواية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له. وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة. وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

السكينة.. نور وقوة وروح

وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروى رحمه الله:

«السكينة: هى التى نزلت على قلب النبى ﷺ، وقلوب المؤمنين. وهي شئ يجمع قوة وروحاً، يسكن إليه الخائف. ويتسلي به الحزين والضجر. ويسكن إليه العصيُّ والجرئ والأبى».

هذا من عيون كلامه وغرره الذى تثنى عليه الخناصر. وتعقد عليه القلوب.

فذكر: أن هذا الشئ الذى أنزله الله فى قلب رسوله ﷺ . وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معان: النور، والقوة والروح.

وذكر له ثلاثة ثمرات: سكون الخائف إليه، وتسلى الحزين والضجر به، واستكانة صاحب المصعية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذى فيها: حياة القلب، وبالنور الذى فيها: استنارته، وضياؤه وإشراقه. وبالقوة ثباته وعزمه ونشاطه.

فالنور: يكشف له عن دلائل الإيمان، وحقائق اليقين. ويميز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشد، والشك واليقين.

والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته، وحضوره وانتباهه من سنة الغفلة. وتأهبه للقائه.

والقوة: توجب له الصدق، وصحة المعرفة. وقهر داعى الغى والعنت وضبط النفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب ، ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه.

والإيمان: يثمر له النور، والحياة والقوة. وهذه الثلاثة تثمره أيضاً. ،وتوجب زيادته. فهو محفوف بها قبلها وبعدها.

فبالنور: يكشف دلائل الإيمان. وبالحياة: ينتبه من سنة الغفلة. ويصير يقظاناً. وبالقوة: يقهر الهوى والنفس. والشيطان. كما قيل:

وتلك مواهب الرحمن ليست	تحصّل باجتهاد، أو بكسب
ولكن لا غنى عن بذل جهد	بإخلاص وجد، لا بلعب
وفضل الله مبذول. ولكن	بحكمته، وعن ذا النص ينبى
فما من حكمة الرحمن وضع الـ	ـكواكب بين أحجار وترب
فشكراً للذى أعطاك منه	فلو قبل المحَلُّ لزاد ربى

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة- وهى النور،والحياة، والروح- سكن إليها العصي.

وهو الذى سكونه إلى المعصية والمخالفة. لعدم سكينة الإيمان فى قلبه صار سكونه إليها عوض سكونه إلى الشهوات، والمخالفات. فإنه قد وجد مطلوبة. وهو اللذة التى كان يطلبها من المعصية. ولم يكن له ما يعيضه عنها. فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها، ونعيمها عن لذة المعصية . فاستراحت بها نفسه. وهاج إليها قلبه. ووجد فيها من الروح والراحة واللذة مالا نسبة

بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانيه قلبية. بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها. وحبس عنها وخلصته. فإذا تألقت بروقها قال:

تألق البرق نجـــــديـاً. فقلت له   يا أيها البرق، إني عنـــك مشغول

وإذا طرقته طوفيها خيالية فى ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:

طرقتك صائدة القلوب. وليس ذا   وقت الزيـــارة. فارجعي بســلام

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، تمثل بقول الآخر:

قالت- وقد عزمت على ترحالها-   ماذا تريد؟ فقلت: أن لا ترجـعى

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سَكَّنت خوفه. وهو قوله: «يسكن إليها الخائف» وسلت حزنه. فإنها لا حزن معها. فهى سلوة المحزون. ومذهبة الهموم والغموم. وكذلك تذهب عنه وخم ضجره. وتبعث نشوة العزم، وتحول بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر، وتورثه وقاراً وخشوعاً.

ومن معاني السكينة أيضاً: السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق ومراقبة الحق.

وهذا المعنى هو الذى يحوم عليه السالكون، والعلم الذى يشمرون إليه للمعاملة بينهم وبين الله وبينهم وبين خلقه، وتحصل بثلاثة أشياء.

أحدها: محاسبة النفس، حتى تعرف مالها وما عليها، ولا يدعها تسترسل فى الحقوق استرسالاً فيضيعها ويهملها، وأيضاً فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رضي الله عنه: إن المؤمن- والله- لا تراه إلا قائماً على نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ مالى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من الكلام.

فبمحاسبتها يطلع علي عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعى فى إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهى معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه. ويغريهم به. ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبى فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض فتطفئ بلطفك

جمرته. وتستكفى شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهى الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهى المقصود لذاته. وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه، فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

(٤٨) منزلة الطمأنينة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الطمأنينة»

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشئ. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف «الصدق طمانينة، والكذب ريبة» أى الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويجد عنده سكوناً إليه والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله ﷺ: «**البر ما اطمأن إليه القلب**» أى سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفى «ذكر الله» ها هنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والقول الثاني: وهو الأصح: أن ذكر الله ههنا القرآن. وهو ذكره الذى أنزله على رسوله. به طمانينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لايطمئن إلا بالإيمان واليقين. ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه. واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلابه.

ومستحيل أن ينتفع بالقرآن وهداه: من لم يفقهه ويتدبره حق تدبره، ويتلوه حق تلاوته. ولايمكن أن يصح ذلك ويتحقق إلا لمن كان قلبه بصيراً حاضراً مع ربه بآثار أسمائه وصفاته فى سنته الكونية في نفسه وفيما حوله في كل حركة وسكنة وشأن.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والصحيح: أن ذكره الذى أنزله علي رسوله- وهو كتابه- من أعرض عنه: قيض له شيطانا يضله ويصده عن السبيل. وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

والصحيح: أنه ذكره الذى أنزله على رسوله- وهو كتابه- ولهذا يقول المعرض عنه﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

وجعل الله سبحانه الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة. فطوبى لهم وحسن مآب.

وفى قوله تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة. فهناك ترجع إليه. وتدخل في عباده وتدخل في جنته. وكان من دعاء بعض السلف «**اللهم هب لى نفساً مطمئنة إليك**».

وختامها . .أمن

وحاصل الطمأنينة: سكون يقوّيه أمن صحيح، شبيه بالعيان.

فالطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهى سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذي لايكن أمن غرور. فإن القلب قد يسكن إلي أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له. و«الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون: شبهه بالعيان بحيث لا يبقى معه شئ من مجوزات الظنون والأوهام. بل كان صاحبه يعاين ما يطمئن به. فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه.

وفرق ما بينها وبين السكينة: إن «السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة فى القلب فتخمدها فى بعض الأحيان. فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون. وذلك فى بعض الأوقات. فليس حكماً دائماًمستمراً. وهذا يكون لأهل «الطمأنينة» دائماً. ويصحبه الأمن والرحة بوجود الأنس. فإن الاستراحة فى «السكينة» قد تكون من الخوف والهيبة فقط. والاستراحة في منزل «الطمأنينة» تكون مع زيادة أنس. وذلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه.

كذلك فإن «الطمأنينة» أعم. فإنها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظفر بالمعلوم. ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به، ومعرفته والهداية به فى ظلم الآراء والمذاهب. واكتفت به منها، وحكّمته عليها وعزلتها. وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله. فبه خاصمت، وإليه حاكمت وبه صالت، وبه دفعت الشبه.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه،

كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

وأبرد ما تكون الطمأنينة علي عبد أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله- ولاسيما من أقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق إليه- فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه. فلابد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره. فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سكينته. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدرى.

ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمأن إلي حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلي حكمه الكونى: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وإنه ما يشاء كان ومالم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان، فإن المحذور والمخوف: إن لم يقدر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره. فلا جزع حينئذ- لا مما قدر ولا مما لم يقدر.

نعم إن كان له في هذه النازلة حيلة. فلا ينبغى أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغى أن يضجر منها.

كما أنها أبرد ما تكون علي المبتلي، فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض. وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب. وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا. فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذ به. وملاحظته لنفعه تغيبه عن تأمله بمذاقه أو تخففه عنه. والعمل المعول عليه: إنما هو على البصائر. والله أعلم.

(٤٩) منزلة الهمة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الهِمَّة »

و« الهِمَّة » فِعْلَة من الهَمِّ. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهم مبدؤها. والهمة نهايتها.

والعامة تقول: قيمة كل امرئٍ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، فإن قيمة المرء همته ومطلبه.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً صادقاً خالصاً محضاً. فتلك هى الهمة العالية، التى لايقدر معها على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود، ولا يلتفت عنها، إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه. مالم تعقه العوائق وتقطعه العلائق. والله أعلم.

هذه الدنيا .. موحشة

وأول نبضات الهمة: همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفانى، وتحمله على الرغبة فى الباقى، وتصفيه من كدر التواني.

و« الفاني »: الدنيا وما عليها. أى يزهد القلب فيها وفى أهلها. والرغبة فيها « وحشة » لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها، وقلوب الزاهدين فيها.

وأما الراغبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم. إذ فاتها ما خلقت له. فهى في وحشة لفواته.

وأما الزاهدون فيها: فإنهم يرونها موحشة لهم. لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. ولا شئ أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه. ولذلك كان من نازع الناس أموالهم، وطلبها منهم: أوحش شئ إليها وأبغضه.

وأيضاً: فالزاهدون فيها: إنما ينظرون إليها بالبصائر. والراغبون: ينظرون إليها بالأبصار. يستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب. كما قيل:

وإذا أفاق القلب واندمل الهوى رأت القلوب، ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة فى الباقي لذاته. وهو الحق سبحانه. والباقي بإبقائه: هو الدار الآخرة.

ثم تصفية من كدر التوانى، أى تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتوانى، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط. والله أعلم.

وتعلو الهمة حتى تورث أنفة من المبالاة بالعلل. والثقة والأمل.

و« العلل » ها هنا: هى علل الأعمال، من رؤيتها بعين التعظيم، ونحو ذلك.

فصاحب هذه الهمة: يأنف على همته، وقلبه من أن يبالى بالعلل، فإن همته فوق ذلك، فمبالاته بها، وفكرته فيها: نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة: إما لأن العلل لم تحصل له. لأن علو همته حال بينه وبينها. فلا يبالى بما لم يحصل له. وإما لأن همته وسعت مطلوبه. وعلوه يأتى على تلك العلل، ويستأصلها، فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية. فاندرج حكمها فى حكم الهمة العالية. وهذا موضع غريب عزيز جداً.

والهمام يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالى، فهو فى سفر دائم بالقلب إلى الله، ليحصل له ويفوز به. فإنه طالب لربه تعالى طلباً تاما بكل معنى واعتبار في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله. فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة. وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة. وأحدهم لايقنع بمُجَرَّد رسوم الأعمال، ولايقف عند عوض ولا درجة. فإن ذلك نزول من همته. ومطلبه أعلى من ذلك. فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى، الذي لاشئ أعلى منه. والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية.

وأما أنفته من الثقة بالأمل: فإن الثقة توجب الفتور والتوانى. وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك، كيف؟ وهو طائر لا سائر. والله أعلم.

(٥٠) منزلة المحبة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « المحبة »

وهى المنزلة التى فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون. وإلى علمها شمر السابقون. وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون. فهى قوت القلوب، وغذاء الأرواح. وقرة العيون. وهى الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي من فقده فهو فى بحار الظلمات. والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التى من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهى سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق. وقعد من سواهم على الرسوم.

وهى عنوان طريقتهم ودليلها. فإن العنوان يدل على الكتاب، والمحبة تدل على صدق المطالب، وانه من أهل الطريق،

كما أنها « معقد النسبة » أى النسبة التى بين الرب وبين العبد. فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب. وليس في العبد شئ من الربوبية، ولا فى الرب شئ من العبودية. فالعبد عبد من كل وجه. والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه.

ومعقد نسبة العبودية هو المحبة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهى روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التى متى خلت منها فهى كالجسد الذى لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها. وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهى مطايا القوم التى مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ هم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضي الله– يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة– أن المرء مع من أحب. فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل. وهم فى سيرهم واقفون.

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويدا؟ وتجي في الأول

أجابوا منادى الشوق إذ نادى بهم: حيَّ على الفلاح. وبذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلي محبوبهم. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيلا، إن كنت ذا همة. فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا «لبيك» ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم، فإن ... نظرت إلي الأطلال عدن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زاداً إليهم. وسر علي ... طريق الهدي والفقر تصبح واصلا
وخذ قبساً من نورهم. ثم سر به ... فنورهم يهديك. ليس المشاعلا
وخذ: يمنة عنها على المنهج الذى ... عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل: ساعدى، يا نفس بالصبر ساعة ... فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا
فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى ... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أو نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟

بدم المحب يباع وصلهم ... فمن الذى يبتاع بالثمن؟

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون. ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد. فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. فتأخر البطالون. وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت فى يد ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلى حرقة الشجى. فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾[آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾[المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا إلى بيعة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾[التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشترى، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة وأن لها شأناً. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار. وقالوا «والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معاً ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

إذا غرست شجرة المحبة فى القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت فى قرار القلب. وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لايزال سعى المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شئ. ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر: ١٠]

من ذاق طعم المحبة.. عرفها

لاتحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».

وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

الثاني: العلو والظهور. ومنه حبب الماء وحبابه. وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. وحبب الكاس منه.

الثالث: اللزوم والثبات. ومنه: حب البعير وأحب، إذا برك ولم يقم.

قال الشاعر:

حلتَ عليه بالفلاة ضربا   ضرب بعير السوء إذ أحبا

الرابع: اللب ومنه: حبة القلب، للبه وداخله. ومنه: الحبة لواحدة الحبوب. إذ هى أصل الشئ ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذى يحفظ فيه ويمسكه وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة. فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبوب. ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وهمومه على محبوبه.

آثار المحبة وشواهدها

قيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة، والصحيحة والمعلولة.

وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها.

وقيل: موافقة الحبيب، فى المشهد والمغيب.

وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها. وهو أكمل من الحدين قبله. فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرداة. فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة.

وقيل: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبد الله. وهو أيضا حكم المحبة وموجبها.

وقيل: أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقي لك منك شئ. وهو لأبى عبد الله القرشى. وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك. فتأخذه منه له.

محبة .. عراقية

ومن أجمع ما قيل فيها: ما ذكره أبو بكر الكتانى، قال: جرت مسألة فى المحبة بمكة أعزها الله تعالي- أيام الموسم- فتكلم الشيوخ فيها. وكان الجنيد أصغرهم سنا. فقالوا هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه. ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء

حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله.

فبكي الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جزاك الله يا تاج العارفين.

كيف تتعلم المحبة؟

فى الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهى عشرة.

أحدها قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلي درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلي محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه فى رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها- انكسار القلب بكليته بين يدى الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهى، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقى أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا علي الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده. والذى أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر ولا نسبة لسائر المحاب إليها وهى حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة

الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

وجمع طرق الأدلة– عقلاً ونقلا وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً– تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مائة طريق فى كتابنا «روضة المحبين» وذكرنا فيه فوائد المحبة، وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التى وجدوا لأجلها. فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولا جلها. وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض. وهى الحق الذى تضمنه الأمر والنهي. وهى سر التاليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لارب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤلهون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أندادا.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئا، كما يحب الله تعالي: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند فى الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم. ثم قال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي تقدير الآية قولان.

أحدهما «**والذين آمنوا أشد حباً لله**» من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثانى: «**والذين آمنوا أشد حباً لله**» من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان علي القولين في قوله تعالى: «**يحبونهم كحب الله**» فإن فيها قولين.

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثانى: أن المعني يحبون الله، كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من

محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهى محضرة معهم فى العذاب: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨ ﴾ [الشعراء: ٨، ٩] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية. وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم. وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أى يعدلون به غيره فى العبادة، التى هى المحبة والتعظيم.

وفى الآية معنى آخر- والله أعلم- هو أنهم يحبون أندادهم حباً من جنس محبة المؤمنين لله، وهى محبة ممتزجة بذل وتعظيم، وتقديس يحملهم على عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم من الدين الخرافى.

ويصح أن يقال: بل سووهم به فى خصائص الربوبية. وهى التشريع. كما قال الله عنهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] وفى قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] وفي حديث عدى بن حاتم عن رسول الله ﷺ شرح ذلك، والمسألة مجرد خلاف فى الاصطلاح، في معانى «الرب» و«الإله».

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وهى تسمي آية المحبة. قال أبو سليمان الدارانى: لما ادعت القلوب محبة الله: أنزل الله لها محنة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾.

وقال: «**يحببكم الله**» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة. فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فقد ذكر لهم أربع علامات.

الأولى والثاني: إنهم: أذلة، أعزة. قيل: معناه أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين عليهم.

فلما ضمن « أذلة » هذا المعنى عداه بأداة « على » قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ - إلى قوله- مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاث: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا فى قرب من تحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، إذ فيها حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ٢٠، ٢١]. فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه فى الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبى ﷺ: أنه كان يدعو **«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد فى الفقر والغني. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلي وجهك وأسألك الشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة، ولافتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين»**.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه.

وفى الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لايحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر- بعد إذ أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى في النار»**.

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدى بشئ أحبّ إلىّ من أداء ما افترضته عليه. ولايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتي أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه»** وفى الصحيحين عنه أيضاً عن النبى ﷺ: **«إذا أحب الله العبد دعا جبريل. فقال: إنى أحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادى فى السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول فى الأرض»**. وذكر في البغض عكس ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ: «قل هو الله أحد» لأصحابه فى كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبى ﷺ: **«أخبروه أن الله يحبه»**.

وفى جامع الترمذى من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«كان من دعاء داود ﷺ: اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك. اللهم اجعل حبك أحبّ إليّ من نفسى وأهلى. ومن الماء البارد»** وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: **أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه: «اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك. اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب»**.

والقرآن والسنة مملوءان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم. كقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤] ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله فى ضد ذلك: ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ **اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان: ١٨] ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** ﴾ [النساء: ٣٦].

وكم فى السنة **«أحب الأعمال إلي الله كذا وكذا»**، **«وإن الله يحب كذا وكذا»** كقوله: «أحب

الأعمال إلي الله : الصلاة على أول وقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل الله»و «أحب الأعمال إلي الله : الإيمان بالله ، ثم الجهاد في سبيل الله. ثم حج مبرور» و«أحب العمل إلي الله : ما داوم عليه صاحبه» وقوله : «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه».

وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشد فرح يعلمه العباد. وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هى حقيقة الإخلاص، بل هى نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن « الإله » هو الذى يألهه العباد حباً وذلا، وخوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعة له. بمعنى « مألوه » وهو الذى تألهه القلوب، . أى تحبه وتذل له.

والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكل ما سواه وكل من لم يحكم عقله بهذا: فلا تعبأ بعقله. فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار، والنظر تدعو كلها إلى محبته سبحانه. بل إلي توحيده في المحبة. وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول. كما قيل:

هب الرسل لم تأت من عنده ولا أخبرت عن جمال الحبيب

أليس من الواجب المستحق محبته في اللقا والمغيب؟

فمن لم يكن عقله آمراً بذا. ماله في الحجى من نصيب

وإن العقول لتدعو إلى محبة فاطرها من قريب

أليست على ذاك مجبولة ومفطورة لا بكسب غريب

أليس الجمال حبيب القلوب لذات الجمال، وذات القلوب؟

فيا منكراً ذاك والله أنت عين الطريد وعين الحريب

ويا من يوحد محبوبه ويرضيه في مشهد، أو مغيب

حظيت وخابوا فلا تبتئس بكيد العدو وهجر الرقيب

وأصل « التأله » التعبد .و« التعبد » آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلله لمحبوبه.

فـ « المحبة » حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر فى الحقيقة إلا صبر المجبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك « الزهد » فى الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون فى محبة ما سوي محبوبهم لمحبته.

وكذلك « الحياء » فى الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم وأما مالا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام « الفقر » فإنه في الحقيقة فقر الأواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلي من يحبه. لاسيما إذا وحده في الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك « الغنى » هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك « الشوق » إلى الله تعالى ولقائه. فإنه لب المحبة وسرها. كما سيأتى.

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه أقسى القلوب. وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام. فإن « الخلة » كمال المحبة. وهو يتأول « الخليل » بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم – على قوله– لله من خليل من بر وفاجر، بل مؤمن وكافر إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شئ إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان. ولهذا ضحى خالد بن عبد الله القسرى بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم، وقال في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته « أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم. فإنى مضح بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليما. تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا » ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

مراتب المحبة

أولها: « العلاقة » وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: « الإرادة » وهى ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: « الصبابة » وهى انصباب القلب إليه. بحيث لايملكه صاحبه. كانصباب الماء في الحدور. فاسم الصفة منها « صب » والفعل صبا إليه يصبو صباً، وصبابة، فعاقبوا بين المضاعف

والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. ويقال: صباً وصبوة، وصبابة. فالصبا: أصل الميل، والصبوة: فوقه، والصبابة: الميل اللازم، وإنصباب القلب بكليته.

الرابعة: «الغرام وهو الحب اللازم للقلب، الذى لايفارقه. بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه. ومنه سمى عذاب النار غراماً للزومه لأهله. وعدم مفارقته لهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها، و«الودود» من أسماء الرب تعالى: وفيه قولان.

أحدهما: أنه المودود، قال البخارى رحمه الله فى صحيحه «الودود الحبيب».

والثاني: أنه الواد لعباده. أى المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده، فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» فى معني يكون سر الاقتران. أى اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

السادسة: «الشغف» يقال: شغف بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أى وصل حبه إلى شغاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الحب المستولى على القلب، بحيث يحجبه عن غيره. قال الكلبى: حجب حبه قلبها حتي لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتي دخل حبه شِغَاف قلبها، أى داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السدى: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف «شعفها» بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شعف الجبال، لرؤوسها.

السابعة: «العشق» وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه.

وفى اشتقاقه قولان أحدهما: أنه من العشقة- محركة- وهى نبت أصفر يلتوى على الشجر، فشبه به العاشق.

والثاني: أنه من الإفراط وعلى القولين: فلا يوصف به الرب تبارك وتعالي، ولا العبد فى محبة ربه.

الثامنة: « التتُّيم » وهو التعبد، والتذلل، يقال: تيمة الحب أى ذَلَّه وعبده. وتيمُ الله: عبد الله. وبينه وبين « اليتم » – الذى هو الانفراد–: تناسب في المعنى. فإن « المتيم » المنفرد بحبه وشجوه. كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل. هذا كسره يتم. وهذا كسره تتيم.

التاسعة: « التعبد » وهو فوق التتُّيم. فإن العبد هو الذى قد ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شئ من نفسه ألبته. بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصفه الله بها فى أشرف مقاماته. مقام الإسراء، كقوله: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾[الإسراء: ١] ومقام الدعوة. كقوله: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** ﴾[الجن: ١٩] ومقام التحدى كقوله: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة:٢٣] وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة– بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام– « اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية– قد س الله روحه– يقول: فحصلت له تلك المرتبة. عبوديته لله تعالي، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب: « طريق معبد » أى قد ذللته الأقدام وسهلته.

العاشرة: « مرتبة الخلة » التى انفرد بها الخليلان– إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم– كما صح عنه أنه قال: ﴿ **إن الله اتخذنى خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا** ﴾.

و« الخلة » هى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

وهذا هو السر الذي لأجله– والله أعلم– أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلذة كبده. لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه. و« الخلة » منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر. فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة. فحال بينه وبينه. وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿ **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ**

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٥]، نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقر عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وابقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات : ١٠٦] وهو إختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته. فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم. فما كل أحد يجيب داعيها. ولا كل عين قريرة بها.

فما كل عين بالحبيب قريرة ولا كل من نودى يجيب المناديا
ومن يجب داعى هداك فخله يجب كل من أضحى إلى الغى داعيا
وقل للعيون الرمد : إياك أن تري سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليا
وسامح نفوساً لم يهبها لحبهم ودعها وما اختارت. ولا تك جافيا
وقل للذى قد غاب : يكفى عقوبة مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
ألم تر آثار القطيعة قد بدت على حاله. فارحمه إن كنت رائيا
فكن أبداً حيث استقلت ركائب الـ محبة في ظهر العزائم ساريا
وأدلج. ولا تخش الظلام. فإنه سيكفيك وجه الحب في الليل هاديا

ومحبة.. هروية

ولذلك كانت لشيخ الإسلام أبى إسماعيل الهروى رحمه الله طريقة أخرى فى تعريفها، فقال: «المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه بالمحبوب، فى حالتى بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلي أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانت هى نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب: كانت «الهمة» من مقومات حبه، وجملة صفاته. ولما كان الطلب بالهمة قد يعرى عن الأنس، وكان المحب لايكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه، وطمعه بالوصول إليه. فمن هذين يتولد الأنس: وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس. فصارت المحبة قائمة بين الهمة والأنس.

وبالمحبة تفنى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما يفنى من المحب: خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه. لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً.

ومباديها عند الهروى: « محبة تقطع الوساوس، وتسلى عن المصائب ».

فإن الوساوس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب. والوساوس تقتضي غيبته عنه، حتي توسوس له نفسه بغيره. فبين المحبة والوساوس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة. فعزيمة المحبة: تنفى تردد القلب بين المحبوب وغيره. وذلك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لاستغراق قلبه فى حضوره بين يدى محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لسواك فيه بقية   فيها يُقَسَّم فكره ويوسوس

كذلك فإن المحب يجد فى لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولايجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتي يلتذ المحب بكثير من المصائب التى يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلى بحظوظه وشهواته.

وهى محبته تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة.

أى أنها تنشأ من مطالعة العبد منة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة مكان القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وليس للعبد قط إحسان إلا من الله. ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه، وأصل هذا: نور يقذفه الله فى قلب العبد. فإذا دار ذلك النور فى قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته. فرأى فيه نفسه، وما أهلت له من الكمالات والمحاسن. فعلت به همته. وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه. لأن النور والظلمة لايجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه. فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لأول منزل

وهذا النور كالشمس فى قلوب المقربين السابقين، وكالبدر فى قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم فى قلوب عامة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسهى.

ورسوخ هذه المحبة وثباتها فى القلب إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ فى أعماله، وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها. وبحسب نقصانه يكون

نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً. ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبرا، وأطعته أمرا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً. وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته. وإن لم يكن ذلك فلا تتعن. وارجع من حيث شئت فالتمس نورا. فلست على شئ.

وتأمل قوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] أى الشأن فى أن الله يحبكم. لا فى أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ.

وتتصاعد المحبة حتى تبعث على إيثار الحق على غيره. وتلهج اللسان بذكره. فهى- لكمالها وقوتها: تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره. ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجاً بذكره، فإن من أحب شيئاً: أكثر من ذكره، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وإنما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات، بإثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً ونفى التمثيل والتكييف عن معانيها رابعاً. فلا يصح له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة. وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادت محبته للموصف بها.

وتزداد تصاعداً بالنظر إلى الآيات نظر الفكر والاعتبار إلي آياته المشهودة وفي آياته المسموعة وكل منهما داع قوى إلى محبته سبحانه. لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه وعفوه، وحلمه. وكذلك الارتياض بالمقامات. فإن من كانت له رياضة وملكة في مقامات الإسلام والإيمان: كانت محبته أقوى. لأن محبة الله له أتم. وإذا أحب الله عبداً أنشأ فى قلبه محبته.

وهذا المقدار من المعاني هو ما يسمح به التعبير، وإلا فإن أوصاف المحبة لا تتناهى، إذ لها فى كل مقام نسبة وتعلقاً به، وهى روح كل مقام، والحاملة له، وأقدام السالكين إنما تتحرك بها، فلها تعلق بكل قدم وحال ومقام، فلا تتناهى نعوتها ألبتة.

الشوق ثمرة المحبة

ومن آثار المحبة: الشوق

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم أى أنا أعلم أن من كان يرجو لقائى فهو مشتاق إليّ. فقد أجلت له أجلا يكون عن قريب، فإنه آت لا محالة. وكل آت قريب.

وفيه لطيفة أخرى. وهى تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلل بالرجاء لقُطِّعت نفس المحب صبابــة وتشـوقا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه مما يقاسى حســـرة وتحـــرقا
حتى إذا روح الرجاء أصابه سكن الحـريق إذا تعـلل باللقا

وقد كان النبى ﷺ يقول فى دعائه: «**أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**».

و« الشوق » أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها، فإنه سفر القلب إلى المحبوب فى كل حال.

وقيل: هو اهتياج القلوب، إلى لقاء المحبوب.

و« المحبة » أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف. قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

الشوق إلى الجنة..حق

وأول معانيه عند الهروى: « شوق العابد إلي الجنة، ليأمن الخائف، ويفرح الحزين. ويظفر الآمل».

أى أن: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل. فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه، لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة، إن لم يقارنه أمل. فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطاً.

الثاني: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه. فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين. وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن: قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر. مات أمله. والله أعلم.

ركضاً إلى الله

ومنه: الشوق إلي الله عز وجل، وتعلق القلب بصفاته المقدسة

وهذا الشوق لا ينافى الشوق إلي الجنة، فإن أطيب ما فى الجنة: قربه تعالى، ورؤيته، وسماع كلامه، ورضاه.

نعم. الشوق إلي مجرد الأكل والشرب والحور العين ناقص بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى وإلى صفاته المختصة بالمنن والإحسان، كالبر والمنان، والمحسن والجواد، والمعطى، والغفور، والوهاب ، واللطيف، ونحوها.

(٥١) منزلة الغيرة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الغيرة »

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأعراف : ٣٣] وفى الصحيح عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أحد أغير من الله ، ومن غيرته : حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وما أحد أحبّ إليه المدح من الله . ومن أجل ذلك : أثنى على نفسه . وما أحد أحبّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك : أرسل الرسل مبشرين ومنذرين** » .

وفى الصحيح أيضاً ، من حديث أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ . قال : « **إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله : أن يأتي العبد ما حرم عليه** » .

وفى الصحيح أيضاً : أن النبى ﷺ قال : « **أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى** » .

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] .

قال السرى لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة . ولا أحد أغير من الله . إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه ، ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته . فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا له .

و« الغيرة » نوعان : غيرة من الشئ . وغيرة على الشئ .

والغيرة من الشئ : هى كراهة مزاحمته ومشاركته لك فى محبوبك .

والغيرة على الشئ : هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به .

و« الغيرة » أيضاً نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية . وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب . وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة .

ثم « الغيرة » أيضاً نوعان : غيرة الحق تعالى على عبده . وغيرة العبد لربه لا عليه . فأما غيرة

الرب على عبده: فهى أن لايجعله للخلق عبداً. بل يتخذه لنفسه عبداً. فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين. بل يفرده لنفسه. ويضن به على غيره. وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لربه، نوعان أيضا: غيرة من نفسه. وغيرة من غيره. فالتى من نفسه: أن لايجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه؛ والتى من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون. ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

والإسلام كله حث على تأجيج هذه الغيرة وإنكار المنكر، وبهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

ومن تأمل أحوال مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتي لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبى ﷺ: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل. وبالغ في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال: «**إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**».

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار. ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه. ويحل لعنة الله. كما لعن الله بنى إسرائيل على تركه.

غيرة الاستدراك

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه. ويستدرك فواته، ويتدارك قواه».

و«العابد» هو العامل- بمقتضى العلم النافع- للعمل الصالح. فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها. فيقضي ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض. ويجبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يسترد بعينه، كما إذا فاته الحج فى عام تمكن منه. فأضاعه فى ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو بتوبة وندم.

وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها فى الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار

عليها: أن تذهب فى غير طاعة الله. ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتور عنه، بأن يكسوه قوة ونشاطا، غيرة له وعليه.

فهذه غيرة العباد على الأعمال. والله أعلم.

فراغ القلب.. يقتل الفراغ

ومنها: «الغيرة على وقت فات، فإن الوقت أبي الجانب، بطئ الرجوع» فالوقت أعز شئ على العابد، يغار عليه أن ينقضى بدون ذلك. فإذا فاته الوقت لايمكنه استدراكه ألبتة. لأن الوقت الثانى قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما فى المسند مرفوعا: «**من أفطر يوماً من رمضان، متعمداً من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه**».

فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه. فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته. واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع. وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع. وطلب تناول الفائت. وكيف يرد الأمس فى اليوم الجديد؟ ﴿**وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾[سبأ: ٥٢] ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن مااقتناه ليس مما ينبغى للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

ويقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صعّدوه إلى نحو محبوبهم، صاعداً إليه، متلبساً بمحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه دفعوا معه نفساً آخر. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك، لالتباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته أوجبت له ذلك لا محالة.

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال. تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره، وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك. فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾[الحاقة: ٢٤] ويقال للأشقياء ﴿**ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾[غافر: ٧٥].

(٥٢) منزلة الوجد

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الوجد »

ثبت فى الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود فى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى فى النار»** .

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالي في أهل الكهف : ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** ﴾ [الكهف : ١٤] وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد . فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق. وذاقوا حلاوته . وباشر قلوبهم . فقاموا من بين قومهم، وقالوا : **«ربنا رب السماوات والأرض - الآية»**

والربط على قلوبهم : يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش . وفروا بدينهم إلي الكهف .

والربط على القلب : عكس الخذلان . فالخذلان : حلة من رباط التوفيق . فيغفل عن ذكر ربه . ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا .

والربط على القلب : شده برباط التوفيق . فيتصل بذكر ربه . ويتبع مرضاته . ويجتمع عليه شمله . فلهذا استشهد عليه بهذه الآية فى مقام « الوجد » .

مراتب الوجد

ومراتبه أربعة . أضعفها « التواجد » وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء .

واختلفوا فيه : هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين .

فطائفة قالت : لايسلم لصاحبه . وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق الصادقين . وبناء هذا الأمر على الصدق المحض .

وطائفة قالت : يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها . واحتجوا بقول عمر رضى الله عنه - وقد رأى رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان فى شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم في الفداء - « أخبرانى ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت » .

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السير والسلوك لابد منه إذ لايطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لايذم.

المرتبة الثانية: المواجيد، وهى نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة: «الوجد» وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبغض فيه، كما جعله النبى ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلي العبد مما سواهما. وثمرة الحب فيه، وكراهة عوده في الكفر كما يكره أن يقذف فى النار. فهذا «الوجد» ثمرة هذه الأعمال القلبية، التى هى الحب في الله والبغض فى الله.

المرتبة الرابعة: «الوجود» وهى أعلى ذروة مقام الإحسان. فمن مقام الإحسان يرقى إليه. فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه- وتمكن في ذلك- صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه، وتبدل بها أحكاما أخر، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد ولادا جديدا.

التدبر يقود إلى الوجد

ويبزغ كوجد عارض متجدد، يستفيق له شاهد السمع، أو شاهد البصر، أو شاهد الفكر.

وذلك يكون بانتباه السمع من سنته، إذا كان المنبه له خطاباً من خارج أو من نفسه، وبما يراه ويعاينه من آيات الله، فينتقل منها إلى ما نصبت آية له وعليه. ويختلط ذلك بما يفتح له من المعاني التى أوقعه عليها فكره وتأمله.

وهذه الشواهد الثلاثة التى دعا الله سبحانه عباده إلى تبينها والاستشهاد بها. وقبول الحق الذى تشهد به. وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان، قال الله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤] وقال: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [يونس: ١٠١] وقال: ﴿ **أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الروم: ٨] وقال: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٤] والقرآن مملوء من هذا.

فإذا استفاق شاهد السمع والبصر والفكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان: خرج من جملة النيام الغافلين.

وهذا الوجد العارض قد يبقى واجده أثراً من أحكامه بعد مفارقته. وقد لا يبقى. والظاهر: أنه لابد أن يبقى أثراً، لكن قد يخفى، وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

آفاق الروح أعلى من أفق الفكر

وهناك وجد آخر، مشرقه أعلى من الأول، محل اليقظة فيه هو الروح، بينما محلها فى الأول: السمع والبصر والفكر. والروح هى الحاملة للسمع والبصر والفكر. وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضاً فلعلو وجد الروح سبب آخر. وهو علو متعلقه، فإن متعلق وجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر. ومتعلق وجد الروح: تعلقها بالمحبوب لذاته.

وقد جعل الله فى قلب كل مؤمن واعظاً له يأمره وينهاه، ويناديه ويحذره، ويبشره وينذره وهو الداعى الذي يدعو فوق الصراط. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. كما في المسند والترمذى من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**ضرب الله مثلا: صراطاً مستقيماً. وعلى جنبتى الصراط سوران. وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام، والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن**» فما ثم خطاب قط إلا من جهة من هاتين: إما خطاب القرآن، وإما خطاب هذا الواعظ.

كمال الحرية فى وجد التجريد

ويزداد وميض شمس الوجد لمعاناً حتي يمحص العابد من درن الحظ، ويسلبه من رق الماء والطين، فيخلص عبوديته، والتى هى حقيقته، من وسخ حظوظ نفسه وإرادتها، المزاحمة لمراد ربه منه. فإن تحقيق العبودية- التى هى معنى العبد- لايكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ. فمتى فقدت حظوظها تمحصت عبوديتها. وكلما مات منها حظ حى منها عبودية ومعنى. وكلما حى فيها حظ ماتت عبودية، حتى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلب حى، وروح حية بموت نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه. وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض، وبين بين، لايحصيها إلا الله عز وجل.

ثم يسلبه من رق الماء والطين، أى يعتقه ويحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

ياخادم الجسم، كم تشقي بخدمته؟ فانت بالروح لا بالجسم إنسان

والناس فى هذا المقام ثلاثة: عبد محض. وحر محض، وبين بين.

فالعبد المحض: عبد الماء والطين. الذى قد استعبدته نفسه وشهوته، . وملكته وقهرته. فانقاد لها.

والحر المحض: هو الذى قهرشهوته ونفسه وملكها. فانقادت معه، وذلت له ودخلت تحت رقه وحكمه.

والثالث: من قد عقد له سبب الحرية. وهو يسعى فى كمالها. فهو حر من وجه، وعبد من وجه، طالما بقى عليه حظ من حظوظ النفس.

فالحر من تخلص من رق الماء والطين. وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية. فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته، ويظل أبداً في ارتقاء، كلما نظر إلي مواقع لطف ربه به- حيث أهله لما يؤهل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة والإعراض عنه- أورثه ذلك النظر تعجباً يوقعه فى مزيد وجد. قال بعض العارفين في الأثر المروى: «إذا رأيتم أهل البلاء فسلوا الله العافية» تدرون من أهل البلاء؟ هم أهل الغفلة عن الله.

وتقوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسة قدر نفسه. فاستصغرها أن تكون أهلا لما أهلت له. وكذلك شهود انحطاط رتبته، وتفاهة قيمته، وخستها وقلتها.

وحاصل ذلك كله: احتقاره لنفسه واستعظامه للطف ربه به، وتأهيله له، فيتولد من بين هذين الشهودين: محبة وحمد وشكر، وعزم وإخلاص، ونصيحة فى العبودية، وسرور وفرح بربه، وأنس به.

(٥٣) منزلة البرق

ومن أنوار «إياك نعبد وإياك نستعين» نور «البرق»

الذى يبدو للعبد عند دخوله فى طريق الصادقين وهو لامع يلمع لقلبه، يشبه لامع البرق.

قال صاحب المنازل «البرق: باكورة تلمع للعبد. فتدعوه إلى الدخول فى هذه الطريق».

واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ٩، ١٠].

ووجه الاستشهاد: أن النار التى رآها موسى كانت مبدأ فى طريق نبوته.

و«البرق» مبدأ في طريق الولاية التى هى وراثة النبوة.

وقوله« باكورة» الباكورة: هى أول الشئ، ومنه باكورة الثمار. وهو لما سبق نوعه في النضج.

وهذا البرق ليس هو أول طريق أهل البدايات، بل بدايته «اليقظة» التى ذكرت كأول منزل، وإنما البرق أول طريق أرباب التوسط والنهايات.

وهو نور يقذفه الله فى قلب العبد، ويبديه له، فيدعوه به إلى الدخول فى الطريق الأعلى: طريق الصادقين.

قليله كثير.. وكثيرنا قليل

وومضته الأولي: تلمع من جانب العدة في أفق الرجاء فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء، ويستقل فيه الكثير من الأعباء ويستحلى فيه مرارة القضاء.

والعدة: ما وعد الله أولياءه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء، من ناحيتها يضئ البرق، فيوجب للعبد استكثار القليل، ولا قليل من الله من عطائه، والحامل له على هذا الاستكثار: أربعة أمور.

أحدها: نظره إلى جلالة معطيه وعظمته.

الثاني: احتقاره لنفسه، فإن ازدراءه لها يوجب استكثار مايناله.

الثالث: محبته له. فإن المحبة إذا تمكنت من العبد استكثر قليل ما يناله من محبوبه.

الرابع: أن هذا – قبل العطاء– لم يكن له إلف به، ولا اتصال بالعطية. فلما فاجأته: استكثرها.

وأما «استقلاله الكثير من الإعياء»- وهو التعب والنصب- فلأنه لما بدا له برق الوعود من أفق الرجاء: حمله ذلك على الجد والطلب. وحمل عنه مشقة السير. فلم يجد لذلك من مس الإعياء والنصب ما يجده من لم يشم ذلك.

وكذلك استحلاؤه- في هذا البرق- مرارة القضاء، وهو البلاء الذى يختبر به الله عز وجل عباده، ليبلوهم أيهم أصبر وأصدق، وأعظم إيماناً، ومحبة وتوكلا وإنابة؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق: استحلى فيه مرارة القضاء.

إشارة التأهب

ويسطع أخرى من جانب الوعيد فى عين الحذر فيستقصر فيه العبد الطويل من الأمل، ويزهد في الخلق على القرب.

فهذا البرق أفقه: غير أفق البرق الأول. فإن هذا يلمع من أفق الحذر، وذاك من أفق الرجاء. فإذا شام هذا البرق. استقصر فيه الطويل من الأمل وتخيل فى كل وقت: أن المنية تعاصفه وتفاجئه. فاشتد حذره من هجومها، مخافة أن تحل به عقوبة الله، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء. فيلقى ربه قبل الطهر التام. فلا يؤذن له بالدخول عليه بغير طهارة كما أنه لم يؤذن له في دار التكليف بالدخول عليه للصلاة بغير طهارة.

وهذا يذكر العباد بالتطهر للموافاة والقدوم عليه، والدخول وقت اللقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات. فإذا كان العبد لايدخل عليه حتي يستقبل بيته المحرم بوجهه، ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه. ثم يخلص له النية. فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء، لايحصل إلا بان يستقبل ربه بقلبه كله. ويستر عورته الباطنة بلباس التقوى. ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة. ويتطهر لله طهراً كاملا. ويتأهب للدخول أكمل تأهب. وأوقات الصلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت: جاءه الوقت وهو متأهب. فيدخل على الله. وإذا فرط فى التأهب: خيف عليه من خروج الوقت قبل التأهب. إذ هجوم وقت الموافاة مضيق لايقبل التوسعة. فلا يمكن العبد من التطهر والتأهب عند هجوم الوقت. بل يقال له: هيهات، فات ما فات، وقد بعدت بينك وبين التطهر المسافات. فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل: لم يزل على طهارة.

وأما «تزهيده فى الخلق على القرب» وإن كانوا أقاربه أو مناسبيه، أو مجارويه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه: فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذى ليس بخلب، بل هو أصدق بارق.

ألوان طيف اللطف

ثم يتوهج من جانب اللطف في عين الافتقار فينشئ سحاب السرور. ويمطر مطر الطرب. ويجرى من نهر الافتخار.

فهو يلمع من أفق ملاطفة الرب تعالى لعبده بأنواع الملاطفات. ومطلع هذا البرق: في عين الافتقار، الذي هو باب السلوك إلى الله تعالى، والطريق الأعظم الذى لايدخل عليه إلا منه. وكل طريق سواه فمسدود. ومع هذا فلا يصل العبد منه إلا بالمتابعة فلا طريق إلى الله البتة أبدا- ولو تعنَّى المتعنّون وتمنَّى المتمنون- إلا الافتقار، ومتابعة الرسول فقط. فلا يتعب السالك نفسه فى غير هذه الطريق. فإنه على غير شئ. وهو صيد الوحش والسباع.

وهذا السلوك، باستشعار الافتقار، من شأنه أن ينشئ للعبد سروراً خاصاً وفرحاً بربه لا عهد له بمثله، ولا نظير له فى الدنيا، حتى لكأنه في نفحة من نفحات الجنة. فإذا نشأ له ذلك: طرب باطنه وسره لما ورد عليه من عند وليه. وإذا اشتد ذلك الطرب جرى به نهر الافتخار.

فمنه: افتخار على الشيطان. وهذه مخيلة محمودة، طرباً وافتخاراً عليه. فإن الله لايكره ذلك. ولهذا يحب المختال بين الصفين عند الحرب، لما فى ذلك من مراغمة أعدائه، ويحب الخيلاء عند الصدقة.. كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث - لسر عجيب يعرفه أولو الصدقات والبذل من نفوسهم عند ارتياحهم للعطاء، وابتهاجهم به، واختيالهم على النفس الشحيحة الأمارة بالبخل. وعلى الشيطان المزين لها ذلك. فهذا الافتخار من تمام العبودية.

ومنه شعوره بأنه حريٌّ بالافتخار بما تميز به عن أبناء جنسه بما خصه الله به وإن لم يفتخر به ولم يظهره، إبقاء على عبوديته وافتقاره.

وسر ذلك: أن العبد إذ لاحظ ما هو فيه من الألطاف، وشهده من عين المنة، والجود: شهد مع ذلك فقره إليه فى كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فكان ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المزيد، وتوالى النعم عليه. وكلما توالت عليه النعم: انشأت فى قلبه سحائب السرور. وإذا انبسطت هذه السحائب فى سماء قلبه، وامتلأ بها أفقه: أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور. فإن لم يصبه وابل فَطَلٌّ. وحينئذ يجرى على لسانه وظاهره نهر الافتخار من غير عجب ولا فخر، بل فرحا بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس: ٥٨] فالافتخار على ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافى أحدهما الآخر.

وتأمل قول النبى ﷺ «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه، وإعلاما للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمنا لمصلحة تعود على العزيز وعلي الأمة، وعلى نفسه: كان حسنا. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها ويهجنها. وصورته واحدة.

(٥٤) منزلة الذوق

ومنازل « إياك نعبد » منزلة « الذوق »

و« الذوق » مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم فى لغة القرآن، بل ولا فى لغة العرب. قال الله تعالى: ﴿ **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقال: ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿ **هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ** ﴾ [ص: ٥٧] وقال: ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر. فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **« ذاق طعم الإيمان: من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا»** فأخبر: أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: **« ذاق طعم الإيمان»** وقال: **« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله. ومن كان يكره أن يرجع في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى فى النار»**.

ولما نهاهم عن الوصال قالوا: **« إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم، إنى أطعم وأسقى»** وفى لفظ **« إنى أظل عند ربى يطعمني ويسقينى»** وفى لفظ **« إن لى مطعماً يطعمني، وساقياً يسقينى»**.

وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسى للفم، ولو كان كما ظنه هذا الظان لما كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلا، ولما صح جوابه بقوله: **« إنى لست كهيئتكم»** فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حسا، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم « إنك تواصل » علم أنه ﷺ كان يمسك عن الطعام والشراب، ويكتفى بذلك الطعام والشراب العالى الروحانى، الذى يغنى عن الطعام والشراب المشترك الحسى.

وهذا الذوق هو الذى استدل به هرقل على صحة النبوة، حيث قال لأبى سفيان « فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان، إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب ».

فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان– الذى خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلب أبداً– على أنه دعوة نبوة ورسالة، لا دعوة ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يجده القلب، تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلي الفم.

فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلي هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة. فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان: الوجد الذى هو لهيب القلب. فإن ذلك مصدر وجد بالشئ وجدا، وإنما هو من الوجود الذى هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، فوجد الشئ يجده وجدانا: إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشئ الذى بعد منه. ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ⑧** ﴾[الضحى: ٦ – ٨] وقوله: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً** ﴾[ص: ٤٤] فهذا كله من الوجود والثبوت. وكذلك قوله ﷺ: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**».

هى الأعمال.. لا الآمال

وأول ما يذوقه العابد: أن يذوق قلبه– بالتصديق طعم العدة، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل، ولا تعوقه أمنية.

فإن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته ثبت علي حكم الوعد واستقام.

ولايعقله ظن، أى لم يحبسه ظن، تقول: عقلت فلانا عن كذا، أى منعته عنه وصددته، ومنه عقال البعير، لأنه يحبسه عن الشرود. ومنه: العقل. لأنه يحبس صاحبه عن فعل مالا يحسن ولايجمل. ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته فى صدرك، وحصّلته فى قلبك، بعد أن لم يكن حاصلا عندك. ومنه: العقل للدية. لأنها تمنع آخذها من العدوان على الجانى وعصبته.

والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعد الله يمنع الذائق أن يحبسه ظن عن الجد في الطلب. والسير إلي ربه. و«الظن» هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجح عنده جانب التصديق.

فالذائق بالتصديق طعم الوعد، لايعارضه ظن يعقله عن صدق الطلب، ويحبس عزيمته عن الجد فيه. وفى حديث «سيد الاستغفار» قوله: «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» أى مقيم

على التصديق بوعدك، وعلى القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب. ولو كان الإيمان مجازا- لا حقيقة- لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالعهد. ولايفيد فى هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان.

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية فى إحرامه، ثم يقول «لبيك. لو كان رياء لاضمحل» وقد نفي الله تعالى الإيمان عمن إدعاه. وليس له فيه ذوق. فقال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٤] فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين. لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه. وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفاراً. فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ ولم يرد: قولوا بالسنتكم، من غير مواطأة القلب. فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنا» ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال: «لم تؤمنوا» ووعدهم سبحانه وتعالى- مع ذلك- على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئاً.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا فى إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب: لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدّق ذلك الذوق بذلهم أحب شئ إليهم فى رضا ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن «ليس الإيمان بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق أمر باطن. والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

ومن علامات الذوق أن لايقطع صاحبه عن طلبه أمل دنيا، وطمع فى غرض من أغراضها فإن الأمل والطمع يقطعان طريق القلب فى سيره إلى مطلوبه.

ليس أن لايكون له أمل، بل «لايقطعه أمل» فإن الأمل إذا قام به ولم يقطعه: لم يضره، عوق سيره بعض التعويق. وإنما البلاء فى الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله.

وعند فقهاء القلوب: أن كل ما سوى الله، فإرادته أمل قاطع، كائنا ما كان. فمن كان أمله،

ومنتهى طلبه: فليس من أهل ذوق الإيمان. فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب والأنس به: لم يكن له أمل في غيره. وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعانته على مرضاته ومحابه، فهو يؤمله لأجله، لايؤمله معه.

فإن قلت: فما الذى يقطع به العبد هذا الأمل؟

قل: قوة رغبته فى المطلب الأعلى، الذى ليس شئ أعلى منه. ومعرفته بخسة ما يؤمَّل دونه، وسرعة ذهابه، فيوشك انقطاعه. وأنه في الحقيقة كخيال طيف، أو سحابة صيف. فهو ظل زائل، ونجم قد تدلى للغروب، فهو عن قريب آفل. قال النبى ﷺ: **«مالي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها»** وقال: **«ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟»** فشبه الدنيا فى جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تغمس فى البحر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الدنيا من أولها إلي آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس فى يده شئ».

وقال مطرف بن عبد الله- أو غيره- «نعيم الدنيا بحذافيره فى جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حَدّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لايزول، ولايضمحل؟ فضلا عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾** [التوبة: ٧٢] فيسير من رضوانه- ولايقال له يسير- أكبر من الجنات وما فيها.

وفى حديث الرؤية **«فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلي وجهه»** وفى حديث آخر: **«إنهم إذا رأوه- سبحانه- لم يلتفتوا إلى شئ مما هم فيه من النعيم، حتى يتوارى عنهم»**.

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فاز بالحرمان، ورضى لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان، وعليه التكلان. وما شاء الله كان.

وكذلك لاتعوقه أمنية، وهى: ما يتمناه العبد من الحظوظ. وجمعها أمانى. والفرق بينها وبين «الأمل» أن الأمل يتعلق بما يرجى وجوده. والأمنية: قد تتعلق بما لا يرجي حصوله. كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

والأماني الباطلة: هي رؤوس أموال المفاليس، بها يقطعون أوقاتهم ويلتذون بها، كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة.

وفي الحديث المرفوع «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**».

ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة. كما قيل:

واترك منى النفس لا تحسبه يشبعها ‏ ‏ ‏ إن المنى رأس أموال المفاليس

وأمنية الرجل تدل على علو همته وخستها.

القلب الموزّع يضطرب ويفزع

ثم يذوق بالإرادة طعم الأنس. فلا يعلق به شاغل. ولا يفسده عارض. ولا تكدره تفرقة.

و«الإرادة» وصف المريد. والفرق بين هذه الدرجة والتى قبلها: أن الأولى وصف حال العابد الذي ذاق بتصديقه طعم وعد الرب عز وجل. فجد في العبادة وأعمال البر، لثقته بالوعد عليها. وصاحب هذه الدرجة: ذاقت إرادته طعم الأنس. فهى حال المريد.

والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة. فإذا ذاق المريد طعم الأنس جد فى إرادته، واجتهد في حفظ أنسه، وتحصيل الأسباب المقوية له.

فيعود لايعلق به شاغل، أى لايتعلق به شئ يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلبه الباعث عليه أنسه، الذى قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله: حالة وجدانية وهى من مقامات الإحسان، تقوى بثلاثة أشياء: دوام الذكر، وصدق المحبة، وإحسان العمل.

وقوة الأنس وضعفه: على حسب قوة القرب. فكلما كان القلب من ربه أقرب، كان أنسه به أقوى. وكلما كان منه أبعد، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد، ولذلك يفسده العارض.

والعارض المفسد: هو الذى يعذل المحب، ويلومه على النشاط في رضا محبوبه وطاعته، ويدعوه إلي الإلتفات إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالى. فهو كالذى يجئ عرضاً يمنع المار في طريقه عن المرور، ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها.

وكل ما سوى الله فهو عارض. وإرادة السوى: توقف السالك، وتنكس الطالب، وتحجب الواصل. فإياك وإرادة السوى وإن علا. فإنك تحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره. قال تعالى إخباراً عن عباده المقربين: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٩] وقال

تعالى: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ⑲ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ⑳ ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠].

أما أنه لا تكدره تفرقة، فلأن التفرقة ضد الجمعية، والجمعية هى جمع القلب والهمة على الله بالحضور معه بحال الأنس، خاليا من تفرقة الخواطر. و«التفرقة» من أعظم مكدرات القلب. وهى تزيل الصفاء الذى زثمره له الإسلام والإيمان والإحسان. فإن القلب يصفو لذلك، فتجئ التفرقة. فتكدر عليه ذلك الصفاء، وتشعث القلب. فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه. فيتجهد في لمه، ولا يُلَم شعث القلوب بشئ غير الإقبال على الله والإعراض عما سواه. فهناك يلم شعثه، ويزول كدره، ويصح سفره، ويجد روح الحياة، ويذوق طعم الحياة الملكية، وتذوق همته طعم الجمع.

وذلك إنما هو أثر تجلى معانى الأسماء الحسنى على قلب العبد، فترتفع حجب الغفلة والشك والإعراض، ويتم استيلاء سلطان المعرفة على القلب.

فهو فى هذه الدرجة مستغرق فى شهود الأسماء والصفات، وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها، والنظر إلي الواحد الفرد، الأول الذى ليس قبله شئ، الآخر الذى ليس بعده شئ، الظاهر الذى ليس فوقه شئ، الباطن الذى ليس دونه شئ. سبق كل شئ بأوليته. وبقي بعد كل شئ بآخريته. وعلا فوق كل شئ بظهوره. وأحاط بكل شئ ببطونه.

وهذا موضع غلط فيه طائفتان من الناس.

إحداهما: غلت فيه، حتى قدمت الجمعية عند حصولها على الفرائض والسنن، ورأت نزولها عنها إلى القيام بالأوامر انحطاطا من الأعلى إلى الأدنى، حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك: قم إلي الصلاة، فقال:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلبٍ كل أوقاته ورد؟

وهؤلاء بين كافر وناقص.

فمن لم ير القيام بالفرائض- إذا حصلت له الجمعية- فهو كافر، منسلخ من الدين. ومن عطل لها مصلحة راجحة- كالسنن الرواتب، والعلم النافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والنفع العظيم المتعدى- فهو ناقص.

والطائفة الثانية: لا تعبأ بالجمعية، ولا تعمل عليها. ولعلها لا تدرى ما مسماها ولا حقيقتها.

وطريقة الأقوياء، أهل الاستقامة: القيام بالجمعية فى التفرقة ما أمكن. فيقوم أحدهم بالعبادات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جمعيته على الله. فإن ضعف عن اجتماع الأمرين،

وضاق عن ذلك قام بالفرائض. ونزل عن الجمعية. ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلا بتعطيل الفرض. فإن ربه سبحانه يريد منه أداء فرائضه، ونفسه يريد الجمعية، لما فيها من الراحة واللذة، والتخلص من ألم التفرقة وشعثها، فالفرائض حق ربه، والجمعية حظه هو.

بل الواقع: أن الصلاة صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته فى دنياه وآخرته وهى قرة عين المؤمن، كما كانت قرة عين رسول الله ﷺ، وهى العون على كل أمورهم. وكذلك الصيام: إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يربيه ربه، حال كونه معه بقوة العزيمة والإرادة الصادقة، والبصيرة النيرة، التى يكون بها المؤمن فى وقاية من كل ما يخاف فى أولاه وآخراه. وكل الطاعات المفروضة إنما هى كذلك، أسباب لسعادته ووقايته من كل ما يخاف فى أولاه قبل أخراه. وكل شأن الإنسان فى أهله، أو مسجده، أو مزرعته، أو مصنعه ، أو ميدان حربه: فإنما هو خيره فى الأولى قبل الأخري. وهو به يسلم شأنه ويستسلم به لربه خلقاً وشرعا. فتكون كل حركاته وسكناته فى مطعمه وملبسه ومشربه ومنامه ويقظته عبادة بتذلل وحب صادقين. وخطوات يسعى بها حثيثاً إلى لقاء الله والمصير إليه، راضياً مرضيا فى قبره وما بعده. فيسعى بها حثيثا ليكون من عباد الرحمن. وهذا كان شأن الرسول ﷺ والذين آمنوا به. واتبعوا النور الذى أنزل معه. ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، وزخرف حسنها شياطين الإنس والجن: تغير الناس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر: أن يجلس فى خلوة ليعد مئات لا إله إلا الله، أو ليصلي ألف ركعة، أو ليقرأ ألف ختمة في غفلة غافلة. وأشباه هذا مما يجعل العبادات أشكالا وصوراً وتمثيلا. بخلاف ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم. كما قال ابن مسعود رضى الله عنه: « ما كنا نجاوز الآية حفظاً حتى نتقنها عملا » أو كما قال.

فالعبودية الصحيحة: توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر. فإذا جاء إلى النوافل، وتعارض عنده الأمرانِ: فمنهم من يرجح الجمعية.

ومنهم من يرجح النوافل، ومنهم من يؤثر هذا فى وقت وهذا فى وقت.

والتحقيق- إن شاء الله- أن تلك النوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعية، ولا تعوضه الجمعية عنها: اشتغل بها، ولو فاتت الجمعية، كالدعوة إلى الله، وتعليم العلم النافع، وقيام وسط الليل، والذكر أول الليل وآخره، وقراءة القرآن بالتدبر. ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطر، وإعانة الملهوف، ونحو ذلك. فهذا كله مصلحته من مصلحة الجمعية.

وإن كانت مصلحته دون الجمعية- كصلاة الضحى، وزيارة الإخوان، والغسل لحضور الجنائز وعيادة المرضى، وإجابة الدعوات، وضيافة الإخوان ونحو ذلك- فهذا فيه تفصيل.

فإن قويت جمعيته فظهر تأثيرها فيه: فهى أولى له، وأنفع من ذلك، وإن ضعفت الجمعية،

وقوى إخلاصه فى هذه الأعمال: فهى أنفع له، وأفضل من الجمعية.

والمعول عليه فى ذلك كله: إيثار أحب الأمرين إلى الرب تعالى.

وذلك يعرف بنفع العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه، وكثرة مواظبة الرسول ﷺ، وشدة اعتنائه به، وكثرة الوصية به، وإخباره أن الله يحب فاعله. ويباهى به الملائكة. ونحو ذلك.

ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق فى طلبه يؤثر مرضاة ربه على حظه. فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل، وحظه في الجمعية: خلّى الجمعية تذهب. وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قبله: أن تردده وتوقفه- ليعلم- أى الأمرين أحب إلي الله وأرضي له- أنشأ له من ذلك التوقف والتردد حالة شريفة فاضلة، حتى لو قدم المفضول- لظنه أنه الأحب إلى الله- ردت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر. وبالله التوفيق.

و« الجمع » شهود الفردانية التى تفنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية.

وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمه وسره على محبوبه ومراضيه ومراده منه. فهو عكوف القلب بكليته على الله عز وجل. لايلتفت عنه يمنة ولا يسرة. فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع اتصل اشتياق صاحبها، وتأججت نيران المحبة والطلب فى قلبه، ويجد صبره عن محبوبه من أعظم كبائره. كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لايحمد

فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصى السير إلا بين يدى الرحمن. تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر علي الوصول إليه. فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]

فسبحان من فاوت بين الخلق فى هممهم، حتى تري بين الهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين. بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين. وتلك مواهب العزيز الحكيم ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١]و [الجمعة: ٤]

وهكذا يجد بهذين الجمعين لذة غامرة عند مناجاة ربه، وأنساً به، وقرباً منه، حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة، ويتملقه تارة، ويثنى عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقاً بقوله: « أنت الله الذى لا إله إلا أنت » من غير تكلف له بذلك. بل يبقى هذا حالا له ومقاما، كما قال النبى ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**» وهكذا مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين

يدى ربه، فيسكن جأشه، ويطمئن قلبه، فيزداد لهجاً بالدعاء والسؤال، تذللا لله الغنى سبحانه، وإظهاراً لفقر العبودية بين يدى عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه. لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله. بل هو المتفضل به ابتداء بلا سبب من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه. بل قدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه، إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافا بعز الربوبية. وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتى بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لايستحق بطلبه وسؤاله شيئاً. ولكن ربه تعالى يحب أن يسأل، ويرغب إليه، ويطلب منه. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء: ٣٢] وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[الفرقان: ٧٧] وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف: ٥٥] وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الأعراف: ٥٦].

وقال النبى ﷺ: «**ليسأل أحدكم ربه كل شئ، حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر**» وقال: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» وروى الترمذى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «**سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل من فضله**»وقال: «**إن لربكم فى أيام دهركم نفحات. فتعرضوا لنفحاته. واسألوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم**» وقال: « **ما من داع يدعو الله بدعوة إلا آتاه بها أحد ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: إذا نكثر يا رسول الله؟ قال: فالله أكثر**» وقال: «**ليس شئ أكرم على الله من الدعاء**».

وقال تعالى- في الحديث القدسى فيما روى عن أبى ذر- رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ: «**يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعمونى أطعمكم. يا عبادى، كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسونى أكسكم. يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدونى أهدكم. يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار. وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالى. فاستغفرونى أغفر لكم**» **وقال**ﷺ: «**وأما السجود: فاجتهدوا فيه فى الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنى لا أحمل همّ الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء. فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه».

وفى هذا يقول القائل:

لو لم ترد بذل ما أرجو وأطلبه   من جود كَفِّك ما عودتنى الطلبا

والله سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم إليه، وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قالوا: أتشكو إليه ... ماليس يخفى عليه؟

فقلت: ربى يرضى ... ذل العبيد لديه

نفرح بالله تعالى.. وندعوه التثبيت

فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداء قبل أن يخلقه، مع علم الله سبحانه به وبتقصيره، وأن الله تعالي لم يمنعه علمه بتقصير عبده أن يقدر له الفضل والإحسان.

فإذا شاهد العبد ذلك اشتد سروره بربه، وبمواقع فضله وإحسانه. وهذا فرح محمود غير مذموم. قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس:٥٨] ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن. وهو يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به. بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها. وهو في الحقيقة فرح العبد بفضل الله حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها ويسرها له. ففى الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به، فيفرح به سبحانه رباً، وإلهاً، ومنعماً ومربياً.

ولكن العاقل اللبيب يجمع إلى هذا السرور حذراً من مكر الله تعالى، فإن السرور يبسط النفس وينميها، وينسيها عيوبها وآفاتها ونقائصها. إذ لو شهدت وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح.

وأيضاً فإن الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم. فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه. فيطفح عليه السرور. حتى يغيب بنعمته عنه. وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم.

ولله كم ها هنا من مُسْتَردٍّ منه، ما وهب له عزة وحكمة! وربما كان ذلك رحمة به. إذ لو استمر على تلك الولاية لخيف عليه من الطغيان. كما قال تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا كان هذا غنى بالحطام الفانى، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟

و«المكر» الذى يخاف عليه منه، أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليته فى ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وأمثال ذلك. فيغيبه عن شهود ذلك. ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه. فيحيله على نفسه التى لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة على المليئ الوفى الذى له الغنى التام كله بالذات فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغى له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده، قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفاً مع حد العبودية. وكذلك قال إبراهيم ﷺ لقومه- وقد خوفوه بآلهتهم- فقال: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد فى دعائه اللهم لا تؤمنى مكرك؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك. ومراده: لا تخذلنى، حتى آمن مكرك ولا أخافه، وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشخير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن إسحاق عن مطرف: أنه كان يكره أن يقول: اللهم لا تُنْسِنى ذكرك، ولا تؤمنى مكرك. ولكن أقول اللهم لا تنسنى ذكرك، وأعوذ بك أن آمن مكرك، حتى كون أنت تؤمننى.

وبالجملة: فمن أحيل على نفسه فقد مُكِر به.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد- مولى بنى هاشم- حدثنا الصلت بن طريف المعولى حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عز وجل وبين الشيطان. فإن يعلم الله تعالى فى قلبه خيراً: جبذه إليه. وإن لم يعلم فيه خيراً: وكله إلى نفسه. ومن وكله إلى نفسه هلك.

وقال جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن مطرف قال: لو أخرج قلبى فجعل فى يدى هذه في

اليسار. وجئ بالخير فجعل فى هذه اليمنى. ثم قربت من الأخرى ما استطعت أن أولج فى قلبى شيئاً حتى يكون الله عز وجل يضعه.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر، مالم يقارنه خوف قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]

وقال قوم قارون له: ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله به، مقارناً للخوف والحذر لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك ضره ولابد.

والذى يساعده على تصفية سروره من شوائب الطغيان أن يبالغ فى الشكر، ويكثر منه، مع تيقنه أنه لن يوفى شكره حقه مهما شكر، فإن شكر العبد لربه نعمة من الله أنعم بها عليه. فهى تستدعى شكراً آخر عليها. وذلك الشكر نعمة أيضاً. فيستدعى شكراً ثالثاً. وهلم جرا. فلا سبيل إلى القيام بشكر الرب على الحقيقة. ولا يشكره على الحقيقة سواه. فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها. فهو الشكور لنفسه، وإن سمى عبده شكوراً. فمدحة الشكر فى الحقيقة راجعة إليه، وموقوفة عليه. فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده. فما شكره في الحقيقة سواه.

والشكر هو صفة الرب جل جلاله وفعله. فإنه سمى نفسه بالشكور، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] وقال أهل الجنة: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] فإذا لاحظ العبد سبق الفضل من الله، علم أنه سبحانه إنما فعل ذلك لمحبته للشكر، فإنه تعالى يحب أن يشكر، كما قال موسى ﷺ: «يارب ، هلا ساويت بين عبادك؟ قال: إنى أحب أن أشكر».

وإذا كان يحب الشكر فهو أولى أن يتصف به، كما أنه سبحانه وتر، يحب الوتر، جميل يحب الجمال، محسن يحب المحسنين، صبور يحب الصابرين، عفو يحب العفو، قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف، فكذلك هو شكور يحب الشاكرين. فملاحظة العبد سبق الفضل تشهده صفة الشكر. وتبعثه على القيام بفعل الشكر.

ذكريات الابتداء تعيدك إلى الشكر بعد الفتور

فإذا نسى السالك نفسه، وفرح فرحاً لايقارنه خوف، فليرجع بذاكرته إلى بدايات سلوكه، وحدة طلبه، عسى أن يعود إلى سابق ما كان منه من السير الحثيث الذى كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتور الذى لابد أن ينتج عن السرور.

فتَخَلُّل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم رجا له أن يعود خيراً مما كان.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه: «إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض».

وفى هذه الفترات والغيوم والحجب، التى تعرض للسالكين، من الحكم مالا يعلم تفصيله إلا الله. وبها يتبين الصادق من الكاذب.

فالكاذب: ينقلب على عقبيه. ويعود إلي رسوم طبيعته وهواه.

والصادق: ينتظر الفرج ولا ييأس من رَوْح الله. ويلقى نفسه بالباب طريحاً ذليلا مسكيناً مستكيناً، كالإناء الفارغ الذى لا شئ فيه ألبتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد- وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب- لكن ليس هو منك. بل هو الذى مّن عليك به، وجردك منك، وأخلاك عنك. وهو الذى ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم أنه يريد أن يرحمك، ويملأ إناءك فإن وضعت القلب فى غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع. فسل ربه ومن هو بين أصابعه أن يرده عليك. ويجمع شملك به.

وقد أخبر النبى ﷺ: «إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة».

فالطالب الجاد: لابد أن تعرض له فترة فيشتاق فى تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالى الهمة، فيفيده عند فتوره أن يرجع إلى ذكريات تلك البداية، فتتجدد له العزيمة، ويعود إلى دأبه فى الشكر.

وكان الجنيد- رحمه الله- كثير الذكر لبداية سيره، وكان إذا ذكرها يقول: واشوقاه إلى أوقات البداية!

يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب، والسير إلى الله، والإعراض عن الخلق.

وهكذا تكون للمؤمن الشاكر الصادق بدايات عديدة مباركة، لابداية واحدة، ويكون وقته عامراً مليئاً كله، لكل حين ما يناسبه، حتى أن التوفيق لكل عمل ينويه يأتيه فى الوقت الذى هو أليق له، وعند اشتداد الحاجة إليه.

وذلك لأن الشئ إذا وقع في وقته الذى هو أليق الأوقات بوقوعه فيه، كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث فى أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في وقته الذى يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها فى الخلق، علم أنها واقعة فى أليق الأوقات بها.

وقد استشهد الهروى لذلك بقول الله تعالى: ﴿ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠].

ووجه استشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدّر مجئ موسي أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر، إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر ... كما أتى ربه موسي على قدر

فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك.

وبعث محمد ﷺ وعليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له، أحوج ما كان إلى عمارته.

وإذا أراد الله بعبد خيراً أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له وإذا أراد به شراً جعل وقته عليه. وناكده وقته. فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول: كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده.

الرجاء الصافى يريك ما تأنس به

فإذا اقترن الصفاء بالشكر: صار الوقت وقت وجد صادق، غير متكلف له، ولا متعمل في تحصيله، ويمنحه هذا الوجد الأنسُ بما يرى من فضل الله تعالى عليه.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩].

فليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية ما يانس به القلب ويسكن إليه. ولايقال لمن رأى عدوه أو مخوفاً: آنسه.

والمقصود: أن هذا الوقت وقت وَجْد، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنته عليه. و«الفضل» هو العطاء الذى لايستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجداً آخر، باعثاً على محبة صاحب الفضل، والشوق إلى لقائه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

ودخلت على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه، فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما مَنَّ الله به عليّ من السنة ومعرفتها، والتخلص من شُبه القوم، أى أهل البدع، وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفطرة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ، فسرنى ذلك حتى أبكانى.

فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنته.

وهذا الوجد، أو الإيناس، أو الفضل، إنما يجذبه رجاء صاف غير مكدر، مقترن بشكر، والرجاء الصافى هو الذى لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، بل يكون رجاء محضاً لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كله له ومنه، وفى يده أسبابه وغاياته ولايستطيع العبد أن ينال شيئاً بدون توفيقه وإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى.

وبالمقابل، فإن هناك من الوجد ما يبعث عليه صدق السالك فى الخوف من الله تعالى، فالأول سببه الرجاء، وهذا سببه الخشية.

أو تجذبه المحبة أيضاً، فإن المحبة متى قويت اشتعلت نارها فى القلب، فحدث عنها لهيب الاشتياق إلى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة: الحب والخوف، والرجاء، هى التى تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهى أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذه الثلاثة هى قطب رحى العبودية. وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم.

(٥٥) منزلة الصفاء

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » « منزلة الصفاء »

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٧]

و« الصفا » اسم للبراءة من الكدر .

ووجه الاستشهاد بالآية : أن « المصطفى » مفتعل من الصفوة . وهى خلاصة الشئ ، وتصفيته مما يشوبه : ومنه : اصطفى الشئ لنفسه . أى خلصه من شوب شركة غيره له فيه . ومنه « الصفى » وهو السهم الذى كان يصطفيه رسوله ﷺ لنفسه من الغنيمة . ومنه : الشئ الصافى . وهو الخالص من كدر غيره .

رخصة مرور .. شرطها التجريد

وأساسه : صفاء علم يهذب لسلوك الطريق ، ويصحح همة القاصد .

وهذا العلم الصافى هو العلم الذى جاء به رسول الله ﷺ .

وكان الجنيد يقول دائماً : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . فمن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ، ولم يتفقه ، لايقتدى به .

وكان يقول : علمنا هذا متشبك بحديث رسول الله ﷺ .

وقال أبو سليمان الدارانى : إنه لتمر بقلبى النكتة من نكت القوم . فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل ، من الكتاب والسنة . وقال النصر إبادي : أصل هذا المذهب : ملازمة الكتاب والسنة . وترك الأهواء والبدع ، والاقتداء بالسلف ، وترك ما أحدثه الآخرون . والإقامة على ما سلكه الأولون .

فهذا العلم الصافى المتلقى من مشكاة الوحى والنبوة يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية . وحقيقتها التادب بآداب رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً . وتحكيمه باطناً وظاهراً . والوقوف معه حيث وقف بك . والمسير معه حيث سار بك .

فلا تخالفه ألبتة ، ولكن اجعل رسول الله ﷺ لك إماماً وقدوة وحاكماً ، فتجيبه إذا دعاك ، وتقف معه إذا استوقفك ، وتسير إذا سار بك ، وتقيل إذا قال ، وتنزل إذا نزل ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه . وإذا أخبرك عن شئ أنزلته منزلة ما تراه بعينك . وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك .

وبالجملة: فتجعل الرسول معلمك ومربيك ومؤدبك. وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا فى التبليغ كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية. ولا تثبت وساطة إلا فى وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التجريدان هما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. والله وحده هو المعبود المألوه، الذى لايستحق العبادة سواه، ورسوله: المطاع المتبع، المهتدى به، الذى لايستحق الطاعة سواه. ومن سواه: فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعاً للأصل.

فالعلم الحاصل بالشواهد والأدلة: هو العلم الحقيقى. وأما ما يدعى حصوله بغير شاهد ولا دليل فلا وثوق به. وليس بعلم. نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعاين، وعلم اليقين كعين اليقين. فيكون الأمر شعوراً أولا. ثم تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً. ثم معرفة. ثم علم يقين. ثم حق يقين. ثم عين يقين. ثم تضمحل كل مرتبة فى التى فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها. فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال فليس بصحيح. فإن الله سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها. ولا يحصل لبشر علم إلا بدليل يدله عليه. وقد أيد الله سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التى دلتهم على أن ماجاءهم من عند الله. ودلت أممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ماجاءهم هو من عند الله. وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأمم. فالأدلة والشواهد التى كانت لهم، ومعهم أعظم الشواهد والأدلة، والله تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد. فكل علم لايستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علماً.

وفائدة هذا التقرير تظهر فى فهم حقيقة «العلم اللدنى» الذى يدعى البعض أن الله يقذفه فى قلوبهم إلهاماً بلا سبب منهم ولا استدلال، فنحن نقول إن العلم اللدنى ما قام الدليل الصحيح عليه: أنه جاء من عند الله على لسان رسله. وما عداه فلدنى من لدن نفس الإنسان. منه بدأ وإليه يعود. وقد انبثق سد العلم اللدنى، ورخص سعره. حتى ادعت كل طائفة أن علمهم لدنى. وصار من تكلم في حقائق الإيمان السلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويلقيه شيطانه فى قلبه: يزعم أن علمه لدني.

وقد صدق هؤلاء وكذبوا، فإن «اللدنى» منسوب إلى «لدن» بمعنى «عند» فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لدنه. وقد ذم الله تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ماليس من عنده، كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل

عمران: ٧٥] وقال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** ﴾ [الأنعام: ٩٣] فكل من قال: هذا العلم من عند الله- وهو كاذب فى هذه النسبة- فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا فى القرآن كثير، يذم الله سبحانه من أضاف إليه مالا علم له به، ومن قال عليه مالايعلم. ولهذا رتب سبحانه المحرمات أربع مراتب. وجعل أشدها: القول عليه بلا علم. فجعله آخر مراتب المحرمات التى لا تباح بحال. بل هى محرمة فى كل ملة، وعلى لسان كل رسول. فالقائل «إن هذا علم لدني» لما لايعلم أنه من عند الله، ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده: كاذب مفتر على الله. وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين.

فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ، واقتدى به فى ظاهره وباطنه.

فلا يتعنى السالك علي غير هذه الطريق. فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله: ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [النور: ٣٩].

ولا يتعنى السالك على هذه الطريق. فإنه واصل ولو زحف زحفاً. فأتباع الرسول ﷺ: إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم. كما قيل:

من لى بمثل سيرك المدلل   تمشى رويداً وتجى فى الأول

والمنحرفون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم: قعد بهم عدولهم عن طريقه.

بل الأعمال والاجتهادات على غير هدى رسول الله ﷺ: إنما هى أعمال جاهلية، مهما سماها عاملوها بأسماء إسلامية. كما كان أهل الجاهلية يسمون أعمالهم الجاهلية: إبراهيمية، وحنيفية. فلن تقوم الأعمال الجاهلية بعاملها إلا نكوصاً على الأعقاب، وانكباباً على الوجوه بعمى وبكم وصمم وعداوة لله ورسوله، وموالاة للشيطان قال الله: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣]

همم الفلك السامى

وهذا الصفاء العلمى يصحح همة القاصد، ومتى صحت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهى كالنار تطلب الصعود والارتفاع مالم تمنع.

وأعلي الهمم: همة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً. وأوصلت الخلق إليه دعوة ونصحاً. وهذه همة الرسل وأتباعهم. وصحتها: بتمييزها من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام

طريقها. بل توحد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسلوك خلف الدليل الذى نصبه الله دليلا. لا من نصبه هو دليلاً لنفسه.

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى رضي الله عنه- وقد قال له رسول الله ﷺ: «**سلني**» - فقال «**أسألك مرافقتك في الجنة**» وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يواري جلده.

وانظر إلى همة إبراهيم وإسماعيل، فإن إبراهيم ﷺ لما بلغ ما بلغ- هو وولده- فى المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به: ألقاه الوالد على جبينه فى الحال. وأخذ الشفرة. وأهوى إلى حلقه- أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفنى بأمر الله عنهما. فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم علي الله وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله: «**فلما أسلما**» أى استسلما وانقادا لأمر الله. فلم يبق هناك منازعة. لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف، وتسليم محض.

قوله: «**وتله للجبين**» أى صرعه على جبينه، وهو جانب الجبهة الذى يلى الأرض عند النوم، وتلك هى هيئة ما يراد ذبحه.

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ - حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض- فأباها. ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها فى طاعة ربه تعالى. فأبت له تلك الهمة العالية: أن يتعلق منها بشئ مما سوى الله ومحابه. وعرض عليه أن يتصرف بالملك، فأباه. واختار التصرف بالعبودية المحضة. فلا إله إلا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفس تحملها، وخالص همم لا تعدو همم أخس الحيوانات.

رخصة إقامة.. شرطها النقاء

ومن الصفاء: صفاء الحال

والحال ثمرة العلم ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم المثمر له، وعلى حسب شوب العلم يكون شوب الحال. وإذا صفا الحال وجد العبد حلاوة المناجاة.

فهذه الدرجة تختص بصفاء الحال، كما اختصت الأولى بصفاء العلم.

فمتى صفا له حاله من الشوائب خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار. فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته. فلو كان الحال مشوباً مكدرا لم يجد حلاوة المناجاة. والحال المستندة إلى وارد تذاق به حلاوة المناجاة: هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم «الودود» - مثلا- وكشف له عن معانى الاسم، ولطفه، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسباً له. فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة ومناجاة، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه فى شهود معنى هذا الاسم، وحظه من أثره.

فإ «الودود» - إن كان بمعنى المودود، كما قال البخارى فى صحيحه «الودود» الحبيب- واستغرق العبد فى مطالعة صفات الكمال، التى تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها سروراً وبهجة.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى «الواد» وهو المحب: أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنياً كريماً جواداً، عزيزاً قادراً، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غنى بالذات عن كل ما سواه. وهو - مع ذلك- يَوَدُّ عباده ويحبهم، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم- كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها.

(٥٦) منزلة الفرح

ومن منازل إياك نعبد « السرور والفرح »

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] .

وتصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن. فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته. وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة. فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم، محسن: يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه: أولى وأحرى.

ونذكر ما في هذه الآية من المعنى.

قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم « فضل الله » الإسلام. و« رحمته » القرآن. فجعلوا « رحمته » أخص من « فضله » فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض فجعلهم مسلمين بفضله وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : ٨٦] وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: « فضل الله: القرآن ورحمته: أن جعلنا من أهله ».

قلت: يريد بذلك، أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و« الفرح » لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهي، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] ولا شئ أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة- وشفاء الصدور من أدوائها بالهدي والرحمة. فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة- التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه- وهو أشد ألماً من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدي الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. و« الرحمة » التي تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها . أى هذا هو الذى ينبغى أن يفرح به . ومن فرح به فقد فرح بأجلٍ مفروح به . لا ما يجمع أهل الدنيا منها . فإنه ليس بموضع للفرح . لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة . وهو طيف خيال زار الصب فى المنام . ثم انقضى المنام . وولى الطيف . وأعقب مزاره الهجران .

وقد جاء « الفرح » فى القرآن على نوعين : مطلق ومقيد .

فالمطلق : جاء في الذم . كقوله تعالى : ﴿ **لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ [القصص : ٧٦] ووقوله : ﴿ **إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** ﴾ [هود : ١٠] .

والمقيد : نوعان أيضاً . مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته . فهو مذموم . كقوله : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

والثانى : مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً . فضل ورحمة بالسبب . وفضل بالمسبب . فالأول : كقوله : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس : ٥٨] والثانى : كقوله : ﴿ **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [آل عمران : ١٧٠] .

فالفرح بالله، وبرسله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين : قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٤] .

وقال : ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ [الرعد : ٣٦] .

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره . فإن فرح العبد بالشئ عند حصوله له علي قدر محبته له، ورغبته فيه . فمن ليس له رغبة فى الشئ لايفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته .

فالفرح تابع للمحبة والرغبة .

والفرق بينه وبين الاستبشار : أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله . إذا كان على ثقة من حصوله . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٧٠] .

و« الفرح » صفة كمال . ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها .

والمقصود: أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور ونعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشئ فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فرح راضٍ. وليس كل راض فرحا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضي ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لايؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام.

و«السرور» والمسرة: مصدر سَرَّه سرورا ومسرة. وكأن معني سَرَّه: أَثَّر في أسارير وجهه فإنه تبرق منه أسارير الوجه. كما قال شاعر العرب:

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

وأما الاستبشار: فهو من البشرى. والبشارة: هى أول خبر صادق سار.

و«البشرى» يراد بها أمران أحدهما: بشارة المخبر. والثانى: سرور المُخْبَر. قال الله تعالي: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٤] فسرت «البشرى» بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت وأبى الدرداء- رضى الله عنها- عن النبى ﷺ: «**هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم،أو ترى له**».

وقال ابن عباس «بشرى الحياة الدنيا: هى عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفى الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله. تزف كما تزف العروس، تبشر برضوان الله».

وقال الحسن: هى الجنة. واختاره الزجاج والفراء. وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجرى له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح.

فالثناء من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى. وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ [البقرة: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ **وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر فى بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين «بشرى سارة» تؤثر فيه نضارة وبهجة، و«بشرى محزنة» تؤثر فيه بسوراً وعبوساً. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. إذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

والله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا فى قوله تعالي: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً** ﴾ [الأنعام: ٤٤] وفى قوله تعالى:﴿**لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾ [القصص: ٧٦] وقوله

تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** ﴾[هود: ١٠] فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها. وبالعكس.

ولقد نزل القرآن أيضاً بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: «**فرحين بما آتاهم الله من فضله**» وقوله تعالى: «**فبذلك فليفرحوا**».

وورد اسم السرور في موضعين من القرآن فى أحواله الآخرة. وهما:

قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)** ﴾[الانشقاق: ٧ - ٩] والموضع الثاني: قوله: ﴿ **وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** ﴾ [الإنسان: ١١].

وورد السرور فى أحوال الدنيا فى مواضع على وجه الذم. كقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣)** ﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣].

فقد رأيت ورود كل واحد من «الفرح» و«السرور» فى القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة.

والترجيح للفرح لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليه اسمه، دون «السرور» فدل على أن معناه أكمل من معني السرور. وأمر الله به في قوله تعالى: «**فبذلك فليفرحوا**» وأثنى على السعداء به فى قوله: «**فرحين بما آتاهم الله من فضله**».

الاتصال المطرب

وسرور قلب المؤمن إنما تجلبه هزتان. الأولى: هزة سرور ذوق، يذهب بثلاثة أحزان: حزن أورثه خوف الانقطاع. وحزن هاجته ظلمة الجهل. وحزن بعثته وحشة التفرق.

إذ لما كان «السرور» ضد الحزن. والحزن لايجامعه: كان مذهباً له. ولما كان سببه: ذوق الشئ السار. فإنه كلما كان الذوق أتم كان السرور به أكمل.

وهذا السرور يذهب بثلاثة أحزان:

الحزن الأول: حزن أورثه خوف الانقطاع، وهذا حزن المتخلفين عن ركب المحبين، ووفد المحبة: فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة هذا الركب، وهذا الوفد. وهم الذين: ﴿ **كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** ﴾[التوبة: ٤٦] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته.

وأمر قلوبهم أمراً كونياً قدرياً أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه. فلو عاينت قلوبهم- حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات، ونابت عنها الأحزان- لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم، وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذى وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن، ولايقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية- كما تقدم- فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وقوله تعالي: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

بشاشة العلم

والحزن الثاني، الذى يذهب سرور الذوق، هو حزن ظلمة الجهل.

والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة، وجهل عمل وَغَيٍّ. وكلاهما له ظلمة ووحشة فى القلب. وكما أن العلم يوجب نوراً وأنسا. فضده يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سمى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذى بعث به رسوله نوراً، وهدى وحياة. وسمي ضده: ظلمة وموتاً وضلالاً. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال تعالي: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فجعله «روحا» لما يحصل به من حياة القلوب والإرواح. و«نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[النور: ٣٥].

ومثل حال من فقد هذا النور: بمن هو في ﴿ **كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[النور: ٤٠].

سكينة الاجتماع

الحزن الثالث: حزن بعثته وحشة التفرق. وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن ممض على فوات جمعية القلب على الله ولذاتها ونعيمها .فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكن لها نسبة إلي لذة جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لايصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك ولله در القائل:

أيا صاحبى، أما ترى نارهم؟ فقال: تريني مـــالا أرى

سقاك الغرام ولم يسقــنى فأبصرت مالم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، ونكد التشتت، وغبار الشعث. لكفى به عقوبة، فكيف؟ وأقل عقوبته: أن يبتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم. فتصير أوقاته – التى هى مادة حياته– ولا قيمة لها، مستغرقة فى قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم. وهذه عقوبة قلب ذاق حلاوة الإقبال على الله، والجمعية عليه، والأنس به، ثم آثر على ذلك سواه، ورضي بطريقة بني جنسه، وما هم عليه. ومن له أدنى حياة فى قلبه، ونور. فإنه يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرق.

ففى القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لايزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن: لايذهبه إلا السرور بمعرفته. وصدق معاملته.

وفيه قلق: لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات: لايطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه، وقضائه ومعانقة الصبر على ذاك إلى وقت لقائه.

وفيه طلب شديد: لايقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدُّ تلك الفاقة منه أبداً.

فالتفرق يوقع وحشة الحجاب. وألمه أشد من ألم العذاب، قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦)** ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فاجتمع عليهم عذاب الحجاب، وعذاب الجحيم.

فالحزن يتولد من مفارقة المحبوب. ليس له سبب سواه. وإن تولد من حصول مكروه، فذلك المكروه إنما كان كذلك لما فات به من المحبوب. فلا حزن إذاً، ولا هم ولا غم، ولا أذى ولا كرب إلا فى مفارقة المحبوب. ولهذا كان حزن الفقر والمرض، والألم والجهل، والخمول والضيق، وسوء الحال ونحو ذلك، على فراق المحبوب، من المال، والوجد والعافية، والعلم، والسعة، وحسن الحال. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالي: ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴾ [سبأ: ٥٤] فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

يا قومنا: أجيبوا داعى الله

أما هزة الطرب الثانية فهى هزة سرور سماع الإجابة، وهو سرور يمحو آثار الوحشة. وهو مقيد بكونه «سماع إجابة» فإنه السماع المنتفع به، لا مجرد سماع الإدراك، فإنه مشترك بين المجيب والمعرض. وبه تقوم الحجة، وينقطع العذر. ولهذا قال الله عن أصحابه: ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [النساء: ٤٦] وقال النبى ﷺ- لليهودى الذى سأله عن أمور من الغيب- **(ينفعك إن حدثتك؟)** قال: أسمع بأذني. وأما سماع الإجابة: ففى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٤٧] أى مستجيبون لهم. وفى قوله: ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** ﴾ [المائدة: ٤٢] أى: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلى «سمع الله لمن حمده» أى أجاب الله حمد من حمده. وهو السمع الذى نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيراً. فى قوله: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٣] أى لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا يكون المعنى لأسمع قلوبهم فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم. ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه.

والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذان، وهو يزيل بقايا الوحشة التى سببها ترك الانقياد التام. فإنه على قدر فقد ذلك تكون الوحشة. وزوالها إنما يكون بالانقياد التام.

وقد بيَّن الله سبيل حصول هذه المعرفة فقال: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧].

فالله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حى واع. فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغى بسمعه. فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أى الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر فى موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لايدرك حقيقة المرئى إلا إذا كانت له قوة مبصرة. وحَدَّق بها نحو المرئى. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدث نحو المرئى، أو حدق نحوه ولكن قلبه في موضع آخر: لم يدركه. فكثيرا ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعى صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء.

فإذا اجتمع إلى ذلك سماع إجابة من الرب عز وجل: تم السرور، فإن العبد إذا دعا ربه فسمع ربه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأله، علي حسب مراده ومطلبه، أو أعطاه خيراً منه: حصل له بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد. فإن للعطاء والإجابة سروراً وأنساً وحلاوة. وللمنع وحشة ومرارة. فإذا تكرر منه الدعاء، وتكرر من ربه سماع وإجابة لدعائه: محا عنه آثار الوحشة. وأبدله بها أنساً وحلاوة.

(٥٧) منزلة السر

ومن منازل « إياك نعبد » : منزلة « السر »

قال صاحب المنازل :

« باب السر . قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [هود : ٣١] أصحاب السر : هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر » .

أما استشهاده بالآية، فوجهه : أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم قد أودع الله قلوبهم سراً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفى على أعداء الرسل، فنظروا إلي ظواهرهم . وعموا عن بواطنهم . فازدروهم واحتقروهم . وقالوا للرسول : « اطرد هؤلاء عنك، حتى نأتيك ونسمع منك » وقالوا : ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام :٥٣] فقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ٣١] قال الزجاج : المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني فى بادى الرأى وظاهره، فليس علي أن أطلع على ما فى أنفسهم . فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما فى نفوسهم إلي الله . وهذا معني حسن .

والذى يظهر من الآية : أن الله يعمل ما في أنفسهم، إذ أهلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله . والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه . وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدي والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم . كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة . فأخبر الله سبحانه : أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده : من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها . وليس كل أحد عنده هذا السر . فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء .

قوله : « أصحاب السر : هم الأخفياء، الذين ورد فيهم الخبر » .

قد يريد به : حديث سعد بن أبي وقاص، حيث قال له ابنه : « أنت ههنا والناس يتنازعون فى الإمارة؟ فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » .

وقد يريد به : قوله ﷺ **« رب أشعث أغبر ، مدفوع بالأبواب لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »** .

وهم على طبقتين : الطبقة الأولى : طائفة علت هممهم، وصفت قصودهم، وصح سلوكهم،

حتي سبقوا السائرين، فلم يوقف لهم على رسم، ولم ينُسبوا إلى اسم، ولم يشر إليهم بالأصابع.

أى أن لهم ثلاث صفات ثبوتية. وثلاثاً سلبية.

الأولى: «علو هممهم» وعلو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشئ سواه، ولا ترضى بغيره بدلا منه. ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشئ من الحظوظ الخسيسة الفانية. فالهمة العالية على الهمم ،كالطائر العالى على الطيور، لايرضى بمساقطهم. ولا تصل إليه الآفات التى تصل إليهم. فإن «الهمة» كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها. وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان. فإن الآفات قواطع وجواذب، وهى لا تعلو إلى المكان العالى فتجتذب منه. وإنما تجتذب من المكان السافل. فعلو همة المرء: عنوان فلاحه، وسفول همته: عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: «صفاء القصد» وهو خلاصة من الشوائب التى تعوقه عن مقصوده. فصفاء القصد: تجريده لطلب المقصود له لا لغيره. فهاتان آفتان فى القصد. إحداهما : أن لايتجرد لمطلوبه. الثانية: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

ويراد به: خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى. بل يصير القصد مجرداً لمراده الدينى الأمرى.

وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى. بحيث يصير حظه هو نفس حق ربه عليه. ولا يخفي على البصير الصادق علو هذه المنزلة.

العلامة الثالثة «صحة السلوك» وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع والحجب. وهو إنما يصح بثلاثة أشياء.

أحدها أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوى المحمدى، لا على الجواد الوضعية، والرسوم الاصطلاحية. وإن زخرفوا لها القول، ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة. فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

الثانى: أن لايجيب على الطريق داعى البطالة والوقوف والدعة.

الثالث: أن يكون فى سلوكه ناظراً إلى المقصود. وقد تقدم بيان ذلك.

فبهذه الثلاثة يصح السلوك. والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحداً لواحد، فى طريق واحد. فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه، ولا يتلون مطلوبه، بل يسعى إلى تخليص قصده من العلائق والعوائق، التماساً للحقائق ، فيغيب عن عاداته، ليقطع بذلك العلائق، وهى ما يتعلق بقلبه وقالبه

وحسه من المألوفات. ويسبق العوائق، حتى لا تلحقه ولا تدركه.

وهذه الغيبة إنما تكون لالتماس الحقائق. فإن «العوائق» و«العلائق» تحول بينه وبين طلبها وحصولها لمضادتها لها.

و«الحقائق» جمع حقيقة، ويراد بها: الحق تعالى وما نسب إليه. فهو الحق، وقوله الحق، ووعده الحق، ولقاؤه حق، ورسوله حق، وعبوديته وحده حق، وعبودية ما سواه الباطل. فكل شئ ما خلا الله باطل.

والمقصود: أن المريد إن لم يتخلص قصده في مطلوبه عما يعوقه من الشواغل، أو ما يدركه من المعوقات: لم يبلغ مقصوده. ولم يصل إليه، وإن وصل إليه فبعد جهد شديد ومشقة، بسبب تلك الشواغل. ولم يصل القوم إلى مطلبهم إلا بقطع العلائق، ورفض الشواغل.

وصحة السلوك لا تميت الطبيعة والنفس بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم. بل قهرا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة. والمقهور المغلوب لابد أن يتحرك أحياناً- وإن قَلّت- ولكن حركة أسير مقهور، بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط.

فمن تمام إحسان الرب إلي عبده، وتعريفه قدر نعمته: أن أراه النفس التي كانت حاكما عليه، قاهراً له: مقهورة مغلوبة، فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه، ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

وأيضاً فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله، كما قيل: إن ركنت إلى العلم أنسيناكه. وإن ركنت إلى المعرفة حجبناها عنك. وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه فلا يركن العبد إلى شئ سوى الله ألبتة. ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم، وأنه قد فتح له الباب مكراً. فليحذر ولوجه.

واعلم أن كل ما منك حجاب على مطلوبك. فإن وقفت معه فأنت دون الحجاب. وإن قطعته إلي تجريد المطلوب صرت فوق الحجاب. فطلبك وإرادتك وتوكلك، وحالك وعملك: كله حجاب. إن وقفت معه، أو ركنت إليه. وإن جاوزته إلى الذى أنت به وله، وفي يديه، وتحت تصرفه ومشيئته، وليس لك ذرة واحدة إلا به ومنه، ولم تقف مع طلبك في إرادتك: فقد صرت فوق حجاب الطلب.

ومن أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذاباً من الجحيم، قال تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦** ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فالعارف قلبه غير محجوب، بل يعيش في نور ظفره بإقبال قلبه على الله عز وجل، وجمع همه عليه، وفنائه

بمراده عن مراد نفسه. فصاروا واجداً لما أكثر الخلق فاقدا له. قد لبس قلبه نور ذلك الوجود، حتى فاض على لسانه وجوارحه، وحركاته وسكناته. فإن نطق علاه النور وإن سكت علاه النور.

والحجب عشرة: حجاب التعطيل، ونفى حقائق الأسماء والصفات، وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه البتة، إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية، كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة علي اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها فى قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضارها ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين ، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى، تحول بينه وبين هذا الشأن، وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هناك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حار بهم وخلص العمل إلى قلبه

دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لايستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيداً في إيمانه ويقينه وعقله. وحمل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لايفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه، ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

هذا كله إذا وجد العمل منفذاً من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى. وإن دار فيه ولم يجد منفذاً وثبت عليه النفس، فأخذته وصيرته جنداً لها. فصالت به وعَلَتْ وطغت، فتراه أزهد ما يكون، وأعبد ما يكون، وأشده اجتهاداً، وهو أبعد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبائر أقرب قلوباً إلى الله منه، وأدنى منه إلي الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السُجَّاد العباد. الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود، ذى الخويصرة التميمي الخارجي، كيف أورثه طغيان عمله أن أنكر على النبي ﷺ، وأورث أصحابه احتقار المسلمين، حتى سلوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى الشريب السكير، الذى كان كثيراً ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فيحده على الشراب، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه، ومحبته لله ورسوله، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته، وهو عياض بن حمار رضي الله عنه.

فظهر بهذا: أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات.

وأما الصفات الثلاث السلبية للطبقة الأولى من أصحاب السر، فأولها: سبقهم السائرين، بحيث لم يوقف لهم على رسم، فإنهم- لعلو هممهم- قد سبقوا الناس فلم يقفوا معهم، فهم المفردون السابقون. فلسبقهم لم يوقف لهم علي أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخر عنهم أين سلكوا؟ والمشمر بعدهم: قد يرى آثار نيرانهم على بعد عظيم، كما يري الكوكب، ويستخبر ممن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

أسائل عنكم كل غاد ورائح وأومى إلى أوطانكم ، وأسلم

العلامة الثانية: إنهم لم ينسبوا إلى اسم، أى لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التى صارت أعلاما لأهل الطريق.

وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، ويجرى عليهم اسمه. فيعرفون به دون غيره من الأعمال. فإن هذا آفة فى العبودية. وهى عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة فلا يعرف صاحبها باسم معين من معانى أسمائها. فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها. فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم. فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزى، ولا طريق وضعى اصطلاحى. بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الأتباع. وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الأنعام: ٥٢] وعن رباطه؟ قال: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

والعلامة الثالثة: أنهم- لخفائهم عن الناس- لم يُعرفوا بينهم، حتى يشيروا إليهم بالأصابع. أولئك ذخائر الله حيث كانوا، إذ إنهم لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أو مذهب، أو شيخ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات. فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها. ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هي التى قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله. وهم- إلا الواحد بعد الواحد- المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال :مالا اسم له سوى «السنة».

يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم يُنسبون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره. أو بالجلوس فى مكان لايجلس فى غيره، أو مشية لايمشى غيرها، أو بزى وهيئة لايخرج عنهما، أو عبادة معينة لايتعبد بغيرها. وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لايلتفت إلى غيره. وإن كان أقرب إلي الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه. قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والاصلاحات عن تجريد المتابعة. فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل. فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة، وتفريغ القلب. ويعد العلم قاطعاً له عن الطريق. فإذا ذكر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر عُدَّ ذلك فضولا وشراً. وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك أخرجوه من بينهم. وعدوه غَيْراً عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله. وإن كانوا أكثر إشارة. والله أعلم.

أصحاب السر الأعمق

الطبقة الثانية: طائفة أشاروا عن منزل، وهم فى غيره. وورّوا بأمر، وهم لغيره. ونادوا على شأن وهم على غيره. فهم بين غيرة عليهم تسترهم. وأدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

أهل هذه الطبقة استسروا اختياراً وإرادة لذلك، صيانة لأحوالهم، وكمالا في تمكنهم. فمقاماتهم عالية، لا ترمقها العيون، ولا تخالطها الظنون. يشيرون إلى ما يعرفه المخاطب من مقامات المريدين السالكين، وبدايات السلوك، ويخفون ما مكنهم فيه الحق سبحانه وتعالى،من أحوال المحبة ومواجيدها، واثار المعرفة وتوحيدها. فهذه هى «التورية».

فكأنهم يظهرون للمخاطب : أنهم من أهل البدايات. وهم فى أعلى المقامات. يتكلمون معهم في البداية والإرادة والسلوك، ومقامهم فوق ذلك. وهم محققون فى الحالتين. لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم، يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهم، فينكرون عليهم. فيحسبهم المخاطب مثله. فالناس عندهم، وليسوا هم عند أحد. يشيرون إلى منزل «التوبة» و«المحاسبة» ، وهم في منزل «المحبة» و«الوجد» و«الذوق».

والتورية: أن يذكر لفظاً يفهم به المخاطب معني، وهو يريد غيره. مثاله: أن يقول أحدهم: أنا غنى. فيوهم المخاطب له أنه غنى بالشئ. ومراده: غنى بالله عنه. كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم   وإن الغنى العالى عن الشئ لا به

فهم بين غَيْرة عليهم تسترهم، أى يغار الحق سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق، ويغارون على أحوالهم ومقاماتهم. فيسترون أحوالهم عن رؤية الخلق لها. وين أدب فيهم يصونهم، وظرف يهذبهم.

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن ظن السوء بهم، ويصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال. فادبهم صوان على أحوالهم، فهمته العلية ترتفع به. وأدبه يرسو به إلى التراب. كما قيل:

أبْلَجُ سهل الأخلاق ممتنع   يُبرزه الدهر وهو يحتجب

إذا تَرَقَّت بـــه عزائمـــه   إلي الثريـــا رسا به الأدب

فادب المريد والسالك: صوان له وتاج على رأسه.

و«الظرف» فى هذه الطائفة: أحلى من كل حلو. وأزين من كل زين. فما قرن شئ إلى شئ أحسن من ظرف إلى صدق وإخلاص، وسر مع الله وجمعية عليه. فإن أكثر من عنى بهذا الشأن

تضيق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده. فتثقل وطأته على أهله وجليسه. ويضن عليه ببشره، والتبسط إليه، ولين الجانب له. ولعمر الله إنه لمعذور، وإن لم يكن فى ذلك بمشكور، فإن الخلق كلهم أغيار. إلا من أعانك على شأنك، وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكن العبد فى حاله، وصار له إقبال على الله، وجمعية عليه- ملكة ومقاماً راسخاً- أنس بالخلق وأنسوا به. وانبسط إليهم وحملهم على ضلعهم وبطء سيرهم. فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه. فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ فى الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف فى القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر. ويسهل له ما توعَّر على غيره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء. وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة، ولطافة وظرفاً. فترى الصادق فيها: من أحلى الناس، وألطفهم وأظرفهم. قد زالت عنه ثقالة النفس، وكدورة الطبع، وصار روحانياً سمائياً، بعد أن كان حيوانياً أرضياً. فتراه أكرم الناس عشرة،وألينهم عريكة، وألطفهم قلباً وروحاً. وهذه خاصة المحبة. فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: أن لا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام. ولا يواجهه إذا لقيه بالحال. بل بلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه. فيفرش له بساط الأنس. ويجلسه عليه. فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة.

وبالجملة: فهذه الطريق لا تنافى اللطف والظرف.

لكن ههنا دقيقة قاطعة، وهى الاسترسال مع هذه الأمور. فإنها أقطع شئ للمريد والسالك. فمن استرسل معها قطعته، ومن عاداها بالكلية وعرت عليه طريق سلوكه. ومن استعان بها أراحته فى طريقه. أو أراحت غيره به. وبالله التوفيق.

(٥٨) منزلة الغُربة

ومن منازل « إياك نعبد » منزلة « الغربة »

قال شيخ الإسلام: (باب الغربة) قال الله تعالى: **﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾** [هود: ١١٦].

استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب: يدل على رسوخه فى العلم والمعرفة، وفهم القرآن. فإن الغرباء فى العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة فى الآية. وهم الذين أشار إليهم النبى ﷺ فى قوله: **«بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»** وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن زهير عن عمرو بن أبى عمرو- مولى المطلب بن حنطب- عن المطلب بن حنطب عن النبى ﷺ قال: **«طوبى للغرباء. قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس»**.

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً- لم ينقلب على الراوى لفظه وهو « الذين ينقصون إذا زاد الناس »- فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص الناس من ذلك الله أعلم.

وفى حديث الأعمش عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **« إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: النُزَّاع من القبائل»** وفى حديث عبد الله بن عمرو قال: قال النبى ﷺ ذات يوم، ونحن عنده- **«طوبى للغرباء. قيل :ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل فى ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»**.

وقال أحمد : حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: **«إن أحب شئ إلي الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة»**.

وفى حديث آخر **«بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتى. ويعلمونها الناس»**.

وقال نافع عن مالك « دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبى ﷺ، وهو يبكى. فقال له عمر: ما يبكيك، يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثا حدثنيه حبيبى ﷺ وأنا فى هذا المسجد. فقال: ماهو؟ قال: **«إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة»**.

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم فى الناس جداً: سموا «غرباء» فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام فى الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم فى المؤمنين غرباء، وأهل السنة- الذين يميزونها من الأهواء والبدع- فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيه: **﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هى الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره ولكن من تنأَيْنَ عنه غريب

فالغربة: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذى جاء به: أنه «بدأ غريباً» وأنه «سيعود غريباً كما بدأ» وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا فى مكانهم. فيقال لهم «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذى كنا نعبده».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس. وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ **«رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له، لو أقسم علي الله لأبره»**.

وفي حديث أبى إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغبر، ذى طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»** وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس فى عزها، للناس حال، وله حال. الناس منه فى راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء- الذين غبطهم النبى ﷺ- التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى

رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس- بل كلهم- لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبى ﷺ «هم النُّزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصائبة وفلاسفة. وكان الإسلام فى أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم واستجاب ولرسوله غريباً في حيه وقبيلته. وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعا من القبائل، بل آحادا منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا فى الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقاً. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً، فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ فى الاغتراب والترحل، حتي عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق- الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه فى أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة فالإسلام الحقيقى غريب جداً. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولايقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم، وماهم عليه من الشبهات والبدع التى هي منتهي فضيلتهم وعملهم، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

فكيف لايكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت- إذا تمسك بدينه- أجر خمسين من الصحابة. ففى سنن أبى داود والترمذى- من حديث أبى ثعلبة الخشنى- قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[المائدة: ١٠٥] **فقال: بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين رجلا منكم**» وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه، وفقهاً فى سنة رسوله، وفهما فى كتابه،

وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وازدرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم، غريب فى تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع، غريب فى اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب فى صلاته، لسوء صلاتهم. غريب فى طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب فى نسبته، لمخالفة نسبهم. غريب فى معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على مالاتهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته. لايجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة الأهواء والبدع. آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

ثم إن الناس كلهم فى هذه الدار غرباء. فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هى الدار التى خلقوا لها. وقد قال النبى ﷺ لعبد الله بن عمر -رضى الله عنهما-: «**كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**» وهكذا هو فى نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولى من أبيات فى هذا المعنى:

وَحَيَّ على جنات عدن. فإنها ... منازلك الأولى. وفيها المخيَّم
ولكننا سَبْى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا، ونسلَّم؟
وأى اغتراب فوق غربتنا التى ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم؟
وقد زعموا: أن الغريب إذا نأى ... وشَطَّت به أوطانه. ليس ينعم
فمن أجل ذا لاينعم العبد ساعة ... من العمر، إلا بعد ما يتألم

وكيف لايكون العبد فى هذه الدار غريباً، وهو جناح سفر. لايحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر فى صورة قاعد. وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يَحُثُّ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شئ- لو تأملت- أنها ... منازل تطوى والمسافر قاعد

(٥٩) منزلة التمكن

ومن منازل إياك نعبد منزلة « التمكن »

قال صاحب المنازل:

« (باب التمكن) قال الله تعالى : ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

وجه استدلاله بالآية : في غاية الظهور . وهو أن المتمكن لايبالى بكثرة الشواغل . ولا بمخالفة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات . بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له . ولهذا قال تعالي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لايوقنون . ومتى ضعف صبره ويقينه- أو كلاهما- استفزه هؤلاء . واستخفه هؤلاء . فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه . فكلما ضعف ذلك منه قوى جذبهم له . وكلما قوى صبره ويقينه قوى انجذابه منهم وجذبه لهم .

و« التمكن » هو القدرة على التصرف في الفعل والترك . ويسمى « مكانة » أيضاً، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وهو فوق « الطمأنينة » لأنها تكون مع نوع من المنازعة . فيطمئن القلب إلى ما يسكنه . وقد يتمكن فيه وقد لايتمكن . ولذلك كان « التمكن » هو غاية الاستقرار . وهو تفعل من المكان . فكأنه قد صار مقامه مكاناً لقلبه قد تبوأه منزلا ومستقراً، وصار معتصماً به، كما قال الله تعالى :﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٦] وقال: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم . فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام . فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملا، وإخلاصاً واستعانة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة . وتلك هي حقيقة التمكن .

إخلاص .. فى الطريق الواسع

فمن التمكن: تمكن المريد، وهو أن يجتمع له صحة قصد يُسَيِّره، وبسعة الطريق: يهون عليه السير، وكل طالب أمر من الأمور فلابد له من تَعَيُّن مطلوبه. وهو المقصود. ومعرفة الطريق الموصلة إليه، والأخذ فى السلوك. فمتى فاته واحد من هذه الثلاث: لم يصح طلبه ولا سيره، فالأمر دائر بين مطلوب يتعين إيثاره على غيره، وطلب يقوم بقصد من يقصده، وطريق توصل إليه.

فإذا تحقق العبد بطلب ربه وحده: تعين مطلوبه. فإذا بذل جهده فى طلبه: صح له طلبه. فإذا تحقق باتباع أوامره، واجتناب نواهيه: صح له طريقه. وصحة القصد والطريق موقوفة على صحة المطلوب وتعينه.

فحكم القصد يتلقى من حكم المقصود. فمتي كان المقصود أهلا للإيثار: كان القصد المتعلق به كذلك. فالقصد والطريق تابعان للمقصود.

وتمام العبودية: أن يوافق الرسول ﷺ فى مقصوده وقصده وطريقه. فمقصوده: الله وحده. وقصده: تنفيذ أوامره فى نفسه وفى خلقه. وطريقه: اتباع ما أُوحى إليه. فصحبه الصحابة رضى الله عنهم على ذلك حتى لحقوا به. ثم جاء التابعون لهم بإحسان، فمضوا على آثارهم.

ثم تفرقت الطرق بالناس، فخيار الناس من وافقه فى المقصود والطريق. وأبعدهم عن الله ورسوله من خالفه فى المقصود. وهم أهل الشرك بالمعبود والبدعة فى العبادة. ومنهم من وافقه فى المقصود، وخالفه فى الطريق. ومنهم من وافقه فى الطريق وخالفه فى المقصود.

فمن كان مراده الله، والدار الآخرة: فقد وافقه فى المقصود. فإن عبد الله بما أمر على لسان رسوله ﷺ: فقد وافقه فى الطريق. وإن عبده بغير ذلك: فقد خالفه فى الطريق.

ومن كان مقصوده- من أهل العلم، والعبادة، والزهد فى الدنيا- الرياسة، فقد خالفه فى المقصود، وإن تقيد بالأمر.

فإن لم يتقيد به، فقد خالفه فى المقصود والطريق.

أما سعة الطريق ، فبأمرين:

بسعتها حتى لا تضيق عليه، فيعجز عن سلوكها، وباستقامتها حتى لايزيغ عنها إلى غيرها، فإن طريق الحق واسعة مستقيمة، وطريق الباطل ضيقة معوجة.

ومنه: تَمَكُّن السالك، وهو أن يجتمع له صحة القطاع وبرق كشف، وضياء حال.

وهذه الدرجة أتم مما قبلها. فإن تلك تمكن فى تصحيح قصد الأعمال. وهذه تمكن فى حال التمكن. والتمكن فى الحال أبلغ من التمكن فى القصد.

والمراد بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار، والشواغل الموجبة للأكدار.

ومع ذلك فحاله مع الله صاف من معارضات السوى، فلا يعارض همته إرادة، بل متمكن فى انقطاعه، ولحاله نور وضياء.

وسبب هذا الضياء: أنه قد فاض على قلبه نور اليقين بالأسماء والصفات. فصار لقلبه من معرفتها والإيمان بها، وذوق حلاوة ذلك: نور خاص، غير مجرد نور العبادة، والإرادة والسلوك.

وإذا بلغ العبد فى مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، ونعوت الجلال. وأحست روحه بالقرب الخاص الذى ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه. فإنه حجابه هو نفسه. وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته: أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب. فصار يعبده كأنه يراه.

والله سبحانه جعل شهود الأسماء والصفات طريقاً لهذه المعرفة، ومن شاهد الصفة فلابد أن يشاهد متعلقاتها. فإن النظر فى متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها.

فمن شاهد صفة الكلام مثلاً: زادته تعظيماً لله تعالى ولابد، إذ لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله، لفنيت البحار، ونفدت الأقلام، وكلام الله عز وجل لاينفد ولا يفنى.

فمن شاهد الصفات الأخرى بمثل هذه المشاهدة، من العلم، والقدرة، ونحوها، وجال قلبه فى عظمتها ازداد معرفة وتعظيماً، وزاد نور قلبه، وضياء روحه.

فكلما كان بصفات الله أعرف، ولها أثبت، ومعارض الإثبات منتفٍ عنده- كان أكمل شهوداً. ولهذا أكمل الخلق شهوداً من قال: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولكمال معرفته بالأسماء والصفات استدل بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه.

فمشهد الصفات: مشهد الرسل والأنبياء، وورثتهم، وكل من كان بها أعرف كان بالله أعلم. وكان مشهده بحسب ما عرف منها، فإن التائب الصادق فى توبته إذا تاب إليه: وجده غفوراً

رحيما. والمتوكل إذا صدق فى التوكل عليه: وجده حسيباً كافيا. والداعى إذا صدق في الرغبة إليه: وجده قريباً مجيباً. والمحب إذا صدق في محبته: وجده ودوداً حبيباً. والملهوف إذا صدق فى الاستغاثة به: وجده كاشفا للكرب مخلصاً منه. والمضطر إذا صدق فى الاضطرار إليه: وجده رحيماً مغيثاً. والخائف إذا صدق فى اللجإ إليه: وجده مؤمناً من الخوف. والراجي إذا صدق في الرجاء: وجده عند ظنه به.

فمحبه وطالبه ومريده الذى لا يبغى به بدلا، ولا يرضى بسواه عوضاً، إذا صدق فى محبته وإرادته: وجده أيضاً وجوداً أخص من تلك الوجودات. فإنه إذا كان المريد منه يجده، فكيف بمريده ومحبه؟ فيظفر هذا الواجد بنفسه وبربه.

أما ظفره بنفسه: فتصير منقادة له، مطيعة له، تابعة لمرضاته غير آبية، ولا أمارة. بل تصير خادمة له مملوكة، بعد أن كانت مخدومة مالكة.

وأما ظفره بربه: فقربه منه، وأنسه به، وعمارة سره به. وفرحه وسروره به أعظم فرح وسرور.

فالموحد يشاهد- بإيمانه ويقينه- ذاتاً جامعة للأسماء الحسنى، والصفات العلى، لها كل صفة كمال، وكل اسم حسن، وذلك يجذبه إلى نفس اجتماع همه على الله، وعلى القيام بفرائضه.

والطريق - بمجموعها- لا تخرج عن هذين السببين، وإن طولوا العبارات، ودققوا الإشارات. فالأمر كله دائر على جمع الهمة على الله، واستفراغ الوسع بغاية النصيحة فى التقرب إليه بالنوافل، بعد تكميل الفرائض. فلا تُطوِّل ولا يُطوَّل عليك.

(٦٠) منزلة المعاينة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « المعاينة »

والمعاينة نوعان : معاينة بصر، ومعاينة بصيرة. فمعاينة البصر: وقوعه على نفس المرئى، أو مثاله الخارجي، كرؤية مثال الصورة فى المرآة والماء. ومعاينة البصيرة: وقوع القوة العاقلة علي المثال العلمى المطابق للخارجى. فيكون إدراكه له بمنزلة إدراك العين للصورة الخارجية. وقد يقوى سلطان هذا الإدراك الباطن، بحيث يصير الحكم له، ويقوى استحضار القوة العاقلة لمداركها، بحيث يستغرق فيه. فيغلب حكم القلب على حكم الحس والمشاهدة. فيستولى على السمع والبصر. بحيث يراه، ويسمع خطابه في الخارج. وهو في النفس والذهن. لكن لغلبة الشهود، وقوة الاستحضار، وتمكن حكم القلب واستيلائه على القوى: صار كأنه مرئى بالعين، مسموع بالأذن. بحيث لايشك المدرك ولايرتاب فى ذلك ألبتة. ولا يقبل عذلا.

وحقيقة الأمر: أن ذلك كله شواهد وأمثلة علمية، تابعة للمعتقد، فذلك الذى أدرك بعين القلب والروح إنما هو شاهد دال على الحقيقة. وليس هو نفس الحقيقة. فإن شاهد نور جلال الذات فى قلب العبد ليس هو نفس نور الذات الذى لا تقوم له السموات والأرض. فإنه لو ظهر لها لتدكدكت، ولأصابها ما أصاب الجبل. وكذلك شاهدُ نور العظمة فى القلب إنما هو نور التعظيم والإجلال، لا نور نفس المعظم ذى الجلال والإكرام.

وليس مع القوم إلا الشواهد، والأمثلة العلمية، والرقائق التى هى ثمرة قرب القلب من الرب، وأنسه به، واستغراقه فى محبته وذكره، واستيلاء سلطان معرفته عليه. والرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله. منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته. أو صفاته، أو أنوار صفاته، وإنما هى الشواهد التى تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من الجنة والنار، وأما رؤيته سبحانه عيانا، أو رؤيتهما، فمستحيل فى هذه الدار الدنيا.

وهذا هو الذى وجده عبد الله بن حرام الأنصارى يوم أحد، لما قال: « واها لريح الجنة! إنى أجد والله ريحها دون أحد » ومن هذا قوله ﷺ : **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»** ومن هذا قوله ﷺ **«الجنة تحت ظلال السيوف»**.

فالعمل: إنما هو على الشواهد. وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه، إشارة يعلم بها حقيقة الأمر.

فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة: أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها،

وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها. ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، وإذاقتهم أمر الشراب: أضحكتهم قليلا، وأبكتهم طويلا. سقتهم كئوس سمها، بعد كئوس خمرها، فسكروا بحبها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها: ترحل قلبه عنها. وسافر فى طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وإنها هى الحيوان حقاً. فأهلها لا يرتحلون منها. ولا يظعنون عنها. بل هى دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير. وأن الدنيا بالنسبة إليها- كما قال النبى ﷺ- «**ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟**» وقال بعض التابعين: ما الدنيا في الآخرة إلا أقل من ذرة واحدة في جبال الدنيا.

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبُعْد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها. فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون، والسلاسل والأغلال فى أعناقهم. فلما انتهوا إليها فُتحت في وجوهم أبوابها. فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفا: ﴿ **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا** ﴾ [الكهف: ٥٣].

ثم أتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿ **هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ [الطور: ١٤ - ١٦] فيراهم وهم إليها يدفعون فى الحميم، على وجوههم يسحبون. وفي النار كالحطب يسجرون: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤١] فبئس اللحاق وبئس الفراش. وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿ **يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** ﴾ [الكهف: ٢٩] فإذا شربوه قطع أمعاءهم فى أجوافهم، وصهر ما فى بطونهم. شرابهم الحميم وطعامهم الزقوم ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾** ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: انخلع من الذنوب والمعاصى، واتباع الشهوات. ولبس ثياب الخوف والحذر. وأخصب قلبه من مطر أجفانه. وهان عليه كل مصيبة تصيبه فى غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصى والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات، والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها. فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها. تربتها المسك، وحَصْباؤها الدُّرُّ،

وبناؤها لَبِن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن فى هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس. ولباسهم الحرير من السندس والاستبرق. وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور. وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة. وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون. وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون. وأزواجهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون. فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون. وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله: فهناك يسير القلب إلي ربه أسرع من سير الرياح فى مهابها، فلا يلتفت فى طريقه يميناً ولا شمالاً.

هذا، وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها. وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيوماً فوق عباده، مستوياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، آمرا ناهياً، مرسلا رسله، ومنزلا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطى ويمنع، ويعز ويذل. ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استُغفر، ويعطى إذا سئل، ويجيب إذا دُعى، ويقبل إذا استقبل. أكبر من كل شئ. وأعظم من كل شئ وأعز من كل شئ. وأقدر من كل شئ. وأعلم من كل شئ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل. ولايتبرم بإلحاح الملحين. سواء عنده من أسر القول ومن جهر به. فالسر عنده علانية. والغيب عنده شهادة. يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء. ويرى نياط عروقها، ومجارى القوت فى أعضائها.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة، من غير أن تعدم. بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد. وتندرج فيه الشواهد كلها. ومن هذا شاهده: فله سلوك وسير خاص. ليس لغيره ممن هو عن هذا فى غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد: سائر إلى الله فى يقظته ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن. هو في واد والناس في واد.

والمقصود: أن العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلة العلمية. وهو المثل الأعلى الذى ذكره سبحانه فى ثلاثة مواضع من كتابه: فى سورة النحل وسورة الروم وسورة الشوري.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]

وقوله: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]

وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

وهذا المثل الأعلى هو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبيه، والمنيبين إليه من هذا الشاهد وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة والخشية والإنابة. وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه. فكل منهم له مقام معلوم لا يتعداه. وأعظم الناس حظاً فى ذلك معترف بأنه لايحصى ثناء عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثنى عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مِدْحه ... وإن أطنبوا، إن الذى فيك أعظم

لك الحمد كل الحمد لا مبدا له ... ولا منتهى والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السفلية، وخلوه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه: هو كرسى هذا الشاهد، الذى يجلس عليه، ومقعده الذى يتمكن فيه. فحرام على قلب متلوث بالخبائث والأخلاق الرديئة والصفات الذميمة، متعلق بالمرادات السافلة: أن يقوم به هذا الشاهد، وأن يكون من أهله.

نزه فؤادك عن سوانا وائتنا ... فجنابنا حلٌ لكل مُنَزِّه

والصبر طِلَسم لكنز لقائنا ... من حَلَّ ذا الطلسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التوحيد، وباشرت جوانبها الأرواح. ونورها البصائر، تجلت بها ظلمات النفس والطبع. وتحركت بها الأرواح فى طلب من ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. فسافر القلب فى بيداء الأمر. ونزل منازل العبودية، منزلاً منزلاً. فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله. ليس لأحد معه من الأمر شئ: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ ﴾ [فاطر: ٢، ٣] ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا

تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية: رأى فى ذلك الشاهد الأمر والنهى، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا والكراهة والبغض، والثواب والعقاب. وشاهد الأمر نازلا ممن هو مستو على عرشه، وأعمال العباد صاعدة إليه، ومعروضة عليه. يجزى بالإحسان منها في هذه الدار وفي العقبى نضرة وسروراً، ويقدم إلى مالم يكن عن أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثوراً.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة: رأى الوجود كله قائماً بهذه الصفة. قد وسع من هى صفته كل شئ رحمة وعلماً. وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه. فاستوى على عرشه برحمته. لتسع كل شئ، كما وسع عرشه كل شئ.

وإن قام بقلبه شاهد العزة والكبرياء، والعظمة والجبروت فله شأن آخر.

وهكذا جميع شواهد الصفات. فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها. فالكشف والعيان والمشاهدة لا تتجاوز الشواهد البتة.

(٦١) منزلة الحياة

قال صاحب المنازل:

« (باب الحياة) قال الله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب ظاهر جداً. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدي والإيمان. فأحياه الرب تعالى بروح أخري، غير الروح التى أحيا بها بدنه. وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. وإلا فهى فى جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدم ذلك بالموت، فقال: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [النمل: ٨٠] وسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالي: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى:٥٢] فأخبر: أنه « روح » تحصل به الحياة، وأنه « نور » تحصل به الإضاءة. وقال تعالى: ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ** ﴾ [النحل: ٢] وقال تعالى: ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ** ﴾ [غافر: ١٥] فالوحى حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة فى الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧] وقد فسرت « الحياة الطيبة » بالقناعة والرضا والرزق الحسن وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفى عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهى عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون فى الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

والمعيشة الضنك أيضاً تكون فى الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار فى الجحيم هنا وهنالك، والفجار فى الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ** ﴾ [النحل: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ [هود: ٣] فذكر الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة فى الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة.

ارتواء العلماء

والحياة مراتب:

منها: حياة العلم من موت الجهل، فإن الجهل موت لأصحابه، كما قيل:

وفى الجهل – قبل الموت – موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم فليس لهم حتى النشور نشور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض. قال الله تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)** ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ** ﴾ [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [فاطر: ٢٢] وشبههم – في موت قلوبهم – بأهل القبور. فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبوراً لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة، وملزومها. فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له، كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه: «يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك. فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيى الأرض بوابل القطر» وقال معاذ بن جبل: «تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة. وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم فى الخير قادة، وأئمة تُقتص آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خُلَّتهم، بأجنحتها

تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام. وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل، والعمل تابع له. يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» رواه الطبرانى وابن عبد البر وغيرهما. وقد روى مرفوعاً إلي النبى ﷺ. والوقف أصح.

الهمم نابضات

ومنها: حياة الإرادة والهمة. وضعف الإرادة، والطلب: من ضعف حياة القلب. وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التى تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعف الطلب وفتور الهمة: إما من تقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة. فقوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفها دليل على ضعفها. وكما أن علو الهمة وصدق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأخس الناس حياة أخسهم همة. وأضعفهم محبة وطلبا، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والرَّدَى لك لازم
وتكدح فيما سوف تنكر غِبَّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمنَى ... كما غُرَّ باللذات- فى النوم- حالم

والمقصود أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هو حى القلب. وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك، وأحبار سوء ورهبانها؟
وباعوا النفوس، ولم يربحوا ... ولم يغْلُ في البيع أثمانها
فقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذى اللب خسرانها

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب. فحياة القلب: بدوام الذكر، والإنابة إلي الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب. والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن

قريب يضعف هذه الحياة. ولايزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته: أنه لايعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً. كما قال عبد الله بن مسعود «أتدرون من ميت القلب، الذى قيل فيه:

ليس من مات فاستراح بميت　　إنما الميت ميت الأحـــــياء

قالوا: ومن هو؟ قال: الذى لايعرف معروفاً ولا ينكر منكراً».

والرجل: هو الذى يخاف صوت قلبه، لا موت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية. وذلك من موت القلب والروح. فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذى يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالاً. كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لو أن الحياة الدنيا- من أولها إلي آخرها- أوتيها رجل واحد. ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى فى منامه ما يسره، ثم استيقظ، فإذا ليس فى يده شئ» وقد قيل: «إن الموت موتان: موت إرادى، وموت طبيعى. فمن أمات نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعى حياة له» ومعنى هذا: أن الموت الإرادى: هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة. فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذ: إما أن يكون أسيراً ذليلاً، أو مهزوماً مُخْرَجاً عن وطنه ومستقره الذى لا قرار له إلا فيه، أو قتيلاً ميتاً وما لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعى كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التى حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادى فى هذه الدار.

وهذا موضع لايفهمه إلا ألباء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية.

الحياء حركة

ومن مراتب الحياة:

حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التى هى حياة راسخة للموصوف بها. فهو لايتكلف الترقى فى درجات الكمال، ولا يشق عليه. لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء، والمروءة والصدق والوفاء ونحوها: أتم من حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة

من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها. وذلك بمنزلة من قد عوفى من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خلق «الحياء» مشتقاً من «الحياة» اسماً وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء. ونقصان حياء المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح، فلا تستحى منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخى أكمل من حياة البخيل. وحياة الفطن الذكى أكمل من حياة الفدم البليد. ولهذا لما كان الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم- كانوا أكمل الناس فى هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة حلاف مهين هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم. وحياة جواد شجاع، بر عادل عفيف محسن- تجد الأول ميتاً بالنسبة إلى الثانى.

و«البسط» من أجلّ هذه الأخلاق، وأقواها فى صفة الحياة، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب. وهى سعة الصدر، ودوام البشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً. وإجابة الدعوة ولين الجانب. حتى يظن كل واحد من أصحابه: أنه أحبهم إليه. وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً، أو مستحباً أو مباحاً يعين عليهما.

ومن العباد من وفقه الله تعالى فنال حظاً من هذا البسط النبوى الكريم وجعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم. كما قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه، ليقتدى بهم السالك، ويهتدى بهم الحيران، ويشفى بهم العليل، ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم فى ظلمات دياجى الطبع والهوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله، وعلى أمر الله: جذبت قلوب الصادقين إليهم، فيهتدي بهم الحائر، ويسير بهم الواقف، ويستقيم بهم الحائد، ويقبل بهم المعرض، ويكمل بهم الناقص، ويرجع بهم الناكص، ويتقوي بهم الضعيف.

وهؤلاء هم خلفاء الرسل حقاً، وهم أولو البصر واليقين، فجمعوا بين البصيرة والبصر. قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤]، فنالوا إمامة الدين، بالصبر واليقين.

والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره، واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء. وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه. فبينه وبين الأول ما بينهما. وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره. فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم.

كل ذلك و« سرائرهم مصونة » مستورة لم يكشفوها لمن انبسطوا إليه. وإن كان البسط يقتضي الإلف، وإطلاع كل من المتباسطين على سر صاحبه. فإياك ثم إياك أن تطلع من باسطته على سرك مع الله، ولكن اجذبه وشوقه، واحفظ وديعة الله عندك، لاتعرضها للاسترجاع.

لذة الوصول تدعو إلى استئناف السير

ومن مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرة العين بالله. وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذى تقر به عين طالبه. فلا حياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم. وكلهم قد أخطأ طريقها. وسلك طرقاً لا تفضى إليها، بل تقطعه عنها، إلا أقل القليل.

فدار طلب الكل حول هذه الحياة. وحُرِمَها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة. فإن مادتها بصيرة وقادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبصر تكون عمى وعوراً وعمشاً ورمداً، وتامة النور والضياء وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة فى الأصل. وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هى أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَنْ عقله مسبى فى بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات ودينه مستهلك بالمعاصى والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!

فهو فى الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلي المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه فى كل واد هائم. فلو أنه تجرد من نفسه، ورغب عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذى نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوى بقوته وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله قذى فى عين بصيرته، وشجا في حلق إيمانه، ومرضاً مترامياً إلى هلاكه؟

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأصل إلى شئ من أذواقها. فقد بان لى أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا

فيها البهائم بخلوها عن المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة؟

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: لدليل على حياتك. وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها : أن تعرف الله، وتهتدى إليه طريقاً يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة. فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية. ويدأب فى تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة. ثم يقوم حارساً على قلبه. فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها. فيُفْدَى من أسرها. ويصير طليقاً فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه. ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه. إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيــوت، لعلنى أحدث عنك النفس فى السر خالياً

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه. فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه. فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحى عليه ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: فتُح عليه بفهم الوحى المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة، فيجتهد فى التخلص منها كما يجتهد فى الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد فى تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك: انفتح فى قلبه عين أخرى يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئى لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحى، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلا لكتبه، معبوداً مطاعاً، لا شريك له، ولا مثيل، ولا عدل له، ليس لأحد معه من الأمر شئ، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائماً بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض

ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال. وهى «الحياة» التى كمالها يستلزم كمال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالحى القيوم: من له كل صفة كمال. وهو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: فتح له مشهد «القرب» و«المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائنا من خلقه، قائماً بالصنع والتدبير، والخلق والأمر، فيحصل له- مع التعظيم والإجلال- الأنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن كان مستوحشاً. ويقوى به بعد أن كان ضعيفاً، ويفرح به بعد أن كان حزيناً. ويجد بعد أن كان فاقداً. فحينئذ يجد طعم قوله: **«ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به. وبصره الذى يبصر به. ويده التى يبطش بها. ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينه. ولئن استعاذنى لأعيذنه»**.

فاطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه. قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره. وعكوف همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكون المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر، ويبطش ويمشي بمحبوبه، وذاته غائبة عنه. فاضرب عنه صفحا، وخلٌ هذا الشأن لأهله.

خل الهوى لأناس يُعرفـــون به   قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

فإن السالك إلى ربه لاتزال همته عاكفة على أمرين: استفراغ القلب فى صدق الحب، وبذل الجهد فى امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتي يبدو على سره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحياناً، ويبدو أحياناً. يبدو من عين الجود. ويتوارى بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شِرَّة، ولكل شِرَّة فترة. فأعلاها فترة الوحى، وهى للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين، وفترة العمل للعابدين. وفى هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة، وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولاتزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفسياً عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفاً علي مزيد محبته، وأسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقي منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولايفارقه ألبتة. بل يندرج في هذا الطلب الثاني. فتتعلق همته بالأمرين جميعاً. فإنه إنما يحصل له منزلة «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» بهذا الأمر الثانى. وهو كونه محبوباً لحبيبه. كما قال في الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره إلخ» فهو يتقرب إلى ربه، حفظاً لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يَشُدُّ مِئزر الجد فى طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه. فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء. ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضى إلى هذه الغاية التى لاتنال إلا به. ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع فى سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع- أولا- فى التقربات بالأعمال الظاهرة. وهى ظاهر التقرب. ثم يترقى من ذلك إلي حال التقرب. وهو الانجذاب إلي حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه. ثم يترقى من ذلك إلي حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية. فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه ونفسه. وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالا، لا تكلفا، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط. فليدم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمر آخر أيضاً. وهو شئ لايعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى. حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى: **«من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً. ومن تقرب من ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتانى يمشى أتيته هرولة»** فيجد هذا المحب فى باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبه بها على ما دونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب

الذراع. فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعاً. فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني: أسرع المشي حينئذ إلى ربه. فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة. وههنا منتهي الحديث، منبها على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه. فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل فى الجزاء الذى لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. أو إحالة له على المراتب المتقدمة. فكأنه قيل له: وقس على هذا. فعلى قدر ما تبذل منك متقرباً إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه. وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور فى مراتبه. أى من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا مماسة، بل الرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا الموضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية. وهو معنى الوصول الذى يدندن حوله القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولا، ثم التقرب ثانياً، ثم حال القرب ثالثاً. وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلي حبيبه بشئ من الأشياء جوزى على ذلك بقرب هو أضعافه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته، بظاهره وباطنه، وبوجوده، إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله ولم تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه العُذّل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف ما تقرب به. فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعماله؟

وعلي هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضاً عن كل شئ، جزاءً وفاقاً. فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]

ومنها: قوله فى الحديث القدسى: «**من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه**».

ومنها: قوله «**من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً**» الحديث.

فالعبد لايزال رابحاً على ربه أفضل مما قدم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته، كحياة الجنين فى بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها. وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة. فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالا ملازماً لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هى حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به.

هذه حياة الفتى فإن فُقدت فقـــده للحـــياة أليـــق به

فلا عيش إلا عيش المحبين، الذى قرت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه. ففى القلب فاقة لايسدها إلا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يلم شعثه بغير ذلك ألبتة. ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه علي الدنيا حسرات. فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهينا خسيساً فعيشه كعيش أخس الحيوانات. فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول.

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـــب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفــه الفتى وحنينه أبـــــداً لأول منـــزل

بل إن المعرض الصاد يعاقبه الله تعالى بمثل هذه الهموم والحسرات، كما قال الله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ووجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد. فليحذر القريب من الإبعاد والمتصل من الانفصال. فإن الحق جل جلاله غيور لا يرضي ممن عرفه ووجده حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى- أن يكون له التفات إلى غيره ألبتة.

ومن غيرته سبحانه: حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. والله سبحانه يغار أشد الغيرة على

عبده أن يتلفت إلى سواه. فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته. ثم ساكن غيره باعده من قربه. وقطعه من وصله، وأوحش سره. وشتت قلبه. ونغص عيشه. وألبسه رداء الذل والصغار والهوان. فنادى عليه حاله، إن لم يصرح به قاله: هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلهه وفاطره، ومن لا حياة له إلا به: بغيره وآثر غيره عليه. فاتخذ سواه حبيباً، ورضي بغيره أنيساً، واتخذ سواه وليا. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** ﴾ [الكهف: ٥٠].

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ومُلئ من الهموم والغموم والأحزان، وبدل بالأنس وحشة، وبالعز ذلاً، وبالقناعة حرصاً، وبالقرب بعداً وطرداً، وبالجمع شتاتا وتفرقة- كان هذا بعض جزائه. فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات، وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وفود المسرات.

وإذا أردت أن تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال، فانظر أين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك؟ وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك؟

لا إله إلا الله ! ما أشد غبن من باع أطيب الحياة في هذا الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك، والنعيم المقيم بالحياة المنغصة المنكدة المتصلة بالعذاب الأليم. والمدة ساعة من نهار، أو عشية أو ضحاها، أو يوم أو بعض يوم. فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد.

الموت مرحلة وليس نهاية

ومن مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورائه روحاً وريحاناً وراحة. نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلي هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلي الخروج من السجن الضيق إلي أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة. قال الله تعالى في هذه الحياة ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)** ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

ويكفي فى طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذى المنكد، الذى تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلا عن مخالطته وعشرته، إلي الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، في جوار الرب الرحمن الرحيم.

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يُعبر منه إليها: لكفى به تحفة للمؤمن.

جزى الله عنا الموت خيراً. فإنه ... أبر بنا من كل بر وألطف

يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدنى إلى الدار التى هى أشرف

فالاجتهاد فى هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعى والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة: إنما هو لهذه الحياة. والعلوم والأعمال: وسيلة إليها. وهى يقظة. وما قبلها من الحياة نوم. وهى عين، وما قبلها أثر. وهى حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب. حيث الطمأنينة والراحة، والبهجة والسرور. حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها. لأنها فى بلد لا عهد لنا به. ولا إلف بيننا وبين ساكنه. فالنفس – لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمانا طويلا– تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد. وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

حصول العلم بهذه الحياة: إنما وصل إلينا بخبر إلهى، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ: فقامت شواهدها فى قلوب أهل الإيمان. حتى صارت لهم بمنزلة العيان. ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقاً إلى ذلك الملكوت، ووجدا بهذا السرور، وطربا على هذا الحد، واشتياقاً لهذا النسيم، الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخِصْب، والأمن والسرور: صبر فى طريقه على كل مشقة، وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادى إذا نادى به، حى على الفلاح. وبذل نفسه فى الوصول بَذْلَ المحب بالرضى والسماح، وواصل السير بالغدو والرواح. فحمد عند الوصول مسراه، وإنما يحمد المسافر السُّرَى عند الصباح.

عند الصباح يحمدُ القوم السرىٰ   وفي الممات يحمد القوم اللقا

وما هذا– والله– بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذى هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [يونس: ٤٥] ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾ [الروم: ٥٥] ﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)** ﴾ [المؤمنون: ١١٢– ١١٤].

فوا حسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى. وما ذاك إلا بتوفيق مَنْ أَزِمَةَ الأمور بيديه. ومنه ابتداء كل شئ وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلي هذه الدار، وجذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى. وأقامهم في الطريق، وسهل عليهم ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعُقدت الغبرة وثار العجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون. وسينجلى عن قريب، فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

ومن طيب هذه الحياة ولذتها: قال النبى ﷺ **«ما من نفس تموت- لها عند الله خير- يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى الرجوع إلي الدنيا، لما يرى من كرامة الله له»** يعنى ليقتل فيه مرة أخرى. وسمع بعض العارفين منشدا ينشد:

إنما العيـش فى بهيميـة اللـ ... ـذة، وهـو ما يقـوله الفلسفى

حكم كأس المنون: أن يتساوى ... في حسـاها البليـد والألمعى

ويصير الغبى تحت ثـرَى الأر ... ض كما صارت تحتها اللَّوْذعى

فَسَلِ الأرض عنهما إن أزال الشـ ... ـكَّ والشبهة السـؤال الجلى

فقال: قاتله الله، ما أشد معاندته للدين والعقل! هذا نفس عدو الفطرة، والشريعة، والعقل والإيمان والحكمة. يامسكين: أمن أجل أن الموت تساوي فيه الصالح والطالح، والعالم والجاهل، وصاروا جميعاً تحت أطباق الثرى: يجب أن يتساووا في العاقبة؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد فى الطريق؟ فلما بلغوا القصد نزل كل واحد فى مكان كان معدا له، وتلقى بغير ما تُلِقى به رفيقه فى الطريق. أما لكل قوم دار فأُجلس كل واحد منهم حيث يليق به؟ وقوبل هذا بشئ وهذا بضده؟ أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه، فأكرمه عليه، ومن جاءه بما يسخطه، فعاقبه عليه؟ أما قدم ركب المدينة، فنزل بعضهم فى قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة. ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة، فصار هذا إلى المُلك، وهذا إلى الأسر والعناء؟

وقولك «سل الأرض عنهما» أما إنا قد سألناها، فأخبرتنا: أنها قد ضمت أجسادهم وجثثهم وأوصالهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حلمهم وسفههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولايقينهم وشكهم، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم، ولا علمهم وجهلهم، فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة، وقالت: هذا خبر ما عندى.

وأما خبر تلك الأرواح، وما صارت إليه فسلوا عنها كتب رب العالمين، ورسله الصادقين، وخلفاءهم الوارثين. سلوا القرآن، فعنده الخبر اليقين. وسلوا من جاء به، فهو بذلك أعرف العارفين. وسلوا العلم والإيمان، فهما الشاهدان المقبولان. وسلوا العقول والفطر، فعندها حقيقة الخبر: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[الجاثية: ٢١] تعالى الله- أحكم الحاكمين- عن هذا الظن والحسبان، الذى لايليق إلا بأجهل الجاهلين.

ثم قال: الناظر في هذا الباب رجلان. رجل ينظر إلي الأشياء، ورجل ينظر في الأشياء. فالأول: يحار فيها. فإن صورها وأشكالها وتخاطيطها تستفرغ ذهنه وحسه، وتبدد فكره وقلبه. فنظره إليها بعين حسه، لايفيده منها ثمرة الاعتبار. ولا زبدة الاختبار. لأنه لما فقد الاعتبار أولاً، فإنه فقد الاختيار ثانيا.

وأما الناظر في الأشياء: فإن نظره يبعثه على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها. وما اقتضي وجودها من الحكمة البالغة، والعلم التام. فيفيده هذا النظر تمييز مراتبها، ومعرفة نافعها من ضارها، وصحيحها من سقيمها، وباقيها من فانيها، وقشرها من لُبِّها. ويميز بين الوسيلة والغاية، وبين وسيلة الشئ ووسيلة ضده. فيعرف حينئذ أن الدنيا قشر والآخرة لُبُّه وأن الدنيا محل الزرع، والآخرة وقت الحصاد. وأن الدنيا معبر وممر. والآخرة دار مستقر.

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر: كان حرًّيا بتهيئة الزاد لقراره، ويعلم حينئذ أنه لم ينشأ في هذه الدار للاستيطان والخلود. ولكن للجواز إلى مكان آخر، هو المنزل والمتبوأ. وأن الإنسان دعى إلى ذلك بكل شريعة، وعلى لسان كل نبي، وبكل إشارة ودليل. ونُصب له علي ذلك علم، وضرب لأجله كل مثل. ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه، وسائر أحواله، طعامه وشرابه، وأرضه وسمائه، بحيث أزيلت عنه الشبهة. وأوضحت له المحجة، وأقيمت عليه الحجة. وأعذر إليه غاية الإعذار، وأمهل أتم الإمهال. فاستبان لذى العقل الصحيح والفطرة السليمة أن الظعن عن هذا المكان ضرورى، والانتقال عنه حق لا مرية فيه. وأن له محلا آخر له قد أنشئ ولأجله قد خلق. وله هيئ. فمصيره إليه. وقدومه بلا ريب عليه. وأن داره هذه منزل عبور، لا منزل قرار.

وبالجملة: مَنْ نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص. وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[لقمان: ٣٣] وتنادى بلسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[الكهف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم ندبهم إلي المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها. فقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وسمع بعض العارفين منشداً ينشد عن بعض الزنادقة عند موته- وهو محمد بن زكريا الرازى المتطبب-:

لعمرى ما أدرى- وقد أذن البلى بعاجل ترحالى- إلى أين ترحالى؟

وأين محل الروح بعد خروجه عن الهيكل المنحل والجسد البالى؟

فقال: وما علينا من جهله. إذا لم يدر أين ترحاله؟ ولكننا ندرى إلى أين ترحالنا وترحاله. أما ترحاله: فإلى دار الأشقياء، ومحل المنكرين لقدرة الله وحكمته، والمكذبين بما اتفقت عليه كلمة المرسلين عن ربهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥] ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ⑩ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ⑫﴾ [السجدة: ١٠ - ١٢].

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون بلقاء ربهم، وكتبه ورسله: فإلى نعيم دائم، وخلود متصل، ومقام كريم، وجنة عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذى له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر. المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فانبت به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١] الذى يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه. ويكشف السوء ويفرج الكربات. ويقيل العثرات. الذى يهدى خلقه فى ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته. فيحيى الأرض بوابل القطر. الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق من في السماوات والأرض من خلقه وعبيده. الذى يملك السمع والأبصار والأفئدة. ويخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ﴿الَّذِي لَهُ

﴿ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة. الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وسبحت بحمده الأرض والسموات، وجميع الموجودات. الذى لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يدرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه، ولا يقع أمر إلا بإذنه، ولا يهتدي ضال إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أود إلا بتقويمه، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه، ولا يتخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يحفظ شئ إلا بكلاءته، ولا يفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يدرك مأمول إلا بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته. الذى وسع كل شئ رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فضلا وبراً.

فهو الإله الحق، والرب الحق والملك الحق، والمنفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثنون- وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء- ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك فهو كما أثنى على نفسه. هذا الجار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حسنها وبهاءها، وسعتها ونعيمها، وبهجتها وروحها وراحتها. فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين. فهى الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات، الخالية من جميع المنكدات والمنغصات، ريحانة تهتز، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة.

فترحالنا أيها- الصادقون المصدقون- إلي هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه.

وترحال الكاذبين إلى الدار التى أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله.

ولن يجمع الله بين الموحدين له- الطالبين لمرضاته، الساعين فى طاعته، الدائبين في خدمته، المجاهدين في سبيله- وبين الملحدين، الساعين فى مساخطه، الدائبين فى معصيته، المستفرغين جهدهم في أهوائهم وشهواتهم، في دار واحدة، إلاعلى سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما في هذه الدنيا. ويجمع بينهم في موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيئ الذى لايليق بكماله وحكمته.

وفى هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم فى هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة. فليس العمل على الطلل، إنما الشأن فى الساكن. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤] وإذا كان الشهداء

إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم. فما الظن بحياة الرسل فى البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة- التى هى يقظة من نوم الدنيا- أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلي هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

التمام هنالك، الوفاء ثَمَّ

ثم من مراتب الحياة:

الحياة الدائمة الباقية بعد طَيِّ هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها فى دار الحيوان. وهى الحياة التى شمر إليها المشمرون، وسابق إليها المتسابقون، ونافس فيها المتنافسون. وهى التى أجرينا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهى التى يقول من فاته الاستعداد لها﴿ **إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)** ﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٦] وهى التى قال الله عز وجل فيها﴿ **وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها. وكل ما تقدم- من وصف السير ومنازله، وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة- فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا، بالنسبة إليها، كما قال النبى ﷺ: «**ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع؟**».

وكما قيل: تنفست الآخرة. فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها. فهم على هذا النفس يعملون. وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح فى هذه الدار حياة طيبة. فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟ فما الظن بحياتهم فى دار النعيم المقيم الذى لايزول، وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بكرة وعشيا ويسمعون خطابه؟

فإن قلت: ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التى لا خطر لها، وما الذى زهدها فيها؟ وما سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة، التى هى كالخيال والمنام؟ إفساد فى تصورها

وشعورها؟ أم تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل، وعمى هناك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب في ذلك: ضعف الإيمان. فإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها. وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وبالجملة: فإذا قوى الإيمان قوى الشوق إلى هذه الحياة، واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جشوم الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحسن نياماً في الواقع. فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم إذا قويت فيه الحياة لاينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه. وكما أن يقظة الحس على نوعين، فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية. ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه.

والنوع الثاني: أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته. فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عوالي الأمور وسفاسفها. فيؤثر الأعلى على الأدنى. ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما. ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما. ويتحلي بمكارم الأخلاق ومعالي الشيم. فيكون ظاهره جميلاً، وباطنه أجمل من ظاهره. وسريرته خيراً من علانيته. فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما. فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.

أحدهما: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا خطر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مَثِّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإني لا أفهمه.

قتل: وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء. فيتقد الثاني ويضئ غاية الإضاءة، ويتصل ضوؤه، وينطفئ الأول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة: إنما ينتقل

من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين. فهو قنطرة لايعبر إلي تلك الدار إلا عليها، وباب لايدخل إليها إلا منه. فهما حياتان فى دارين بينهما موت؛ وكما أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان فى هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار. وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذى يقتبس منه ذلك النور والحياة، لاينقطع. بل يضئ للعبد فى البرزخ، وفى موقف القيامة، وعلى الصراط. فلا يفارقه إلى دار الحيوان؛ يطفأ نور الشمس وهذا النور لايطفأ. وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعى يقظة القلب.

النوع الثانى: يقظة تبعث على حياة، لاتدركها العبارة، ولا ينالها التوهم، ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه ألبتة. والذى يشار به إليها: حياة المحب مع حبيبه، الذى لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غني له عنه طرفة عين. ولا قرة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه إلا به. فهو أحوج إليه من سمعه وبصره وقوته. وعذاب حجابه عنه: أعظم من العذاب الآخر. كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب: أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين، فهكذا عذاب الحجاب: أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين فى قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين فى قوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

والمقصود: أن الغفلة هى نوم القلب عن طلب هذه الحياة، وهى حجاب عليه. فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لايفيد. فإن بادر إلي كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوب صغار تبعده عن الله. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدى عليه شيئاً. فإن بادر إلي كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله. والتكذيب بالحق الذى جاء به الرسول. فإن بادر إلي كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب، يقدح فى أصول الإيمان الخمس. وهى: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقاؤه. فلغلظ حجابه وكثافته، وظلمته وسواده لا يرى حقائق الإيمان. ويتمكن منه الشيطان، يعده ويمنيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهى. وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان، فأسره وسجنه، إن لم يهلكه. وتولي تدبير المملكة واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التى جرى عليها العمل. وأغلق باب اليقظة. وأقام عليها أبواب الغفلة.

وقال: إياك أن نؤتى من قبلك. وأتخذ حاجبا من الهوى، وقال: إياك أن تمكن أحداً يدخل عليّ إلا معك. فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلي البواب. فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره. فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزى والهوان. ولا نفرح بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلا الله ! إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط فى سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان–إن آثر العاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طى هذه الأكوان، فالله المستعان وعليه التكلان.

ولما كان كل حيوان متنفساً، فإن النفس موجب الحياة وعلامتها: كانت أنفاس الحياة خمسة أنفاس: نفس الخوف. ومصدره: مطالعة الوعيد، وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة. والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغى على الرشاد.

ونفس الرجاء. ومصدره: مطالعة الوعد، وحسن الظن بالرب تعالى. وما الله أعد لمن آثر الله ورسوله، والدار الآخرة، وحَكَّمَ الهدي على الهوى، والوحى على الآراء، والسنة على البدعة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه على عوائد الخلق.

ونفس بالمحبة. مصدره: مطالعة الأسماء والصفات، ومشاهدة النعماء والآلاء.

فإذا ذكر ذنوبه: تنفس الخوف. وإذا ذكر رحمة ربه، وسعة مغفرته وعفوه: تنفس بالرجاء وإذا ذكر جماله وجلاله وكماله وإحسانه وإنعامه: تنفس بالحب. فالنفس الصادر عن هذه الملاحظة والمطالعة: أشرف أنفاس العبد على الإطلاق. فأين نفس المشتاق المحب الصادق إلى نفس الخائف الراجى؟ ولكن لايحصل له هذا النفس إلا بتحصيل ذينك النفسين، فإن أحدهما ثمرة تركه للمخالفات. والثانى: ثمرة فعله للطاعات. فمن هذين النفسين يصل إلى النفس الثالث.

ثم نفس الاضطرار، وذلك لانقطاع أمله مما سوى الله. فيضطر حينئذ– بقلبه وروحه ونفسه وبدنه– إلي ربه ضرورة تامة. بحيث يجد في كل منبت شعرة منه فاقة تامة إلي ربه ومعبوده فهذا النفس نفس مضطر إلي مالا غنى له عنه طرفة عين. وضرورته إليه من جهة كونه ربه، وخالقه وفاطره وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه ومن جهة كونه: معبوده وإلهه، وحبيبه الذى لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شئ إليه. وأشوق شئ إليه.

فإذا علت هذه الأنفاس: حصل له القرب من ربه والأنس به، والفرح به، وبالخلع التى خلعها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها، فحينئذ يتنفس نفساً آخر يقال

له: نفس الافتخار، يجد به من التفريج والترويح والراحة والانشراح ما يشبه- من بعض الوجوه- بنفس من جعل في عنقه حُبل ليخنق به حتى يموت. ثم كشف عنه وقد حبس نفسه. فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته. وتخلص من أسباب الموت.

فإن قلت: ما للعبد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟

قلنا: لا نريد بذلك أن العبد يفتخر بذلك. ويختال على بنى جنسه. بل هو فرح وسرور لايمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه. ومنحه إياه، وخصه به. وأول ما فرح به العبد: فضل ربه عليه. فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. ويحب الفرح بذلك. لأنه من الشكر. ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكوراً. فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد. فهذا هو الذى ينافى العبودية لا ذاك.

وهنا سر لطيف. وهو أن هذا النفس يفخر على أنفاسه التى ليست كذلك. كما تفخر الحياة على الموت. والعلم على الجهل. والسمع على الصمم، والبصر على العمى. فيكون الافتخار للنفس على النفس. لا للمتنفس على الناس. والله أعلم.

(٦٢) منزلة المعرفة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « المعرفة »

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة : ٨٣] .

وقد تكلموا على « المعرفة » بآثارها وشواهدها . فقال بعضهم : من إمارات المعرفة بالله : حصول الهيبة منه ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقال أيضاً : المعرفة توجب السكون . فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال لي بعض أصحابنا : ما علامة المعرفة التي يشيرون إليها ؟ فقلت له : أنس القلب بالله . قال لي : علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله . فيجده قريباً منه .

وقال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف : كان له أخوف . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] وقول النبي ﷺ : « **أنا أعرفكم بالله . وأشدكم له خشية** » .

وقال آخر : من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها .

وقال غيره : من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق .

ولا تنافي بين هذين الأمرين . فإنه يضيق عليه كل مكان لايساعد فيه على شأنه ومطلوبه . ويتسع عليه ما ضاق على غيره . لأنه ليس فيه ، ولا هو مساكن له بقلبه . فقلبه غير محبوس فيه .

والأول : في بداية المعرفة . والثاني : في نهايتها التي يصل إليها العبد .

وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش . فطابت له الحياة ، وهابه كل شئ وذهب عنه خوف المخلوقين . وأنس بالله .

وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله . وقرت عينه بالموت . وقرت به كل عين . ومن لم يعرف الله تقع قلبه على الدنيا حسرات . ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه . ومن ادعى معرفة الله – وهو راغب في غيره – : كذبت رغبته معرفته . ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به ، وخافه ورجاه ، وتوكل عليه ، وأناب إليه ، ولهج بذكره ، واشتاق إلى لقائه ، واستحيا منه ، وأجَلَّه وعظمه على قدر معرفته به .

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتفنى الشواهد، وتنحل العلائق، وتنقطع العوائق. وتجلس بين يدى الرب تعالي، وتقوم وتضطجع على التاهب للقائه، كما يجلس الذى شدّ أحماله وأزمع السفر على التأهب له. ويقوم على ذلك ويضطجع عليه. كما ينزل المسافر في المنزل، فهو قائم وجالس ومضطجع على التاهب.

وقيل للجنيد: إن أقواما يدعون المعرفة، يقولون: إنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى؟ فقال الجنيد: هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيم، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا. إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله. وإلى الله رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بينى وبينها.

ومن علامات العارف: أنه لايطالب ولايخاصم، ولا يعاتب، ولا يرى له على أحد فضلا. ولا يرى له على أحد حقا.

ومن علاماته: أنه لايأسف على فائت. ولا يفرح بآت؛ لأنه ينظر إلي الأشياء بعين الفناء والزوال. لأنها فى الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيد: لايكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يُظل كل شئ، وكالمطر يسقي ما يحب ومالايحب. وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاء على نفسه، وثناء على ربه. وهذا من أحسن الكلام. فإنه يدل على معرفته بنفسه، وعيوبه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الازراء على نفسه، لهج بالثناء على ربه.

وقال آخر: لايكون العارف عارفا حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وهذا يحتاج إلى شرح. فإن ما هو دون ذلك يشغل القلب، لكن يكون اشتغاله بغير الله لله. فذلك اشتغال به سبحانه، لأنه اشتغل بغيره لأجله لم يشتغل عنه.

ومن علاماته: أنه مستأنس بربه، مستوحش ممن يقطعه عنه. ولهذا قيل: العارف من أنس بالله، فأوحشه من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم. وذل لله فأعزه فيهم. وتواضع لله فرفعه بينهم. واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

قيل: والعارف يتلون بتلون أقسام العبودية. فبينا تراه مصليا إذ رأيته ذاكراً، أو قارئاً، أو معلماً، أو مجاهداً، أو حاجاً، أو مساعداً للضعيف، أو مغيثاً للملهوف. فيضرب فى كل غنيمة من الغنائم بسهم. فهو مع المتعلمين متعلم. ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلين مصلٍ، ومع المتصدقين متصدق. فهو ينتقل فى منازل العبودية من عبودية إلى عبودية، وهو مقيم على معبود واحد. لاينتقل فى منازل العبودية إلى غيره.

وقال يحيى بن معاذ: العارف كائن بائن. وهذا يفسر على وجوه.

منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره، بائن عنهم بسره وقلبه.

ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا.

ومنها أنه كائن مع الله بموافقته. بائن عن الناس في مخالفته.

وقيل: أن من علامة العارف: «أن لا يعتقد باطناً من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم. ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله».

وهذا من أحسن الكلام الذى قيل فى المعرفة.

قوله: «باطن العلم الذى ينقضه ظاهر الحكم» فإنه يشير به إلى ما عليه المنحرفون، ممن ينسب إلى السلوك، فإنهم يقع لهم أذواق ومواجيد، وواردات تخالف الحكم الشرعى. وتكون تلك معلومة لهم لايمكنهم جحدها. فيعتقدونها ويتركون بها ظاهر الحكم. وهذا كثير جداً. وهو الذى انتقد أئمة الطريق على هؤلاء. وصاحوا بهم من كل ناحية. وبدعوهم وضللوهم به.

قوله: «ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله» كثرة النعم تطغى العبد، وتحمله على أن يصرفها فى وجوهها وغير وجوهها. وهي تدعو إلي أن يتناول العبد بها ما حل ومالايحل، وأكثر المنعم عليهم لايقصرون فى صرف النعمة على القدر الحلال، بل يتعداه إلى غيره، وتسول له نفسه أن معرفته بالله ترد عليه ما انتهبته منهم أيدى الشهوات والمخالفات. ويقول: العارف لا تضره الذنوب، كما تضر الجاهل. وربما يسول له أن ذنوبه خير من طاعات الجهال. وهذا من أعظم المكر. والأمر بضد ذلك. فيحتمل من الجاهل مالا يحتمل من العارف وإذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين. وقد دل على هذا شرع الله. قال تعالى فى نساء النبى: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ﴾ [الأحزاب: ٣٠] فإذا أكملت النعمة على العبد، فقابلها بالإساءة والعصيان: كانت عقوبته أعظم. فدرجته أعلى وعقوبته أشد.

وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلي اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر. ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة فى الآخرة. ومن الكبر إلى التواضع. ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

نثبت صفات الله تعالى بلا تأويل ولا تشبيه

وقال شيخ الإسلام الهروى:

«المعرفة: معرفة الصفات التى وردت أساميها بالرسالة، وظهرت شواهدها فى الصنعة. وهى على أربعة أركان: إثبات الصفات باسمها من غير تشبيه، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل،

والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها، مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات».

وهذا من جيد الكلام، ويدل على علو كعب الهروى.

وذلك أنه لايستقر للعبد قدم فى المعرفة- بل ولا في الإيمان- حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرفها: هو أساس الإسلام، والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلا عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيئ الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[فصلت: ٢٣،٢٢] فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به. وأنه هو الذى أهلكهم. وقد قال فى الظانين به ظن السوء ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[الفتح: ٦] ولم يجئ مثل هذا الوعيد فى غير من ظن السوء به سبحانه، وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به. وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرك. فإنه لا يستوى جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل. فإنه لولا تعطيل كماله- أو بعضه- وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الصافات: ٨٦، ٨٧] أي فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذى ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟

أظننتم أنه محتاج إلى شركاء يعينونه كالملوك؟ أم ظننتم أنه لايقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ. فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلي ولى يتكثر به من القلة، ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلا إلا وشركه على حسب تعطيله، فمستقل ومستكثر.

والرسل من أولهم إلي خاتمهم- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- أرسلوا بالدعوة إلي الله.

وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول، فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه. وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب عفوه، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغنى فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطى. يؤتى الحكمة من يشاء. مالك الملك. يؤتى الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير. كل يوم هو فى شأن، يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويفك عانيا، وينصر مظلوماً، ويقصم ظالماً، ويرحم مسكينا. ويغيث ملهوفاً. ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها. ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار الممالك كلها عليه. وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول. وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار. وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا ومثير هممهم إذا قصروا. فإن سيرهم إنما هو على الشواهد. فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العلم الذى رفع لهم فى السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً. لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه» ولايزال العبد فى التوانى والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له- بفضله ومنه- علما يشاهده بقلبه، فيشمر إليه، ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر: أن اقعدى مع

القاعدين: فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه. وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها- بعد ذلك- ما هو مشروط بالمعرفة، وملزم لها. إذ وجود الملزم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع.

فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان ممتنع على المعطل كل الامتناع، إذ كيف تُأَلِّهْ القلوب من لا يسمع كلامها. ولا يرى مكانها. ولا يُحِبُّ ولايُحَبَّ، ولايقوم به فعل ألبتة، ولا يتكلم ولا يكلم. ولا يقرب من شئ ولا يقرب منه شئ. ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم. وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تُأَلِّهْ القلوب من لايحب ولا يُحَب، ولا يرضي ولا يغضب، ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلا لذلك لمن عليها به. وأكرمها به. إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣] ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [الزخرف: ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه فى الحقيقة تنزيهاً. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيها. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها. وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

وهذه الصفات دل عليها الوحى الذى جاء من عند الله على لسان رسوله. والحس الذى شاهد به البصير آثار الصنعة. فاستدل بها على صفات صانعها. والعقل الذى طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذى يحيا بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفصلا على وجه أزال الشبهة. وكشف الغطاء. وحَصَّل العلم اليقينى. ورفع الشك والريب فثلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب. واستقر به الإيمان في نصابه. ففصلت الرسالة الصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهى.

وقررت إثباتها أكمل تقرير فى أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره. بل أبعد منه لوجوه كثيرة. ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسلة، على الجهمية والمعطلة» بل تأويل آيات الصفات – بما يخرجها عن حقائقها– كتأويل آيات الأمر والنهى سواء. فالباب كله باب واحد، ومصدره واحد، ومقصوده واحد، وهو إثبات حقائقه والإيمان بها.

وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين فى آيات الصفات. بل نحن أعذر. فإن اشتمال الكتب الإلهية على الصفات والعلو وقيام الأفعال: أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير. فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟

وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهى، وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك فى آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها. وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية.

قالوا: وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص الصفات. فعندنا معارض عقلى لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه.

وقال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذى سوغ لنا هذا التأويل القواعد التى اصطلحتموها لنا. وجعلتموها أصلا نرجع إليه. فلما طردناها كان طردها: أن الله ما تكلم بشئ قط، ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى ولا له صفة تقوم به. ولا يفعل شيئاً. وطرد هذا الأصل: لزوم تأويل آيات الأمر والنهى، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

وقد ذكرنا فى كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها– بما يخرجها عن حقائقها– هو أصل الفساد، وزوال الممالك. وتسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم. ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته، لأنه سبب لفساد العالم، وتعطيل الشرائع.

ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها. فإنها وردت على وجه لايحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالي: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع: تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلا: أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ – إلى أن قال– وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾[النساء: ١٦٣، ١٦٤] ففرق بين الإيحاء العام، والتكليم الخاص. وجعلهما نوعين. ثم أكد فعل التكليم بالمصدر

الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون. وكذلك قوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: ٥١] فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة، وتكليم بغير واسطة. وكذلك قوله لموسى عليه السلام: ﴿**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي**﴾ [الأعراف: ١٤٤] ففرق بين الرسالة والكلام. والرسالة إنما هى بكلامه. وكذلك قول النبى ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عياناً. كما ترون القمر ليلة البدر فى الصحو، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس فى الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب**». ومعلوم أن هذا البيان والكشف والاحتراز: ينافى إرادة التأويل قطعاً. ولا يرتاب فى هذا من له عقل ودين.

أما الطريق الثاني من طرق إثبات الصفات، فهو دلالة الصنعة عليها. فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، على حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيئته. فإن الفعل الاختيارى يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً. وما فيه من الإتقان والإحكام ووقعه على أكمل الوجوه: يدل على حكمة فاعلة وعنايته. وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق: يدل علي رحمة خالقه، وإحسانه وجوده.

وآثار الكمال: تدل على أن خالقه أكمل منه. فمعطى الكمال أحق بالكمال. وخالق الأسماع والأبصار والنطق: أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً. وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات: أحق بأن يكون هو كذلك فى نفسه. فما فى المخلوقات من أنواع التخصيصات: هو أدل شئ على إرادة الرب سبحانه، ومشيئته وحكمته، التى اقتضت التخصيص.

وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب، على الوجه المطلوب: دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات. وعلى سمعه لسؤال عبيده. وعلى قدرته على قضاء حوائجهم. وعلى رأفته ورحمته بهم.

والإحسان إلى المطيعين، والتقرب إليهم والإكرام، وإعلاء درجاتهم: يدل على محبته ورضاه. وعقوبته للعصاة والظلمة، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة، تدل على صفة «الغضب والسخط» والإبعاد. والطرد والإقصاء: يدل على المقت والبغض.

فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل. ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهودة. والقرآن مملوء بذلك.

فيظهر شاهد اسم «الخالق» من نفس المخلوق. وشاهد اسم «الرازق» من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم «الرحيم» من شهود الرحمة المبثوثة في العالم. واسم «المعطى» من وجود العطاء الذى هو مدار لاينقطع لحظة واحدة. واسم «الحليم» من حلمه على الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم.

واسم «الغفور» و«التواب» من مغفرة الذنوب، وقبول التوبة. ويظهر شاهد اسمه «الحكيم» من العلم بما في خلقه وأمره من الحكم والمصالح ووجوه المنافع. وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره. يعرفه من عرفه ويجهله من جهله. فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته.

وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره: من مشاهدة صنعته، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوى والسفلى وهذه المخلوقات من بعض صنعه؟

وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات، وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى. وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة. ويكفى ظهور شاهد الصنع فيك خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه. فهى كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها. وتنادى عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال. كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خطَّ فيها– لو تأملت خطها– ... ألا كل شئ ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدى، ومن هو قائل

فلست ترى شيئاً أدل على شئ من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها. فهى تدل عقلا وحسا، وفطرة ونظراً، واعتبارا.

وكلما قوى النور فى قلب العبد كان بصره أتم وأكمل، وكلما قل نصيبه من النور، وطفئ مصباحه فى قلبه طفئ نور التصديق بالصفات وإثباتها فى قلبه. فإنه يشاهدها بذلك النور. فإذا فقده لم يشاهدها. وجاءت الشُبه الباطلة مع تلك الظلمة. فلم يكن له نصيب منها سوى الإنكار.

والتفكر يساعد على هذا الإدراك، ولذلك كان من صفات المؤمنين إنهم يتفكرون فى الآيات، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. ويتفكرون فى الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وشرفها. وبذلك وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب، ونور البصيرة يدل على

إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة: فإنما يعطى صاحبه نفيها وتعطيلها، وينضاف إلى نور البصيرة وطيب حياة العقل: حياة القلب بحسن النظر، الدائر بين تعظيم الخالق- جل جلاله- وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه. فلابد من الأمرين. فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار، لم يحصل له الاستدلال على الصفات. وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه، لم يستفد به إثبات الصفات. فإذا اجتمع له تعظيم وحسن النظر في صنعه، أثمر له إثبات صفات كماله ولابد، مع إنه يستحيل أن يصح للقلب تعظيمه لربه من خلال تدبر آثار أسمائه وصفاته وتدبر آياته القرآنية، ثم يغفل به عن حسن الاعتبار، ولا أن يحصل له اعتبار من غير تعظيم.

و«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلي المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. ومن الدليل إلى المدلول. فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك. فينتقل ذهنه من الملزم إلى لازمه. قال الله تعالي: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه، ومن النظير إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره. وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولايفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك. قد ذكر سبحانه هذين الطريقين فى كتابه. فقال تعالى فى الطريق الأولي: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ثم قال فى الطريق الثانية: «أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد؟» فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به. ومالا يفعله ولا يامر به.

مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لايامر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لايخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغنى» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته ، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبَثًّ رسله فى أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذى هو عرشه المجيد. فمتى قام بالعبد تعظيم الحق- جل جلاله- وحسن النظر فى الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قِبْلة له.

وأما أركان هذه المعرفة:

فأحدها: إثبات تلك الصفة. فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

الثاني: أنه لايتعدى بها اسمها الخاص الذى سماها الله به. بل يحترم الاسم كما يحترم

الصفة. فلا يعطل الصفة. ولا يغير اسمها ويعيرها اسما آخر. كما تسمى الجهمية والمعطلة سمعه وبصره، وقدرته وحياته، وكلامه: أعراضاً. ويسمون وجهه ويديه وقدمه- سبحانه- : جوارح وأبعاضا ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة: عللا وأغراضاً. ويسمون أفعاله القائمة به: حوادث. ويسمون علوه على خلقه، واستواءه علي عرشه: تحيزاً، ويتواصون بهذا المكر الكُبَّار إلي نفى ما دل عليه الوحى، والعقل والفطرة، وآثار الصنعة من صفاته. فيسطون- بهذه الأسماء التى سموها وآباؤهم- على نفى صفاته وحقائق أسمائه.

واعلم أن الله تعالى قد أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء وأحدث. ولم يسم « بالمريد » و« الشائى » و« المحدث » كما لم يسم نفسه « بالصانع » و« الفاعل » و« المتقن » وغير ذلك من الأسماء التى أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ- أقبح خطأ- من اشتق له من كل فعل اسما. وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه « الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد » ونحو ذلك. وكذلك باب الأخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه « شئ وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد » ولا يسمى بذلك.

فأما « الواجد » فلم تجئ تسميته به إلا فى حديث تعداد الأسماء الحسنى. والصحيح: أنه ليس من كلام النبى ﷺ. ومعناه صحيح. فإنه ذو الوجد والغنى. فهو أولى بأن يسمى به من « الموجود » ومن « الموجد » أما « الموجد » فإنه منقسم إلى كامل وناقص، وخير وشر، وما كان مسماه منقسما لم يدخل اسمه فى الأسماء الحسنى. كالشئ والمعلوم. ولذلك لم يسم بالمريد ولا بالمتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمي « المريد » و« المتكلم » وأما « الموجد » فقد سمى نفسه بأكمل أنواعه. وهو « الخالق ، البارئ ، المصور » فالموجد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى. فتأمله.

الثالث: عدم تشبيهها بما للمخلوق. فإن الله سبحانه ليس كمثله شئ، لا فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله. فالعارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله: يثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات. فيجمعون بين الإثبات ونفى التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل. فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين. فصراطهم صراط المنعم عليهم. وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين. قال الإمام أحمد رحمه الله « لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين» وقال: « التشبيه: أن تقول يدى كيدى » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فإن العقل قد يئس من تعرف كُنه الصفة وكيفيتها. فإنه لايعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف « بلاكيف » أى بلا كيف يعقله البشر. فإن من لا تعلم حقيقة ذاته

وماهيته، كيف تعرف نعوته وصفاته؟ ولايقدح ذلك فى الإيمان بها، ومعرفة معانيها. فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معانى ما أخبر الله به من حقائق ما فى اليوم الآخر. ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق. فعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود فى معرفة من له الكمال كله، والجمال كله. والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها؟ من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحانه السموات والأرض وما فيها وما بينهما.. وما وراء ذلك؟ الذى يقبض سمواته بيده. فتغيب كما تغيب الخردلة في كف أحدنا، الذى نسبة علوم الخلائق كلها إلى علمه أقل من نسبة نقرة عصفور من بحار العالم الذى لو أن البحر- يمده من بعده سبعة أبحر- مداد وأشجار الأرض- من حين خلقت إلى قيام الساعة- أقلام: لفنى المداد وفنيت الأقلام، ولم تَنْفَد كلماته.

فقاتل الله الجهمية والمعطلة! أين التشبيه ههنا؟ وأين التمثيل؟ لقد اضمحل ههنا كل موجود سواه. فضلا عن أن يكون له ما يماثله فى ذلك الكمال، ويشابهه فيه. فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته. وولأها ما تولت من وقوفها مع الألفاظ التى لا حرمة لها، والمعاني التى لا حقائق لها.

ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الإلهية ما تفهمه من صفات المخلوقين، فَرَّتْ إلى إنكار حقائقها وابتغاء تحريفها، وسمته تأويلا. فشبهت أولا، وعطلت ثانيا، وأساءت الظن بربها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه.

أما إساءة الظن بالرب: فإنها عطلت صفات كماله. ونسبته إلى أنه أنزل كتابا مشتملاً علي ما ظاهره كفر وباطل، وأن ظاهره وحقائقه غير مرادة.

وأما إساءة ظنها بالرسول: فلأنه تكلم بذلك وقرره وأكده. ولم يبين للأمة أن الحق في خلافه وتأويله.

وأما إساءة ظنها بأتباعه: فبنسبتهم لهم إلى التشبيه والتمثيل، والجهل والحشو.

الرابع: اسقاط التفريق بين الصفات والذات، إذ التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل. وهو ممكن فى الشهود بأن يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة، فتجريد الذات أو الصفات إنما يمكن في الذهن: فالمعرفة في هذه الدرجة تعلقت بالذات والصفات جميعاً. فلم يفرق العلم والشهود بينهما. ولا ريب أن ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة، أو مجرد الذات.

وليس المراد أنك تسقط التفريق بين الذات والصفات فى الخارج والعلم، بحيث تكون الصفات

هى نفس الذات. فهذا لايقوله موحد، وإن كان كثير من أرباب الكلام يقولون: إن الصفات هى الذات. فليس مرادهم: إن الذات نفسها صفة. فهذا لايقوله عاقل. وإنما مرادهم: إن صفاتها شئ غيرها. فإن أراد هؤلاء أن مفهوم الصفة هو مفهوم الذات: فهذا مكابرة. وإن أرادوا أنه ليس ههنا أشياء غير الذات انضمت إليها وقامت بها فهذا حق.

والتحقيق: أن صفات الرب- جل جلاله- داخلة فى مسمى اسمه. فليس اسمه « الله، والرب والإله » أسماء لذات مجردة، لا صفة لها ألبتة، فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل. وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات. ثم يحكم عليها. واسم « الله » سبحانه « والرب والإله » اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال. كالعلم، والقدرة والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذى يستحقه الله لذاته، فصفاته داخلة فى مسمى اسمه. فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهنى لا حقيقة له، وهو أمر اعتبارى لا فائدة فيه. ولا يترتب عليه معرفة. ولا إيمان ولا هو علم فى نفسه. وبهذا أجاب السلف الجهمية لما استدلوا على خلق القرآن. بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] قالوا: والقرآن شئ.

فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه، وكلامه من صفاته، وصفاته داخلة فى مسمى اسمه، كعلمه وقدرته وحياته، وسمعه وبصره، ووجهه ويديه- فليس « الله » اسما لذات لا نعت لها، ولا صفة، ولا فعل، ولا وجه، ولايدين. ذلك إله معدوم مفروض فى الأذهان. لا وجود له فى الأعيان، كإله الجهمية، الذى فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محايث له ولا مباين. وكإله الفلاسفة الذى فرضوه وجوداً مطلقاً لا يتخصص بصفة ولا نعت، ولا له مشيئة ولا قدرة، ولا إرادة ولا كلام. وكإله الاتحادية الذى فرضوه وجوداً سارياً فى الموجودات ظاهراً فيها. هو عين وجودها. وكإله النصارى الذى فرضوه قد اتخذ صاحبة وولداً. وتدرع بناسوت ولده. واتخذ منه حجاباً. فكل هذه الآلهة مما علمته أيدى أفكارها. وإله العالمين الحق: هو الذى دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته علي عرشه، بائن من خلقه، موصوف بكل كمال، منزه عن كل نقص. لا مثال له، ولا شريك. ولا ظهير، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] غنى بذاته عن كل ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

فإذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعَجْز مَنْ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة. وزنه لا وجود له من نفسه. فوجوده ليس له، ولا به ولا منه. وتولى هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر. كما سقط غناه وربوبيته وملكه

وقدرته. فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمشهود والمذكور، كما كان وحده هو الخالق المالك، الغنى الموجود بنفسه أزلا وأبداً. وأما ما سواه فوجوده- وتوابع وجوده- عارية ليست له، وكلما فنى العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه، وانجذبت روحه إلي الواحد القهار. فهى تجول فى ميدان أوسع من السموات والأرض، بعد أن كانت مسجونة في سجون المخلوقات. فإذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه، ونظر قلبه إليه كأنه يراه، ورؤية تفرده بالخلق والأمر، والنفع والضر. كملت وتمت معرفته، فإن الرب سبحانه إذا رقي عبده بالتدرج نوَّر باطنه وعقله بالعلم. فرأى أنه لا خالق سواه، ولا رب غيره. ولا يملك الضر والنفع والعطاء والمنع غيره. وأنه لايستحق أن يعبد- بنهاية الخضوع والحب- سواه. وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل. فهذا توحيد العلم.

ثم إذا رقاه الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه: أشهده عود المفعولات إلى أفعاله سبحانه. وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته، وقيام صفاته بذاته. فيضمحل شهود غيره من قلبه.

ثم إذا رقاه درجة أخرى: أشهده قيام العوالم كلها به وحده، أى بإقامته لها وإمساكه لها، فإنه سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك البحار أن تغيض أو تفيض على العالم. ويمسك السماء أن تقع على الأرض. ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن. ويمسك القلوب الموقنة أن تزيع عن الإيمان. ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود. ويمسك على الموجودات وجودها. ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت. والكل قائم بأفعاله وصفاته التى هى من لوازم ذاته. فليس الوجود الحقيقى إلا له. أعنى الوجود الذى هو مستغن فيه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بالذات، لا قيام له بنفسه طرفة عين، وكلما أسرع العبد في إقباله على ربه: أسرع ربه به الارتقاء، لأن العبد إذا أقبل على ربه، وتفقد أحواله، وتمكن من شهود قيام ربه عليه، فإنه يكون في أول أمره: مكابداً وصابراً ومرابطاً. فإذا صبر وصابر ورابط- صبر فى نفسه وصابر عدوه، ورابط علي ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وليه الحق- وقطع كلاليب الشهوات والشبهات، فحينئذ يصفو له إقباله على ربه، فيستولى نور المراقبة على أجزاء باطنه، فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يغمر قلبه، ويستره عما سواه، ثم يسرى ذلك النور من باطنه فيعم أجزاء ظاهره. فيتشابه الظاهر والباطن فيه. فيجد آثار الجلال والجمال المقدس فى قلبه وروحه. ويجد العبودية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية قائمة بقلبه. لا تشغله عن مشهد الروح. ولا تستغرق مشهد الروح عنه. ويجد ملاحظته للأوامر والنواهى حاضراً في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة. فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضي الرب تعالى ومحابه، وحقه على عبده، ويجد ترك التدبير والاختيار وصحة التفويض موجوداً فى محل نفسه. فيعامل الله سبحانه بذلك، بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه. ويقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله فى خلقه وأمره، ولايحجبه ذلك كله عن ملاحظة

عبوديته. فيبقى مغمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجمالها. قد استغرقته محبته والشوق إليه. معمور القلب بعبادات القلوب معمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب. طاهر القلب عن سفاسف الأخلاق، مع الله تعالى ومع الخلق، قد صار عبداً محضاً لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه وبدنه وجوارحه. قد قام كل بما عليه من العبودية. بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر.

نوحده تعالى ربّاً وإلهاً

فأهل التوحيد والاستقامة يرتقون إلى هذه المنازل إذن بأمرين، أحدهما أرفع من الآخر.

الأمر الأول: شهود الربوبية والقيومية. فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة. وما له منها فعل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه. لايملك شيئاً منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملك ضراً ولا نفعاً. فإذا تحقق العبد بهذا المشهد: خمدت منه الخواطر والإرادات. نظراً إلى القويم الذى بيده تدبير الأمور، وشخوصاً منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه. فإن بشهوده عن شهود ما سواه. وما هذا فهو ساع فى طلب الوصول إليه، قائماً بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني: شهود الألهية، وحقيقته: إرادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاؤه، فيفنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه. فحقيقة هذا الشهود: الانتفاع بالعظة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال. ونحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسطه وغايته. فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أو صورة، وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العدة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل، فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه. فيفعله ويتقرب به إليه. وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته. فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين- يُسأل عنهما الأولون والآخرون- ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن فى ذلك: فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التى تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شئ أشوق إليه من ذلك . فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته. وتسد عليه الأبواب التى تفرق همه وتشتت قلبه. فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ارتقاء الذروة

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لايكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده فى لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل فى الصلاة ود أن

لايخرج منها، ثم يفتح له حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه. وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبى إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله. وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعانى خطابه، بحيث يستغرق قلبه فى ذلك حتى يغيب فيه. ويحس بقلبه وقد دخل فى عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله. وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع فى القلب، يُريه ذلك النور: أنه واقف بين يدى ربه عز وجل. فيستحى منه فى خلواته، وجلواته، ويرزق عند ذلك: دوام المراقبة للرقيب. ودوام التطلع إلى حضرة العلى الأعلى. حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويا علي عرشه، ناظراً إلى خلقه، سامعاً لأصواتهم، مشاهداً لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من الهموم بالدنيا وما فيها. فهو فى وجود والناس في وجود آخر.هو فى وجود بين يدى ربه ووليه، ناظراً إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة فى الدنيا، فهو يراهم وهم لايرونه. ولايرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية. فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده. فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة. فيتخذه وحده وكيلا. ويرضي به رباً ومدبراً وكافيا. وعند ذلك إذا وقع خلقه عنه سبحانه. بل يناديه كل من ينادى المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتى لمن أحسن كل شئ خلقه. فأنا صنع الله الذى أتقن كل شئ.

فإذا استمر له ذلك: يطوى الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار. وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه، كما يفيض نور الشمس عن جرمها. فيغرق حينئذ فى الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر. وذلك إنما يكون في الرياضة والمجاهدة، وزوال أحكام الطبيعة، وطول الوقوف فى الباب.

فإذا استمر على حاله وقفاً بباب مولاه. لا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً. ولا يجيب غير من يدعوه إليه. ويعلم أن الأمر وراء ذلك، وأنه لم يصل بعد. ومتى توهم أنه قد وصل: انقطع عنه المزيد– رجى أن يفتح له فتح آخر. هو فوق ما كان فيه. مستغرقاً قلبه فى أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق، فيبقى قلبه سابحاً فى بحر من أنوار آثار الجلال، ويجد قلبه عالياً على ذلك كله، صاعداً إلى من ليس فوقه شئ. ثم يرقيه الله سبحانه. فيشهده أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال. فيستغرق فى نور من أنوار أشعة الجمال. وفى هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة الملهبة للأرواح والقلوب. فيبقى القلب مأسوراً فى يد حبيبه ووليه، ممتحناً بحبه.

فياله من قلب ممتحن مغمور مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحدى، والناس

مفتونون ممتحنون بما يفنى من المال والصور والرياسة. معذبون بذلك قبل حصوله، وحال حصوله، وبعد حصوله. وأعلاهم مرتبة: من يكون مفتوناً بالحور العين، أو عاملا على تمتعه فى الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح. وهذا المحب قد ترقى فى درجات المحبة على أهل المقامات، ينظرون إليه فى الجنة كما ينظرون إلي الكوكب الدرى الغابر في الأفق لعلو درجته وقرب منزلته من حبيبه، فإن المرء مع من أحب. ولكل عمل جزاء وجزاء المحبة: المحبة والاصطناع والقرب. فهذا هو الذى يصلح. وكفى بذلك شرفاً وفخراً فى عاجل الدنيا. فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر؟ فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة، وقد أسمعهم المنادى «لينطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون» فيبقون فى مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذى هو أحب شئ إليهم، حتى يأتيهم، فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكاً.

والمقصود: أن هذا العبد لايزال الله يرقيه طبقاً بعد طبق، ومنزلاً بعد منزل، إلى أن يوصله إليه. ويمكن له بين يديه، أو يموت فى الطريق. فيقع أجره على الله. فالسعيد كل السعيد، والموفق كل الموفق: من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً. ولا اتخذ سواه رباً ولا وكيلاً. ولا حبيباً ولا مدبراً. ولا حاكماً ولا ناصراً ولا رازقاً.

وجميع ما تقدم من مراتب الوصول: إنما هى شواهد وأمثلة إذا تجلت له الحقائق فى الغيب- بحسب استعداده ولطفه ورقته من حيث لايراها- ظهر من تجليها شاهد فى قلبه. وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها. فإن نور الجلال فى القلب ليس هو نور ذى الجلال فى الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السموات والأرض. ولو ظهر للوجود لتدكدك. لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلقه، وإنما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف. تدل على قرب الألطاف منه فى عالم الغيب حيث يراها.

فالوصول حق. يجد الواصل آثار تجلى الصفات فى قلبه. وآثار تجلى الحق فى قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدى الرب تعالى. وهو على عرشه. ومن هناك بكاشف بآثار الجلال والإكرام. فيجد العرش والكرسى تحت مشهد قلبه حكما. وليس الذى يجده تحت قلبه حقيقة: العرش والكرسى. بل شاهد ومثال علمى، يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه. وبين الذوقين تفاوت. فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه. وحينئذ يطلع فى أفقه شمس التوحيد، وينال التحقيق، بتخليص مصحوبه من الحق، بالحق وفى الحق، كما قال الهروى، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ووجه إشارة الآية: أن إبراهيمﷺ طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلي رؤية

تحقيقه عيانا. فطلب- بعد حصول العلم الذهنى- تحقيق الوجود الخارجى. فإن ذلك أبلغ فى طمأنينة القلب. ولما كان بين «العلم» و«العيان» تحقيق الوجود الخارجى. فإن ذلك أبلغ فى طمأنينة القلب. ولما كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى. قال النبى ﷺ «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وإبراهيم لم يشكّ ﷺ. ورسول الله ﷺ لم يشك. ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذى بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقينى- قبل مشاهدة معلومه- ظنا. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦]. كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لكن بين الخبر والعيان فرق. وفى المسند مرفوعا «ليس الخبر كالعيان» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامرى أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.

التحقيق ميزان الموحد

إذا عرفنا هذا: كان سهلا إن شاء الله أن نعرف هذا التعريف للتحقيق.

فلفظ «التحقيق» هو تفعيل. من حقق الشئ تحقيقاً، فهو مصدر، فعله: حقق الشئ، أى أثبته وخلصه من غيره.

أما «المصحوب» فهو ما يصحب الإنسان فى قصده ومعرفته من معلوم ومراد.

و«الحق» هو الله سبحانه، وما كان موصلاً إليه، مُدنياً للعبد من رضاه.

إذا عرف هذا، فمصحوب العبد من الحق: هو معرفته ومحبته، وإرادة وجهه الكريم، وما يستعين به على الوصول إليه، وما هو محتاج إليه فى سلوكه، فـ«التحقيق» هو تخليصه من المفسدات القاطعة عنه، الحائلة بين القلب وبين الموصل إليه. وتحصينه من المخالطات. وتخليصه من المشوشات. فإن تلك قواطع له عن مصحوبه الحق.

فصاحب مقام التحقيق: لايقف مع العوارض، فإنها قواطع، ويتغافل عنها ما أمكنه، فإنها تمر- بالتغافل- مراً سريعاً، لا يوسع دوائرها، فإنه كلما وسعها اتسعت، ووجدت مجالا فسيحا. فصالت فيه وجالت. ولو ضيقها - بالإعراض عنها والتغافل- لاضمحلت وتلاشت، فصاحب مقام التحقيق ينساها ويطمس آثارها. ويعلم أنها جاءت بحكم المقادير فى دار المحن والآفات.

قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- مرة: العوارض والمحن هى كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما. ولم يغتم لذلك ولم يحزن.

فإذا صبر العبد على هذه العوارض ولم ينقطع بها: رجى له أن يصل إلى مقام التحقيق. فيبقى مع مصحوبه الحق وحده. فتهذب نفسه. وتطمئن مع الله وتنفطم عن عوائد السوء، حتى تغمر محبة الله قلبه وروحه. وتعود جوارحه متابعة للأوامر. فيحس قلبه حينئذ بأن معية الله معه وتوليه له. فيبقى في حركاته وسكناته بالله لا بنفسه. وترد على قلبه التعريفات الإلهية، ويشهد الإلهية والقيومية والفردانية. فإن على هذه المشاهد الثلاثة مدار المعرفة والوصول.

والمقصود: أن صاحب مقام «التحقيق» يعرف الحق، ويميز بينه وبين الباطل. فيمسك بالحق. ويلغى الباطل. فهذه مرتبة. ثم يتبين له أن ذلك ليس به، بل بالله وحده. فيبرأ حينئذ من حوله وقوته. ويعلم أن ذلك بالحق، ثم يتمكن فى ذلك المقام. ويرسخ فيه قلبه. فيصير تحقيقه بالله وفى الله.

ففى الأول: يخلص به مطلوبه من غيره، ويتجرد له من سواه.

وفى الثانى: يخلص له إضافته إلى غيره، وأن يكون سواه سبحانه.

وفى الثالث: تجرد له شهوده وقصوره، بحيث صارت فى مطلوبه.

فالأول: سفر إلى الله. والثاني: سفر بالله. والثالث: سفر فى الله.

وإن أشكل عليك معنى «السفر فيه» والفرق بينه وبين «السفر إليه» ففرق بين حال العارف الزاهد السائر إلى الله، الذى لم يفتح له فى الأسماء والصفات والمعرفة الخاصة، وبين حال العارف الذى قد كشف له في معرفة الأسماء والصفات والفقه فيها ما حجب عن غيره.

وإنك إن كنت تنسب العلم إلي نفسك قبل وصولك إلى مقام «التحقيق» ففى حالة «التحقيق» تعود نسبته إلى معلمه ومعطيه الحق. ولعل هذا معنى قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. إذ جمعهم الرب تبارك وتعالى وقال: ﴿ **مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا** ﴾ [المائدة:١٠٩] قيل: قالوه تأدباً معه سبحانه: إذ ردوا العلم إليه. وقيل: معناه لا علم لنا بحقيقة الباطن. وإنما أجابنا من أجابنا ظاهراً والباطن غيب. وأنت علام الغيوب.

والتحقيق- إن شاء الله- أن علومهم تلاشت فى علمه سبحانه واضمحلت. فصارت بالنسبة إليه كلا علم. فردوا العلم كله إلي وليه وأهله، ومن هو أولى به. فعلومهم وعلوم الخلائق جميعهم في جنب علمه تعالى كنقرة عصفور فى بحر من بحار العالم.

(٦٣) منزلة رعاية الأسباب

ومن منازل إياك نعبد : منزلة رعاية الأسباب

ذلك أن التوحيد يقتضى القيام بالأسباب الظاهرة، كالحركات والأعمال، واعتبارها وعدم إهمالها وتعطيلها، ولكن يقوم بها وقد عزلها عن ولاية النجاح والنجاة، كما قال ﷺ : «**اعملوا، واعلموا أن أحداً منكم لن ينجيه عمله**».

وكذلك يقتضي القيام بالأسباب الباطنة، كالإيمان والتصديق، ومحبة الله ورسوله، فإن النجاة معلقة بها، بل التوحيد نفسه من الأسباب ، بل هو أعظم الأسباب الباطنة.

فالقيام بالأسباب واعتبارها وإنزالها منازلها التى أنزلها الله فيها : هو محض التوحيد والعبودية، بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهى. كما فى الصحيح عنه ﷺ قال : «**ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار. قالوا : يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال : لا. اعملوا. فكل ميسر لما خُلق له**» وفى الصحيح عنه أيضاً أنه قيل له : «**يا رسول الله ، أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعملون : أمر قضي عليهم ومضي، أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة؟ فقال : بل شئ قضى عليهم ومضى فيهم. قالوا : يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟ قال : لا. اعملوا. فكل ميسر لما خلق له**» وفى السنن عنه ﷺ أنه قيل له : «**أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقىً نسترقي بها ، وتُقاة نتقي بها ، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال : هى من قدر الله**» .

وكذلك قول عمر لأبى عبيدة رضى الله عنهما، وقد قال أبو عبيدة لعمر : « أتفر من قدر الله؟– يعنى الطاعون– قال : أفر من قدر الله إلى قدر الله. وذلك فى سفرة عمر إلى الشام. فكان طاعون عمواس. فرجع عمر. فقال له أبو عبيدة : « أتفر من قدر الله؟ فقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ أفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم نادى في الجيش : هل فيهم من سمع من رسول الله ﷺ فى الطاعون شيئا؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف من أخريات الجيش. فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن كان فى بلد وأنتم بها فلا تخرجوا منها. وإن سمعتم به فى بلد وأنتم خارجون عنها فلا تدخلوها » ومعنى قوله تعالى ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [الحجر : ٢١] مثل قوله فى الآية قبلها ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴾ [الحجر : ١٩] ومثل قوله ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر : ٤٩] وقوله ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ** ﴾ [يس : ٣٩] وقوله ﴿ **وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ [المزمل : ٢٠] وقوله ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق :٣] وقوله : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾ [الفرقان : ٢] وقوله ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ [المؤمنون :

١٨] وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٢٧] والمعنى فى كل ذلك واضح: أنه خلقه بنظام وترتيب جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب. ولم يخلق شيئاً أنفاً بالمصادفة التي تشبه العبث، سبحانه، وبغير تقدير سابق فى العلم والحكمة. فالمرض بقدر أسبابه والشفاء بقدر أسبابه. ومنها الدواء وقوة المزاج، ولا شئ بالمصادفة ولا بالخلق الأنف، كما يزعم الجاهليون الذين لايعرفون الله بأسمائه وصفاته وبآثار علمه وحكمته ورحمته.

وقد قال الله تعالى فى السحاب: ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى: ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الجاثية: ٥] وقال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ [المائدة: ١٦] وقال تعالى: ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ﴿ وبما كنتم تكسبون ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥١] والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة. فيأتى بباء السببية تارة، وباللام تارة، وبأن تارة، وبكى تارة، ويذكر الوصف المقتضى تارة، ويذكر صريح التعليل تارة، كقوله: ذلك بأنهم فعلوا كذا، وقالوا كذا. ويذكر الجزاء تارة، كقوله: ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٩]و [الحشر: ١٧] وقوله: ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٥]و [الزمر ٣٤] وقوله: ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] ويذكر المقتضي للحكم والمانع منه، كقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] وعند منكرى الأسباب والحكم: لم يمنعه إلا محض مشيئته ليس إلا، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس: ٩] وقال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥] وقال: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

نلتفت إلى الأسباب دون الركون إليها

والموحد المتوكل لايطمئن إلى الأسباب، ولا يرجوها ولايخافها، فلا يركن إليها، ولكن يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها، ناظراً إلى مسببها ومجريها. فلا يصح التوكل- شرعا وعقلا- إلا عليه سبحانه وحده. فإنه ليس فى الوجود سبب تام موجب إلا مشيئته وحده. فهو الذى سبب الأسباب: وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها، ولم يجعل منها سبباً يقتضي وحده أثره. بل لابد معه من سبب آخر يشاركه. وجعل لها أسبابا تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه. فإنها لا

تحتاج إلي أمر آخر. ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته. فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله. والجميع بمشيئته واختياره. فلا يضح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق به ﷺ : **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»** وقال: **«لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك»**.

فإذا جمعت بين التوحيد وبين إثبات الأسباب، استقام قلبك على السير إلي الله. ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضي عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم. وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق. وهو لا ينافى إثبات الأسباب، ولا يقتضى إسقاطها. فإنه سبحانه قد علم وحكم: أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه. فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه. فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب، لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق، بل كان شهوده غيبة، ونظره عمى. فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها. فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه في علمه وحكمه وخلقه وأمره؟

والعلل التى تتقي فى الأسباب نوعان. أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ. وبين ذلك.

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب. وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً. وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله. سبق به علمه وحكمه. وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم. ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية. ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها. ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحصل له فلاحاً، ولا توصله إلى المقصود. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً. ويفرّغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها، تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبى ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح حيث يقول: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله. ولا تعجز»** فامره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان: تقصير فى الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير فى الاستعانة بالله، وترك تجريدها. فالدين كله– ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه– تحت هذه الكلمات النبوية.

فالأسباب والوسائط والعلل محل اعتبار الناظرين، ومعارف المستدلين: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**

لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وكم فى القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكر فيها، وذم من أعرض عنها، والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله؟ **فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية!!**

فما علق بها آثارها سُدى، ولا رتب عليها مقتضياتها وأحكامها باطلا، بل ذلك موجب كماله وكمال نعوته وصفاته. وبها عرفت ربوبيته وإلهيته، وملكه وصفاته وأسماؤه.

هذا ولم يخلقها سبحانه عن حاجة منه إليها، ولا توقف لكماله المقدس عليها. فلم يتكثر بها من قلة. ولم يتعزز بها من ذلة. بل اقتضى كماله أن يفعل ما يشاء، ويأمر ويتصرف ويدبر كما يشاء، وأن يحمد ويعرف، ويذكر ويعبد. ويعرف الخلق صفات كماله ونعوت جلاله. ولذلك خلق خلقاً يعصونه ويخالفون أمره، لتعرف ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه كمال مغفرته، وعفوه، وحلمه وإمهاله. ثم أقبل بقلوب من شاء منهم إليه، فظهر كرمه فى قبول توبته، وبره ولطفه فى العدو عليه بعد الإعراض عنه، كما قال النبى ﷺ : **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»** فلمن كانت تكون مغفرته لو لم يخلق الأسباب التى يعفو عنها ويغفرها؟ والعبد الذى له يغفر؟ فخلق العبد المغفور له، وتقدير الذنب الذى يغفر، والتوبة التى يغفر بها: هو نفس مقتضى العزة والحكمة. وموجب الأسماء الحسني، والصفات العلا.

فتعليق الكوائن بالأسباب كتعليق الثواب والعقاب بالأسباب، وهو محض الحكمة وموجب الكمال الإلهى. ومقتضي الحمد التام، ومظهر صفة العزة، والقدرة والملك، والشرائع كلها- من أولها إلي آخرها- مبنية على تعليق الأحكام بالعلل، والقضايا بالحجج، والثواب بالطاعة، والعقوبات بالجرائم.

(٦٤) منزلة استئناف التوبة

ومن منازل إياك نعبد : منزلة استئناف التوبة

وهو تَمَكُّن يؤدي إلى استئناف التوبة من التقصير الذى رافق نزوله المنازل السابقة، وجمع القلب على المعبود وحده، وتمحيض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً، فإنه إن كان فى باطنه مقبوضاً، لما هو فيه من جمعيته على الله، فإنه فى ظاهره مبسوط مع الخلق، مظهراً لقوته، قصداً لهدايتهم إلي الحق سبحانه ودعوتهم إليه، فهو كائن بائن، داخل خارج، متصل منفصل.

وكما أن التوبة بداية منازل السائرين، وأول مدرج من مدارج السالكين، فإنها نهاية أيضاً.

ولعل سمعك ينفر من هذا غاية النفور، وتقول : هذا كلام من لم يعرف شيئاً من طريق القوم. ولا نزل فى منازل الطريق. ولعمر الله إن كثيراً من الناس ليوافقك على هذا، ويقول : أين كنا؟ وأين صرنا؟ نحن قد قطعنا منزلة «التوبة» وبيننا وبينها مائة مقام. فنرجع من مائة مقام إليها. ونجعلها غاية مقام السالكين؟

فاسمع الآن وَعِهْ، ولا تعجل بالإنكار، ولا تبادل بالرد. وافتح ذهنك لمعرفة نفسك، وحقوق ربك، وما ينبغى له منك، وماله من الحق عليك. ثم انسب أعمالك وأحوالك وتلك المنازل التى نزلتها والمقامات التى قمت فيها- لله وبالله- إلى عظيم جلاله، وما يستحقه وما هو له أهل. فإن رأيتها وافية بذلك مكافئة له فلا حاجة حينئذ إلى التوبة. والرجوع إليها رجوع عن المقامات العلية، وانحطاط من علو إلى سفل، ورجوع من غاية إلى بداية. وما ذلك ببعيد من كثير من المنتسبين إلى هذا الشأن، المغرورين بأحوالهم ومعارفهم وإشاراتهم. وإن رأيت أن أضعاف أضعاف ما قمت به- من صدق وإخلاص، وإنابة وتوكل، وزهد وعبادة- لايفي بأيسر حق له عليك، ولا يكافئ نعمة من نعمه عندك. وأن ما يستحقه- لجلاله وعظمته- أعظم وأجل وأكبر مما يقوم به الخلق، رأيت ضرورة التوبة فى النهاية.

فاعلم الآن : أن التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهى نهاية والحاجة إليها فى النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. بل هى فى النهاية فى محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله فى آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره، قال الله تعالى : ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ**

وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧] وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك، وهى آخر الغزوات التى غزاها ﷺ بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال، وذلك الجهاد. وقال تعالى فى آخر ما أنزل على رسوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾ [النصر: ١ - ٣] وفى الصحيح: «**أنه ﷺ ما صلى صلاة- بعد ما نزلت عليه هذه السورة- إلا قال فيها: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي**» وذلك فى نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا فهم منها علماء الصحابة - كعمر ابن الخطاب. وعبد الله بن عباس، رضى الله عنهم: أنه أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر ما سمع من كلامه عند قدومه على ربه: «**اللهم اغفر لى. وألحقنى بالرفيق الأعلى**» وكان ﷺ يختتم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال «**آيبون، تائبون، لربنا حامدون**» وشرع أن يُختتم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة، وشرع أن يختتم العبد عمل يومه بالاستغفار، فيقول عند النوم: «**أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه**» وأن ينام على سيد الاستغفار.

والعارف بالله وأسمائه وصفاته وحقوقه يعلم أن العبد أحوج ما يكون إلى التوبة فى نهايته.

فبهذا الاستئناف يكون تحقيق العبودية، والقيام بأعبائها، واحتمال فرائضها وسننها وأدائها، والجهاد لأعداء الله، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحمل الأذى في الله، ومعرفة الأسماء والصفات، ومعرفة ما يحبه الله تعالى ويكرهه، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، والعلم بمراتب العبودية ومنازلها.

فالحق أن نهاية السالكين تكميل مرتبة العبودية صرفاً. وهذا مما لا سبيل إليه لبنى الطبيعة. وإنما خص بذلك الخليلان- عليهما الصلاة والسلام- من بين سائر الخلق. أما إبراهيم الخليل - صلوات الله وسلامه عليه- فإن الله عز وجل شهد له بأنه وَفَّي. وأما سيد ولد آدم- صلوات الله وسلامه عليه- فإنه كمل مرتبة العبودية. فاستحق التقديم على سائر الخلائق. فكان صاحب الوسيلة والشفاعة التى يتأخر عنها جميع الرسل، ويقول هو: «**أنا لها**» ولهذا ذكره الله سبحانه وتعالى بالعبودية فى أعلى مقاماته، وأشرف أحواله. كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١] وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩] وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان: ١] ولهذا يقول المسيح، حين يرغب إليه فى الشفاعة: «اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غُفِرَ له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر» فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له. أما اتباع الرسل فالأمثل ثم الأمثل.

والحال الذى يحصل لمن قام بذلك هو حال الرسل وخلفائهم، وهو جمع الهمة على الله سبحانه، محبة وإنابة وتوكلا، وخوفاً ورجاء ومراقبة، وجمع الهمة علي تنفيذ أوامر الله فى الخلق دعوة وجهاداً. فهما حالان: جمع القلب على المعبود وحده. وجمع الهم له على محض عبوديته.

فإن قلت: فأين شاهد هذين الجمعين؟ قلت: فى القرآن كله، فخذه من فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وتأمل في قوله «إياك» التخصص لذاته المقدسة بالعبادة والاستعانة، وما في قوله «نعبد» الذى هو للحال والاستقبال، وللعبادة الظاهرة والباطنة: من استيفاء أنواع العبادة، حالا واستقبالا قولا وعملا، ظاهراً وباطناً. والاستعانة على ذلك لا بغيره. ولهذا كانت الطريق كلها في هاتين الكلمتين. وهى معني قولهم «الطريق فى : إياك أريد بما تريد» فجمع المراد في واحد، والإرادة في مراده الذى يحبه ويرضاه. فإلى هذا دعا الرسل من أولهم إلي آخرهم. وإليه شخص العاملون والمتوجهون. وكل الأحوال والمقامات- من أولها إلى آخرها- مندرجة فى ضمن ذلك، ومن ثمراته وموجباته.

فالعبودية تجمع كمال الحب فى كمال الذل، وكمال الانقياد لمراضي المحبوب وأوامره فهى الغاية التى ليس فوقها غاية. وإذا لم يكن إلى القيام بحقيقتها- كما يجب- سبيل، فعلى التوبة المعوّل، وقد عرفت- بهذا وبغيره- أن الحاجة إليها فى النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. ولولا تنسم روحها لحال اليأس بين ابن الماء والطين وبين الوصول إلى رب العالمين، هذا لو قام بما ينبغى عليه أن يقوم به لسيده من حقوقه. فكيف والغفلة والتقصير والتفريط والتهاون، وإيثار حظوظه في كثير من الأوقات على حقوق ربه لايكاد يتخلص منها؟

(٦٥) منزلة استئناف التوحيد

ومن المنازل: منزلة استئناف التوحيد

وهو ظفر السالك فى النهاية بحقيقة التوحيد المحض، كما ظفر به فى البداية.

إن « التوحيد » أول دعوة الرسل. وأول منازل الطريق. وأول مقام يقوم فيه السالك إلي الله تعالي. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال هود لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال صالح لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال شعيب لقومه ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل. ولهذا قال النبى ﷺ لرسوله معاذ بن جبل- رضى الله عنه- وقد بعثه إلى اليمن- «**إنك تأتى قوماً أهل كتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده. فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة- وذكر الحديث**»، وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**» ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله.

ولكن كما أن التوحيد أول ما يدخل به فى الإسلام فإنه آخر ما يخرج به من الدنيا. كما قال النبى ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره.

ومجرد تنزيه الله عن الحدث لايدل على التوحيد الذى بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وينجو به العبد من النار، ويدخل به الجنة، ويخرج من الشرك، فإنه مشترك بين جميع الفرق. وكل من أقر بوجود الخالق سبحانه أقر به. فعُبَّاد الأصنام والمجوس، والنصارى، واليهود، والمشركون- على اختلاف نحلهم- كلهم ينزهون الله عن الحدث، ويثبتون قدمه. حتى أعظم الطوائف على الإطلاق شركا، وكفراً، وإلحاداً، وهم طائفة الاتحادية، فإنهم يقولون: هو الوجود المطلق، وهو قديم لم يزل. ولم تزل المحدثات تكتسى وجوده، تلبسه وتخلعه.

والفلاسفة- الذين هم أبعد الخلق عن الشرائع وما جاءت به الأنبياء- يثبتون واجب الوجود قديماً منزهاً عن الحدث.

والمشركون– عباد الأصنام الذين يعبدون معه آلهة أخرى– يثبتون قديماً منزهاً عن الحدث.

فالتنزيه عن الحدث حق. لكن لايعطى إسلاماً ولا إيمانا. ولا يدخل فى شرائع الأنبياء. ولا يخرج من نحل أهل الكفر ومللهم ألبتة.

ومع هذا فقد سُئل سيد الطائفة الجنيد عن التوحيد؟ فقال: هو إفراد القديم عن المحدث. والجنيد أشار إلى أنه لا تصح دعوى التوحيد. ولا مقامه ولا حاله. ولا يكون العبد موحداً إلا إذا أفرد القديم عن المحدث. فإن كثيراً ممن ادعى التوحيد لم يفرده سبحانه من المحدثات. فإن من نفى مباينته لخلقه فوق سمواته على عرشه، وجعله في كل مكان بذاته لم يفرده عن المحدث. بل جعله حالاً في المحدثات مخالفاً لها، موجوداً فيها بذاته.

قال الأشعرى فى كتاب المقالات: هذه حكاية قول قوم من النساك. وفى الأمة قوم ينتحلون النُسك، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول فى الأجسام. وإذا رأوا شيئاً يستحسونه قالوا: لا ندرى! لعله ربنا.

قلت: وهذه الفرقة طائفتان. إحداهما: تزعم أنه سبحانه يحل فى الصورة الجميلة المستحسنة. والثانية: تزعم أنه سبحانه يحل فى الكفمَّل من الناس. وهم الذين تجردت نفوسهم عن الشهوات. واتصفوا بالفضائل، وتنزهوا عن الرذائل. والنصارى تزعم أنه حل فى بدن المسيح وتدرع به. والاتحادية تزعم أنه وجود مطلق اكتسته الماهيات فهو عين وجودها.

فكل هؤلاء لم يفردوا القديم عن المحدث.

هو الله الخالق.. له الأسماء الحسنى

وهذا الإفراد– الذى أشار إليه الجنيد– نوعان. أحدهما: إفراد فى الاعتقاد والخبر. وذلك نوعان أيضاً. أحدهما: إثبات مباينة الرب تعالى للمخلوقات، وعلوه فوق سبع سماوات. كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلي آخرها. وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم. والثاني: إفراده سبحانه بصفات كماله، وإثباتها له على وجه التفصيل، كما أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسله، منزهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل، والتكييف والتشبيه، بل تثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات. وتنفى عنه فيها مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

وفي هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات– أعيانها وصفاتها وأفعالها– وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدرته، وعلمه وحكمته. فيباين صاحب هذا الإفراد سائر فرق أهل الباطل من الاتحادية، والحلولية، والجهمية الفرعونية، الذين يقولون: ليس فوق السماوات

رب يعبد. ولا على العرش إله يُصلى له ويُسجد. والقدرية الذين يقولون: إن الله لايقدر على أفعال العباد، من الملائكة والإنس والجن، ولا على أفعال سائر الحيوانات، بل يقع في ملكه ما لا يريد، ويريد ما لايكون. فيريد شيئاً لايكون، ويكون شئ بغير إرادته ومشيئته. والله سبحانه أعلم.

وهو الله المعبود.. سبحانه

والنوع الثاني من الإفراد: إفراد القديم عن المحدث بالعبادة- من التأله، والحب، والخوف، والرجاء والتعظيم، والإنابة والتوكل، والاستعانة وابتغاء الوسيلة إليه- فهذا الإفراد، وذلك الإفراد: بهما بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، ولأجل ذلك خلقت السماوات والأرض، والجنة والنار، وقام سوق الثواب والعقاب. فتفريد القديم سبحانه عن المحدث: فى ذاته وصفاته وأفعاله. وفى إرادته وحده ومحبته وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة والحلف به، والنذر له، والتوبة إليه، والسجود له، والتعظيم والإجلال، وتوابع ذلك. ولذلك كانت عبارة الجنيد عن التوحيد عبارة سادة مسددة.

و«التوحيد» هو الغاية المطلوبة من جميع المقامات والأعمال والأحوال،فغايتها كلها التوحيد. وإنما كلام العلماء والمحققين من أهل السلوك كله لقصد تصحيحه. وهذا بين من أول المقامات إلى آخرها. فإنها تشير إلى تصحيحه وتجريده.

فالتوكل مثلاً هو حقيقة التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به، وفي «باب التوكل» بيان ذلك، وأنه من مقامات الرسل.

مَنْ ظن نفسه متوكلاً وهو واهم

للتوكل ثلاث علل تؤثر فى كمال التوحيد، وتنشأ عن أوهام تجعل العبادة ناقصة.

إحداها: أن يترك ما أمر به من الأسباب، استغناء بالتوكل عنها. فهذا توكل عجز وتفريط وإضاعة. لا توكل عبودية وتوحيد. كمن يترك الأعمال التى هى سبب النجاة، ويتوكل فى حصولها. ويترك القيام بأسباب الرزق- من العمل والحراثة والتجارة ونحوها- ويتوكل فى حصوله. ويترك طلب العلم، ويتوكل فى حصوله. فهذا توكله عجز وتفريط. كما قال بعض السلف: لا تكن ممن يجعل توكله عجزاً، وعجزه توكلا.

العلة الثانية: أن يتوكل فى حظوظه وشهواته دون حقوق ربه. كمن يتوكل فى حصول مال أو زوجة أو رياسة. وأما التوكل فى نصرة دين الله، وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله، وجهاد أعدائه فليس فيه علة. بل هو مزيل للعلل.

العلة الثالثة: أن يرى توكله منه. ويغيب بذلك عن مطالعة المنة وشهود الفضل، وإقامة الله له في مقام التوكل. وليس مجرد رؤية التوكل علة، كما يظنه، بل عليه أن يرى أن توكله من عين الجود، ومحض المنة، وأنه توفيق الله تعالى.

فهذه العلل الثلاث هى التى تعرض فى مقام التوكل وغيره من المقامات. وهى التى يعمل العارفون بالله وأمره على قطعها. وهكذا الكلام فى سائر علل المقامات. وإنما ذكرنا هذا مثالا لما يذكر من عللها. فعلل كل مقام هى هذه الثلاثة المذكورة: أن يترك بها ما هو أعلي منها، وأن يعلقها بحظه، والانقطاع بها عن المقصود، وأن لايراها توفيقاً ربانياً وجوداً وكرماً.

كمال التوحيد شرط الإمامة

لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم– علماً ومعرفة وحالا– تفاوتاً لا يحصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والمرسلون منهم أكمل فى ذلك. وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيداً. وهم نوح، وإبراهيم، وموسى،وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأكملهم توحيداً: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما. فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما– علما ومعرفة وحالا، ودعوة للخلق وجهاداً– فلا توحيد أكمل من الذى قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدى بهم فيه. كما قال سبحانه– بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه فى بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته– ثم قال: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[الأنعام: ٨٩، ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى بهم.

ولما قاموا بحقيقته– علما وعملا ودعوة وجهاداً– جعلهم الله أئمة للخلائق. يهدون بأمره ويدعون إليه. وجعل الخلائق تبعاً لهم. يأتمرون بأمرهم. وينتهون إلي ما وقفوا بهم عنده. وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[البقرة: ١٢٤] أى لاينال عهدى بالإمامة مشرك. ولهذا أوصى نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم، وكان يعلم أصحابه، إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلما، وما كان من المشركين**» فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد: ماجاء به من عند الله قولا وعملا واعتقاداً. وكلمة الإخلاص: هى شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام: هى ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا، وانقيادا وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذى من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٠]

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيها لا أسفه منه، ورشيداً. فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولا وعملا وحالا. فكان قوله توحيداً، وعمله توحيداً، وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين- من أولهم إلى آخرهم- قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي**﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٤] أى هذا الكتاب الذى أنزل عليّ. وهذه كتب الأنبياء كلهم: هل وجدتم في شئ منها اتخاذ آلهة مع الله؟ أم كلها ناطقة بالتوحيد آمرة به؟ وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦] و«الطاغوت» اسم لكل ما عبدوه من دون الله. فكل مشرك إلهه طاغوته.

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على التوحيد الذى جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم. ونزلت به الكتب كلها. وبه أمر الله الأولين والآخرين، وذكر الآيات الواردة بذلك.

ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ وهذه أول دعوة الرسل وآخرها. قال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. وأني رسول الله**» وقال: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة**» والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه. وتعليق النجاة والسعادة فى الآخرة به. وحقيقته: إخلاص الدين كله لله. والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء. وهو أن تثبت إلهية الحق تعالي فى قلبك. وتنفي إلهية ما سواه. فتجمع بين النفى والإثبات. فالنفى هو الفناء. والإثبات هو البقاء. وحقيقته: أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه. وبطاعته عن طاعة ما سواه. وكذلك بموالاته وسؤاله، والاستغناء به، والتوكل عليه. ورجائه ودعائه، والتفويض إليه، والتحاكم إليه، واللجوء إليه، والرغبة فيما عنده. قال تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ**

اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣] وقال تعالى: ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣] ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] وقال عن أصحاب الكهف: ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤] وقال عن صاحب يس: ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ [الشورى: ٩].

وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]. وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]

وهذا في القرآن كثير. بل هو أكثر من أن يذكر. وهو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وذروة سنامه، وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ

وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٢] وإذا تدبرت القرآن- من أوله إلى آخره- رأيته يدور على هذا التوحيد، وتقريره وحقوقه.

قال شيخنا: والخليلان هم أكمل خاصة الخاصة توحيداً. ولايجوز أن يكون فى الأمة من هو أكمل توحيداً من نبى من الأنبياء. فضلاً عن الرسل، فضلاً عن أولى العزم، فضلاً عن الخليلين. وكمال هذا التوحيد: هو أن لايبقى فى القلب شئ لغير الله أصلا. بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شئ، يحب من أحب وما أحب، ويبغض من أبغض وما أبغض، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه.

ولعمر الله إنه لظهوره وجلائه أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأمر الله به الأولين والآخرين من عباده.

فظهور هذا التوحيد وانجلاؤه ووضوحه وشهادة الفطر والعقول به: من أعظم الأدلة أنه أعلى مراتب التوحيد، وذروة سنامه. ولذلك قوى علي نفى الشرك الأعظم. فإن الشئ كلما عظم لا يدفعه إلا العظيم. فلو كان شئ أعظم من هذا التوحيد لدفع الله به الشرك الأعظم. ولعظمته وشرفه نصبت عليه القبلة وأسست عليه الملة، ووجبت به الذمة. وانفصلت به دار الكفر من دار الإسلام، وانقسم به الناس إلى سعيد وشقى، ومهتدٍ وغوىٌّ، ونادت عليه الكتب والرسل.

التوحيد فقه قلبى لا بلاغة لسان

وهذا التوحيد مستتر فى قلوب أهله وإن كان أكثرهم لايحسن الاستدلال عليه تقريراً وإيضاحاً، وجواباً عن المعارض، ودفاعاً لشبه المعاند. ولاريب أن أكثر الناس لايحسنون ذلك وهذا قدر زائد على وجود التوحيد فى قلوبهم. فما كلُ من وجد شيئاً وعلمه وتيقنه أحسن أن يستدل عليه، ويقرره، ويدفع الشبه القادحة فيه. فهذا لون ووجوده لون.

فاستدلال كل أحد بحسبه، ولا يحصى أنواع الاستدلال ووجوه ومراتبه إلا الله. فلكل قوم هاد، ولكل علم صحيح ويقين دليل يوجبه، وشاهد يصح به. وقد لايمكن صاحبه التعبير عنه عجزاً وعياً. وإن عبر عنه فقد لايمكنه التعبير عنه باصطلاح أهل العلم وألفاظهم. بل من استقرأ أحوال الناس رأى أن كثيراً من أهل الإسلام- أو أكثرهم- أعظم توحيداً، أكثر معرفة، وأرسخ إيماناً من أكثر المتكلمين، وأرباب النظر والجدال، ويجد عندهم من أنواع الأدلة والآيات التى يصح بها إيمانهم ما هو أظهر وأوضح وأصح مما عند المتكلمين. وهذا الآيات التى ندب الله عباده إلى النظر فيها، والاستدلال بها على توحيده، وثبوت صفاته وأفعاله، وصدق رسله: هى آيات مشهودة

بالحس، معلومة بالعقل، مستقرة في الفطر. لايحتاج الناظر فيها إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطرقهم ألبتة. وكل من له حس سليم، وعقيل يميز به يعرفها ويقر بها، وينتقل من العلم بها إلي العلم بالمدلول. وفى القرآن ما يزيد على عشرات المئات من هذه الآيات البينات. ومن لم يحفظ القرآن فإنه إذا سمعها وفهمها وعقلها انتقل ذهنه منها إلى المدلول أسرع انتقال وأقر به.

وبالجملة: فما كل من علم شيئاً أمكنه أن يستدل عليه. ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره، والجواب عن المعارض.

بذرة التوحيد نامية

قال شيخ الإسلام الهروى:

«ويجب التوحيد بالعقل والسمع، ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره، وينمو بإجابة داعى الحق والتبصر فى الشواهد».

هذه ثلاث مسائل. إحداها: ما يجب به. والثانية: ما يوجد به، والثالثة: ما ينمو به.

فأما المسألة الأولى: فاختلف فيها الناس. فقالت: طائفة يجب بالعقل، ويعاقب على تركه. والسمع مقرر لما وجب بالعقل مؤكد له. فجعلوا وجوبه والعقاب على تركه ثابتين بالعقل. والسمع مبين ومقرر للوجوب والعقاب. وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم من أتباع الأئمة فى مسألة التحسين والتقبيح العقليين.

وقالت طائفة: لايثبت بالعقل. لا هذا ولا هذا. بل لايجب بالعقل فيها شئ. وإنما الوجوب بالشرع. ولذلك لا يستحق العقاب على تركه. وهذا قول الأشعرية ومن وافقهم على نفى التحسين والتقبيح.

والحق: أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع، والقرآن علي هذا يدل. فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية على التوحيد، ويبين حسنه وقبح الشرك عقلا وفطرة. ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك. ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال، وهى الأدلة العقلية. وخاطب العباد بذلك خطاب من استقر فى عقولهم وفطرهم حسن التوحيد ووجوبه. وقبح الشرك وذمه. والقرآن مملوء بالبراهين العقلية الدالة على ذلك. كقوله: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٢٩] وقوله: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)** ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦] وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ**

ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] إلى أضعاف ذلك من براهين التوحيد العقلية التى أرشد إليها القرآن ونبه عليها.

ولكن ههنا أمر آخر. وهو أن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلي حين ورود الشرع. كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك: ٨، ٩] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩] وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١] فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل. وأنه لايهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم. فالآية رد على الطائفتين معاً، من يقول: إنه لايثبت الظلم والقبح إلا بالسمع، ومن يقول: إنهم معذبون على ظلمهم بدون السمع. فالقرآن يبطل قول هؤلاء وقول هؤلاء. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧] فأخبر: أن ما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل سبب لإصابتهم بالمصيبة. ولكن لم يفعل سبحانه ذلك قبل إرسال الرسول الذى يقيم به حجته عليهم، كما قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧] وقوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٩] وهذا في القرآن كثير. يخبر أن الحجة إنما قامت عليهم بكتابه ورسوله، كما نبههم بما في عقولهم وفطرهم: من حسن التوحيد والشكر، وقبح الشرك والكفر.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة فى كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً تبطل قول من نفي القبح العقلى. وزعم أنه ليس في الأفعال ما يقتضي حسنها ولا قبحها. وأنه يجوز أن يأمر الله بعين ما نهي عنه، وينهي عن عين ما أمر به، وأن ذلك جائز عليه. وإنما الفرق بين المأمور والمنهي بمجرد الأمر والنهى، لا بسحن هذا وقبح هذا. وأنه لو نهى عن التوحيد والإيمان والشكر لكان قبيحاً. ولو أمر بالشرك والكفر والظلم والفواحش لكان حسناً. وبينا أن هذا القول مخالف للعقول والفطر، والقرآن والسنة.

والمقصود: وجوبه بالسمع والعقل، وإن اختلفت جهة الإيجاب. فالعقل يوجبه: بمعنى اقتضائه لفعله، وذمه علي تركه، وتقبيحه لضده. والسمع يوجبه بهذا المعنى. ويزيد: إثبات العقاب علي تركه، والإخبار عن مقت الرب تعالى لتاركه، وبغضه له. وهذا قد يعلم بالعقل. فإنه إذا تقرر قبح الشئ وفحشه بالعقل، وعلم ثبوت كمال الرب جل جلاله بالعقل أيضاً: اقتضى ثبوت هذين الأمرين: علم العقل بمقت الرب تعالى لمرتكبه. وأما تفاصيل العقاب، وما يوجبه مقت الرب منه: فإنما يعلم بالسمع.

واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً فى الفطر، فلا وثوق بشئ من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله فى العقول والفطر. ولهذا يقول سبحانه عقيب تقرير ذلك: ﴿**أفلا تعقلون؟ أفلا تذكرون؟**﴾ وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم في النار، إنهم لم يكونوا يسمعون ولايعقلون. وإنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وأخبر عنهم: أنهم ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١] وأخبرهم عنهم ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ [الأحقاف: ٢٦] أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. ولو لم يكن فى صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: «انظروا» و«اعتبروا» و«سيروا فى الأرض، فانظروا» فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لاتدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير فى الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس فى ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حى، وعقل سليم، وفطرة صحيحة. قال تعالي: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [الزمر:٢٧] وقال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٢] وقال تعالى: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما

حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقال فى ثمود: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣] وقال فى قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٩] وقال تعالى فى قوم لوط: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وهو سبحانه يذكر فى سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد. ثم يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨] فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، توحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن فى ذلك آية وبرهانا للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الإهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر فى آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن سمعية عقلية.

المسألة الثانية: قوله: «ويوجد بتبصير الحق» وجوب الشئ شرعاً لايستلزم وجوده حساً فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به. وهو تبصير الحق تعالى. ومراده: التبصير التام الذى لا تختلف عنه الهداية، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية. كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] فهو- سبحانه- بصَّرهم، فآثروا الضلال على الهدى. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] فهذا التبصير لم يوجب وجود الهداية، لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة. فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

وأما التبصير التام: فإنه يستلزم وجود الهداية. وهو الذى أمرنا أن نسأله إياه فى كل صلاة. وقال فيه أهل الجنة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] فعم بدعوته البيان والدلالة، وخص بهدايته التوفيق والإلهام.

المسألة الثالثة: قوله: «وينمو بإجابة داعى الحق» إذ لايكفى مجرد مشاهدة الشواهد فى نموه:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] يمر عليها العبد ولاينمو بها ولايزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده. فإذا أجاب الداعى وتبصر فى الشواهد نما توحيده، وقوى إيمانه. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧] وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد تضمن كلام الشيخ مادلت عليه النصوص، واتفق عليه الصحابة والتابعون: أن الإيمان والتوحيد ينموان ويتزايدان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة الذى فارقوا به الجهمية والمرجئة.

تعلُّق الهداية بالتوفيق الربانى لاينفى وجوب الدعوة

وتعلق العبد بالشواهد، وهى الأدلة والآيات: من التوحيد، فإن الله سبحانه نصب الأدلة على التوحيد، وأقام البراهين وأظهر الآيات، وأمرنا أن نشهد الأدلة والآيات، وننظر فيها ونستدل بها، ولايجتمع هذا الإثبات وذلك النفى ألبتة، والمخلوقات كلها آيات للتوحيد، وكذلك الآيات المتلوة أدلة عليه.

فالتوحيد -كل التوحيد- أن يشهد كل شئ دليلاً عليه، مرشداً إليه، والرسل هم أدلة للتوحيد، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] والهادى: هو الدليل الذى يدل بهم فى الطريق إلى الله، والدار الآخرة. ولا يناقض هذا قوله: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] فإن الله سبحانه تكلم بهذا وهذا. فرسله الهداة هداية الدلالة والبيان. وهو الهادى هداية التوفيق والإلهام فالرسل هم الأدلة حقاً. والله سبحانه هو الموفق الملهم، الخالق للهدى فى القلوب.

ومن محض التوحيد: أن تشهد العبودية وقيامك بها، وتشهد أنها من عين المنة والفضل، وتشهد فقرك وفاقتك، فقد خرج النبى ﷺ يوماً على حلقة من أصحابه، وهم يتذاكرون. فقال: «**ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر ما منَّ الله به علينا، وهدانا بك إلى الإسلام. فقال**: آلله، **ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا**: آلله **ما أجلسنا إلا ذلك. فقال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن الله يباهى بكم الملائكة**».

فكان من أسباب مباهاة الله بهم الملائكة: شهودهم سبب التوحيد، ووسيلة النجاة، وأنهم من من الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

ولايصادم هذا الشعور بالفقر أن يفتخر المؤمن بما كان من منة الله تعالي عليه، إذا كان قصده ذكرها ونشرها تعليماً وتربية للآخرين.

فالافتخار نوعان: مذموم، ومحمود. فالمذموم: إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعا عليهم. وهذا غير مراد. والمحمود: إظهار الأحوال السنية، والمقامات الشريفة،بَوْحاً بها. أى تصريحاً وإعلاناً، لا على وجه الفخر. بل على وجه تعظيم النعمة، والفرح بها، وذكرها ونشرها، والتحدث بها، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد فى إظهارها. كما قال النبى ﷺ **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»** و**«أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر»** و**«أنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»** وقال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه: «أنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله» وقال أبو ذر رضي الله عنه «لقد أتى عليّ كذا وكذا وإنى لثالث الإسلام» وقال على بن أبى طالب– رضي الله عنه– : «إنه لعهد النبى الأمى إليّ: أنه لايحبنى إلا مؤمن، ولا يبغضنى إلا منافق». وقال عمر– رضي الله عنه –:« وافقت ربى فى ثلاث» وقال على رضى الله عنه– وأشار إلى صدره– : «إن ههنا علماً جماً. لو أصبت له حملة» وقال عبد الله بن مسعود– رضي الله عنه– : «أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة. وإن زيداً ليلعب مع الغلمان» وقال أيضا: «مامن كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وماذا أريد بها؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لرحلت إليه» وقال بعض الصحابة: «لأن تختلف فى الأسنة أحب إليّ من أن أحدث نفسى فى الصلاة بغير ما أنا فيه» وهذا أكثر من أن يذكر.

الإسلام فَرْق

ومن تمام التوحيد: أن يكون العبد صاحب جمع وفرق.

و«الجمع» في اللغة الضم. والاجتماع الانضمام. والتفريق: ضده. وفى اصطلاح الصوفية: هو شخوص البصيرة إلى مَنْ صدرت عنه المتفرقات كلها.

وأما «الفرق» الإسلامي: فهو الفرق بين ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله. وهذا الفرق من لم يكن من أهله لم يشم رائحة الإسلام ألبتة. وقد حكى الله سبحانه عن أهل الشهوات أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور إذ قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فلا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة، لا فرق بينهما. وقالوا: الحلال والحرام شئ واحد. فهذا جمعهم وذلك فرقهم.

وعبادتنا جمع

أما الجمع فجمعان:

جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه،

يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولارازق، ولا معطى ولا مانع، ولا مميت ولا محيى، ولامدبر لأمر المملكة- ظاهراً وباطناً- غيره. فما شاء كان، ومالم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولايجرى حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه. فتجتمع شئون إرادته على مراده الدينى الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة (إياك نعبد وإياك نستعين) فإن العبد يشهد من قوله: «إياك» الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التى لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله «نعبد» جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً، قصداً وقولا وعملا وحالا واستقبالا. ثم يشهد من قوله «وإياك نستعين» جميع أنواع الاستعانة، والتوكل والتفويض. فيشهد منه جميع الربوبية. ويشهد من «إياك نعبد» جميع الإلهية. ويشهد من «إياك» الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية.

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مدركا له.

الثانية: أن يقدره عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلا له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه فى الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى. فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالا. وهذه هداية فيها وفى منازلها تفصيلا.

الثامنة: أن يشهده المقصود فى الطريق، وينبه عليه. فيكون مطالعاً له فى سيره، ملتفتاً إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلا وضلالا. ثم يشهد جمع «الصراط المستقيم» فى طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء الصالحين.

فهذا هو الجمع الذى عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل لهذ هذا الجمع. فهو على الصراط المستقيم. والله أعلم.

(٦٦) منزلة الشهادة

وهى نهاية رحلة هجـــرة المؤمن إلى الله ورســـوله

وتقوده إلى تكرار السير والانعطاف نحو باب البداية

وآخر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» : منزلة «الشهادة»

واعلم أن التوحيد الذى دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه نوعان: توحيد فى المعرفة والإثبات، وتوحيد فى المطلب والمقصد.

فالأول : هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح. كما فى أول سورة الحديد، وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها. وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنه سورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[آل عمران: ٦٤] وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام» وغالب سورة القرآن، بل كل سورة في القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد.

بل نقول قولا كلياً: إن كل آية فى القرآن فهى متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمى الخبرى. وإما دعوة إلي عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما أمر ونهى، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره. فهى حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خير عن كرامة الله لأهل التوحيد وطاعته، وما فعل بهم فى الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال، وما يحل بهم فى العقبى من العذاب. فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ «الحمد لله» توحيد «رب العالمين» توحيد «الرحمن الرحيم» توحيد «مالك يوم الدين» توحيد «إياك نعبد» توحيد «وإياك نستعين» توحيد «اهدنا الصراط المستقيم» توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» الذين فارقوا التوحيد. ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهد له به ملائكته، وأنبياؤه ورسله. قال:

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾[آل عمران: ١٨، ١٩].

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد علي جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية: أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجلٍّ شاهد، بأجلٍّ مشهود به. وعبارات السلف فى «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار. قال مجاهد: حكم، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّن. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها فإن «الشهادة» تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله. وتتضمن إعلامه، وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب. مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة،وإلا كان الشاهد شاهداً بما لاعلم له به. قال الله تعالي: ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[الزخرف: ٨٦] وقال النبى ﷺ **(على مثلها فاشهد)** وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشئ وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾[الزخرف: ١٩] فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عنه غيرهم. قال النبى ﷺ: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**» وشهادة الزور هى قول الزور. كما قال تعالى: ﴿ **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾[الحج: ٣٠، ٣١] وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**» فسمى قول الزور شهادة. وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾[النساء: ١٣٥] فشهادة المرء على نفسه هى إقراره علي نفسه. وفي الحديث الصحيح فى قصة ماعز الأسلمى «**فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه**

رسول الله ﷺ » وقال تعالى: ﴿ **قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا – وأضعافه– يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره، لايشترط فى قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد. ولايعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: « شهد عندى رجال مرضيون– وأرضاهم عندى عمر– أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح، حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس » ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة. لم يتلفظ فى شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى في الجنة**» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » فقد دخل فى الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله: « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » وفى لفظ آخر « حتي يقولوا لا إله إلا الله » فدل على أن مجرد قولهم « لا إله إلا الله » شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة. دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

آيات الله تعالى فى الآفاق تشهد

وأما مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة بعلمه بقوله. وتارة بفعله.

فشهادة الرب جلَّ جلاله وبيانه وإعلامه. يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه. ومما قد علم بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شهد لنفسه « بأنه لا إله إلا هو » وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه « أن لا إله إلا هو » معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التى تعلم دلالتها بالعقل والفطرة. وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً وكلاماً. لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت له العينان: سمعاً وطاعة   وحَـــذَّرتا بالـــــدر لما يثقب

وقال الآخر:

شكا إلىّ جملى طول السُّرى   صبراً جُميلى فكلانا مبتلى

ويسمى هذا شهادة أيضاً. كما فى قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم**﴾ [التوبة: ١٧] فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهى شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.

والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هى بخلقه وجعله. ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت: ٥٣] أي أن القرآن حق. فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

وأما المرتبة الرابعة- وهى الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لايستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه- فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ [القصص: ٨٨] والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبيّن وأعلم، وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله. وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه. كما لا تصلح الإلهية لغيره وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات. كما إذا رأيت رجلا يستفتى أو يشتهد، أو يستطب مَنْ ليس أهلا لذلك، ويَدَع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب. المفتى فلان. والشاهد فلان. والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهى.

وأيضاً فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل فى الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و«حكم» وقد حكم فيها بكيت وكيت، قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ**

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤] فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما. وقال فى موضع آخر: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

قيام الله بالقسط يقتضى الثواب والعقاب

وقوله تعالى: «قائما بالقسط» هو العدل. فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل فى توحيده. وبالوحدانية فى عدله. و«التوحيد» و«العدل» هما جماع صفات الكمال. فإن «التوحيد» يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذى لا ينبغى لأحد سواه. و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعباده الله وحده لاشريك له. وإثبات القدر والحكم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذى هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذى هو التكذيب بالقدر، أو نفى الحكم والغايات والعواقب الحميدة التى يفعل الله لأجلها ويأمر. وقيامه سبحانه بالقسط فى شهادته يتضمن أموراً.

أحدها: أنه قائم بالقسط فى هذه الشهادة التى هى أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق، فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل فى هذه الشهادة قولا وفعلا. حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده. وبيّن لهم تحقيقها وصحتها. وألزمهم بمقتضاها. وحكم به. وجعل الثواب والعقاب عليها. وجعل الأمر والنهى من حقوقها وواجباتها. فالدين كله من حقوقها. والثواب كله عليها. والعقاب كله علي تركها.

وهذا هو العدل الذى قام به الرب تعالي فى هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها. وثوابه كله عليه، وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهى الحق الذى خلقت به. وضدها هو الباطل والعبث الذى نزه نفسه عنه. وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض، قال تعالى- رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾ [الأحقاف: ١ - ٣] وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥]وقال:

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] وهذا كثير في القرآن. والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد، وحقوقه في الأمر والنهي، والثواب والعقاب، فالشرع والقدر، والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنها. وهذا هو الصراط المستقيم الذى عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى- حكاية عن نبيه هود- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فهو سبحانه على صراط مستقيم فى قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

والمقصود: أن قوله تعالى «**قائما بالقسط**» هو كقوله: «**إن ربى على صراط مستقيم**» وقوله «**قائما بالقسط**» نصب على الحال. وفيه وجهان. أحدها: أنه حال من الفاعل فى «**شهد الله**» والعامل فيها الفعل. والمعني على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، والثاني: أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أى لا إله إلا هو، حال كونه قائماً بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله- متكلما بالعدل، مخبراً به، آمرا به، فاعلاً له، مجازياً به- أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون فى القول والفعل، و«المقسط» هو العادل فى قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل- قولاً وفعلاً- أنه لا إله إلا هو. وفى ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهى أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شئ وأصحه.

وإذا كان القيام بالقسط يكون فى القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لابالظلم. فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً، فإنها تضمنت أنه هو الذى يستحق العبادة وحده دون غيره. وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائماً بالعدل- المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار- كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله: «قائماً بالقسط» تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

واحد.. وذو عدل.. سبحانه

وأما التقدير الثانى- وهو أن يكون قوله: «قائما» حالا مما بعد «إلا»، فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائماً بالعدل. فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائماً بالقسط.

قال شيخنا ابن تيمية: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولى العلم يشهدون له بأنه لاإله إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله «قائما بالقسط» حالاً من المشهود به. فهو كالصفة له. فإن الحال صفة فى المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة علي ذى الحال وصاحبها كان كلاهما مشهوداً به. فيكون «الملائكة وأولو العلم» قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لايتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله- قائماً بالقسط- أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو، كان القيام بالقسط حالاً من اسم «الله» وحده.

وأيضا فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالاً من «هو» فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطا بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولى العلم علي الضمير في قوله «قائماً بالقسط» ولايحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعا. وإنما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط مختص به، كما أنه مختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المجازى المثيب المعاقب بالعدل.

قوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أى قولوا «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالى للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس فى ذلك شهادة من التالى نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالى. فيكون شاهدا هوأيضاً.

وأيضاً فالأولى: خبر عن شهادة بالتوحيد. والثانية: خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله «العزيز الحكيم» فتضمنت الآية توحيده وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد: يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده ولاشريك له. و«العدل» يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يختص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لايعاقب من لايستحق العقوبة، ولايمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذى جعله مستحقا. و«العزة» تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره. و«الحكمة» تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «العزيز» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد. وذلك حقيقة «لاإله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير» وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله. و«الحكيم» الذى أمر بأمر كان حسناً فى نفسه. وإذا نهى عن شئ كان قبيحا فى نفسه. وإذا أخبر بخبر كان صادقا. وإذا فعل فعلا كان صوابا، وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره، وهذا الوصف على الكمال لايكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك. وعدله المنافى للظلم. وعزته المنافية للعجز. وحكمته المنافية للجهل والعيب. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة. ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولايقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة، وسائر الطوائف أهل البدع لايقومون بها.

فهذه الشهادة العظيمة متضمنة لإبطال ماهم عليه ورده. كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده. وهى مبطلة لقول طائفتى الشرك والتعطيل. ولايقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. وينفون عنه مماثلة المخلوقات ويعبدونه وحده لايشركون به شيئا.

شهادته سبحانه لنفسه أتم من شهادة المبتدعة

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به. وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم به: لم ينتفعوا. ولم يقم عليها بها الحجة. كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها. لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها. فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلما وتكليما. حقيقة لا مجازا.

وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده مادلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التى وضعت لها ألفاظها. فإن هذا ضد البيان والإعلام. ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله. وأخبر أنه من أظلم الظالمين. فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تُحقق ما جاء به رسوله من إعلان نبوته، وتوحيد الرسل وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم، وكتم هذه الشهادة: كان من أظلم

الظالمين- كما فعله أعداء رسول الله ﷺ من اليهود، الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم- فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التى يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة. ولا يشهد بها لنفسه، ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها، ولايجامعها بوجه ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوي على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر، وتنزل من عنده به. وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتى ويجئ، ويتكلم ، ويرضى ويغضب، ويحب ويكره، ويفرح ويضحك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه. إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك، وقالوا: شهادتنا أصح، وأعدل من شهادة النصوص، فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالى تكذب هؤلاء أشد التكذيب. وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره، حتى جعله في أعلي مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه. فإن الحق فى نفس الأمر- عندهم- لم يشهد به لنفسه، والذى شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه فليس بحق، ولايجوز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية. وآيات الرب هى دلائله وبراهينه التى بها بعرفه العباد، وبها يعرفون أسماءه وصفاته. وتوحيده، وأمره ونهيه. فالرسل تخبر عنه بكلامه الذى تكلم به. وهو آياته القولية ويستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك، وهى آياته العيانية. والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة ماجاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة. وهو سبحانه- لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبته للعذر، وإقامته للحجة- لم يبعث نبيا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ** ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] وقال تعالى: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)** ﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤] وقال تعالى: ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ** ﴾ [فاطر: ٤] وقال تعالى: ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ [فاطر: ٢٥].

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه ﴿ **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا**

ببيّنة ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبينته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله: ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)** ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] فهذا من أعظم الآيات: أن رجلا واحدا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب. غير جزع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم- إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة- أنه برئ من دينهم وآلهتهم، التى يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، لايستطيعون، فإنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير. وبين أن ربه تعالى وربهم، الذى نواصيهم بيده هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم. فلا يخذل من توكل عليه وآمن به. ولا يشمت به أعداءه. ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذى هو عليه- فى قوله وفعله- يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه. وينزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم هو العدل الذى عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام. ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم. وأنه يذهب بهم، ويستخلف قوماً غيرهم. ولا يضره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شئ حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً.

فأى آية وبرهان أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم. بيَّنها لعباده غاية البيان. وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»**.

ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو- فى أحد التفسيرين- المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذى صدّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التى دل بها على صدقهم قضاء وخلقا. فإنه سبحانه أخبر- وخبره الصدق وقوله الحق- أنه لابد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذى بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣]

أى القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴾ [فصلت: ٥٢] ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ماجاء به حق. ووعده أن يُرِىَ العباد من آياته الفعلية الخلقية: ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأَجَلّ، وهو شهادته سبحانه علي كل شئ. فإن من أسمائه «الشهيد» الذى لايغيب عنه شئ. ولايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، بل هو مطلع على كل شئ مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لى كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به فى تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هى الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه فى الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده فى الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع فى الفطر التى لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء كلها من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له، والعلم كله له، والقدرة كلها له. والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى مالم يعرفوه.

ومن كمال المقدس: اطلاعه على كل شئ، وشهادته عليه، بحيث لايغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطناً وظاهراً. ومَنْ هذا شأنُه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به. وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلها آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلى كلمته ويرفع شأنه. ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو- مع ذلك- كاذب عليه مفترٍ، ساعٍ في الأرض بالفساد؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شئ وقدرته على كل شئ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء ومن ظن ذلك به، وجَوَّزه عليه فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهى طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله. وما يليق به أن يفعله ومالايفعله.

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادى على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)** ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] أفلا تراه كيف يخبر سبحانه أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه. وقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ [الشورى: ٢٤] ههنا انتهي جواب الشرط: ثم أخبر جازما غير معلق أنه ﴿ **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٩١] فأخبر أن من نفي عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغى، ولا عظمه كما يستحق. فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جداً. يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله، وعلى وعده ووعيده. ويدعو عباده إلى ذلك. كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك. كما فى قوله: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)** ﴾ [الحشر: ٢٢، ٢٣] وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن.

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿ **كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴾ [الإسراء: ٣٨] فأعلمك أن ما كان سيئة فى نفسه فهو يكرهه. وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً. فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وبمايحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لايصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كان طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة فإنها أوسع وأسهل تناولا. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض. ويرفع درجات من يشاء، وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع فى غيره. فإنه هو الدعوة والحجة. وهو الدليل والمدلول عليه. وهو الشاهد والمشهود له. وهو الحكم والدليل. وهو الدعوى والبينة. قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾ [هود: ١٧] أى من ربه. وهو القرآن. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)** ﴾ [العنكبوت: ٥١، ٥٢] فأخبر سبحانه

أن الكتاب الذى أنزل على رسوله يكفى عن كل آية. ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[العنكبوت: ٥٢] فإذا كان الله سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها. فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم.

وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم. وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألته. وعزته وعلمه عند قضائه وقدره.

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

يظاهر الله رسله بشهادته لنفسه

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[الرعد: ٤٣] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولابد أن تعلم هذه الشهادة. وتقوم بها الحجة على المكذبين له. وكذلك قوله: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾[الأنعام: ١٩] وكذلك قوله ﴿ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ١٦٦] وكذلك قوله: ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) ﴾[يس: ١ - ٣] وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾[المنافقون: ١] وقوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا كله شهادة منه لرسوله. قد أظهرها وبينها. وبين صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهداً لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر فى ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذى أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لايليق به. وفي كل وقت ويحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم له الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزى والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين:

ظهوراً بالحجة ، والبيان، والدلالة، وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة والتأييد، حتى يظهره على مخالفيه، ويكون منصوراً.

وقوله(**لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون**) فما فيه من الخبر عن علم الله الذى لايعلمه غيره من أعظم الشهادة بأنه هو الذى أنزله. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)** ﴾ [هود: ١٣، ١٤] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله– وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شئ معلوم له من حق وباطل– وإنما المعنى: أنزله مشتملا على علمه. فنزوله مشتملا على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق ونظير هذا قوله: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الفرقان: ٦] ذكر ذلك سبحانه تكذيباً ورداً على من قال: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ** ﴾ [الفرقان: ٤].

الفطر السليمة شهادة ربانية

ومن شهادته أيضاً: ما أودعه فى قلوب عباده: من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر– التى فطر عليها الحيوان– الأغذية الخبيثة الضارة التى لا تغذى. كالأبوال والأنتان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته. وفطرها على بعض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه.

ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلي تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية– من الفرح والألم، والحب، والخوف– أنه من عند الله. تكلم به حقاً. وبلّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد فى القلب من أعظم الشواهد. وبه احتج هرقل على

أبي سفيان حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سَخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لايسخطه أحد» وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقوله: ﴿ وليعلم الَّذين أُوتُوا الْعلْمَ أَنَّهُ الْحقُّ من رَّبك فيؤمنوا به ﴾ [الحج: ٥٤] وقوله: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦] وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧] يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذى يهدى ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهى: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله. فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ٢٨] أى بكتابه وكلامه ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به؛ وسكونها إليه من أعظم الآيات. إذ يستحيل فى العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

ذكر شهادة العلماء تغنى عن ذكر شهادة الرسل

فإن قيل: فَلِمَ لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولى العلم؟

قيل: فى ذلك عدة فوائد.

إحداها: أن أولى العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن فى ذكر «أولى العلم» فى هذه الشهادة، وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته، وأن من كان من أولى العلم فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال إذا طلع الهلال واتضح. فإن كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا فاحت رائحة ظاهرة، فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣٦] أى كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا. ففى هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة فهو من أعظم الجهال. وإن علم من أمور الدنيا مالم يعلمه غيره. فهو من أولى الجهل، لا من أولى العلم. وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة، ويؤديها على وجهها إلا أتباع الرسل أهل الإثبات فهو أولو العلم. وسائر من عداهم أولو الجهل. وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة: أنهم «أولو العلم» فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة،

وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب، فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولى العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل. وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وخصومهم نفوا عنه حقائقها، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

وفى ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم. فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. واستشهد بهم- جَلَّ وعلا- على أجل مشهود به. وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة. كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق، فالحجة على من أنكر هذه الشهادة، كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسل على الخلق. وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم حجج الله على العباد.

وقد فسرت «شهادة أولى العلم» بالإقرار. وفسرت بالتبيين والإظهار: أنها تتضمن الأمرين. فشادتهم إقرار، وإظهار وإعلام. وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال تعالي: ﴿ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [الحج: ٧٨].

أى: سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفى هذا القرآن الذى أنزله علي رسولكم.

فأخبر: أنه جعلهم عدولا خياراً. ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق فى علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة- علماً وعملا، ومعرفة وإقراراً، ودعوة وتعليماً، وإرشاداً- فليس من شهداء الله. والله المستعان.

لا دين سوى الإسلام

وأما قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل فى مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبنى على القراءتين فى كسر «إن» وفتحها. فالأكثرون على كسرها على الاستئناف. وفتحها الكسائى وحده. هو الكسر. لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ فى التقرير، وأذهب فى المدح والثناء. ولهذا كان كسر ﴿ **إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور: ٢٨] أحسن من الفتح. وكان الكسر فى قول الملبى «لبيك إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح.

وأرجح ما ذُكر في توجيه قراءة الكسائى بالفتح: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً،

كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام. فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه. كما وقع الاستغناء عنها في قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذفت هنا، وذكرت في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢].

وقد دل قوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. قال أول الرسل نوح: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢] وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] وقال موسى لقومه: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] وقال: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقالت ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. **فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان. فدين الرحمن: هو الإسلام،** والتى للشيطان: اليهودية، والنصرانية، **والمجوسية، والصابئة. ودين المشركين.**

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة **من أسرار التوحيد والمعارف.**

وبدخول السالك ضمن أولى العلم المذكورين خلالها، **وشهادته معهم بقيومية الله سبحانه،** وعزته وحكمته: يبلغ مقصده، ويعتلى الذروة، فيقف على القمة، **شامخاً، إذ يرى بين يديه** منظراً شاملاً للمنازل التى مر بها، متناثرة في وديان الإخبات والمحبة، **ومجموعة على سفوح** التوكل والصبر، فيخر ساجداً، حامداً إذ وصل سالماً ثابتاً، شاكراً خاشعاً.

خاتمة

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين ﴾

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين لله، مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغى لكرم وجهه، وعز جلاله. غير مكفى ولا مكفور، ولا مُوَدَّع، ولا مستغنى عنه ربنا.

ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوقفنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له – فى هذا الكتاب وفي غيره – خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارئ له:

ما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلي ما قال لا إلى من قال. وقد ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه. ويقبله إذا قاله من يحبه. فهذا خلق الأمة الغضبية. قال بعض الصحابة «اقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً. ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيبا» وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة. ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال. كما قيل:

والنقص فى أصل الطبيعة كامن | فبنو الطبيعة نقصهم لايجحد.

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولا؟ ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم فى هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولإخوانه المسلمين. وإن جعل الحق تبعاً للهوى فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى: **﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾** [المؤمنون: ٧١] وقال النبى ﷺ «**لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**». فالعلم والعدل: أصل كل خير. والظلم والجهل: أصل كل شر. والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يعدل بين الطوائف. ولا يتبع هوى أحد منهم. فقال تعالى: **﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾** [الشورى: ١٥]

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضــــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

هذا الكتاب

تهذيب لكتاب (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) للإمام ابن القيِّم ، وكتاب المدارج نتاج تأملات الأيام العوالى فى حياة ابن القيِّم .

وقد حرص الأستاذ / عبد المنعم صالح العلى على تنقية الكتاب من بعض الاستطرادات التى لجأ إليها ابن القيِّم لفضح عقيدة وحدة الوجود الزائغة ، والرد على أخطاء الشيخ الهروى التى حاول المبتدعة إبرازها ، وذلك لعدم حاجة المسلمين إليها ، وبروز بدع من جنس آخر ، كما ألغى الأستاذ عبد المنعم الاستطرادات الفقهية التى لجأ إليها ابن القيم ، إن لم يكن ذكرها ضروريًا ، وكذلك حذف الاستطرادات اللُّغوية والشواهد الشعرية ، والألفاظ الغريبة التى لم تعد متداولة ، والاصطلاحات الصوفية الغامضة ، والأحاديث الضعيفة ، والآثار الإسرائيلية .

والكتاب يُعتبر وثيقة تربوية أصيلة فى يد الشباب المسلم ، لتزكية قلوبهم وتعميرها بأخلاق الإيمان .

والله الهادى ، والموفق إلى صراطه المستقيم

الناشر

